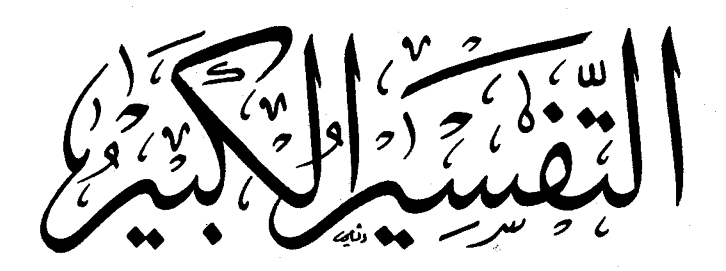


التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

ابن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ

رحمه الله تعالى

الجزء الثالث

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن عميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان



تفسير سورة البقرة

١ ـ عرض مجمل لما تضمنته من معانٍ

٢ ـ عرض بعض الآيات وتفسيرها



تفسير سورة البقرة
(عرض مجمل لما تضمنته من معانٍ)

وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه « سورة البقرة » من تقرير أصول العلم وقواعد الدين : إن الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى [1] ثم الكافرين [2] ، ثم المنافقين [3] ، فهذه « جمل خبرية » ثم ذكر « الجمل الطلبية » فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء [4] وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقاً للعباد ، ثم قرر « الرسالة » وذكر « الوعد » و« الوعيد » ثم ذكر مبدأ « النبوة والهدى » وما بثه في العالم من الخلق والأمر ، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء [5] وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم ، فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق ، فقص جنس دعوة الأنبياء .

---

(١) قال تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ البقرة آية ٥ .

(٢) قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

(٣) قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ . البقرة آية ٨ .

(٤) قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء ﴾ البقرة آية ٢٢ .

(٥) قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ البقرة آية ٣١ .

ثم انتقل إلى خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم ، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ هو قرين محمد ، فذكر آدم الذي هو أول ، وموسى الذي هو نظيره ، وهما اللذان احتجا ، وموسى قتل نفسا فغفر له ، وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه ، وكان في قصة موسى ردّ على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبوات ولا يوجب اتباع ما جاءوا به وقد يتأولون أخبار الأنبياء ، وفيها ردّ على أهل الكتاب بما تضمنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، وتقرير نبوته ، وذكر حال من عدل عن النبوة إلى السحر [١] ، وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم [٢] ، وذكر النصارى وأن الأمتين لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم [٣] ، كل هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة .

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الإسلام التى على ملة ابراهيم ، فذكر ابراهيم الذي هو إمام ، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم وذكر استقباله ، وقرر ذلك ؛ فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم ؛ ولهذا يقال : أهل القبلة ، كما يقال « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم » [٤] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ البقرة آية ١٠٢ .

(٢) قال تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ البقرة آية ١٠٦ .

(٣) قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ .

(٤) الحديث رواه الترمذي في كتاب الإيمان ٢ باب ما جاء في قول النبي - ﷺ - أمرت بقتالهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ٢٦٠٨ - حدثنا ابن المبارك أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال رسول الله - ﷺ - وفيه أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذكره وفي الباب : عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رواه يحيى بن أيوب عن حميد عن أنس =

وذكر من « المناسك » ما يختص بالمكان ، وذلك أن الحج له مكان وزمان ، و« العمرة » لها مكان فقط ، والعكوف والركوع والسجود شرع فيه ، ولا يتقيد به ، لا بمكان ، ولا بزمان ؛ لكن الصلاة تتقيد باستقباله ، فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة : من العكوف ، والصلاة ، والطواف ، والعمرة والحج ، والطواف يختص بالمكان فقط ، ثم اتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجبلين وأنه لاجناح فيه جوابا لما كان عليه الأنصار في الجاهلية من كراهة الطواف بهما لأجل اهلالهم لمناة ، وجواباً لقوم توقفوا عن الطواف بهما .

وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت - بل وبالقلوب والأبدان والأموال - بعدما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما ، وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر ، لأن ذلك من تمام أمر البيت ، لأن أهل الملل لا يخالفون فيه ، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه ، وذكر الصبر على المشروع والمقدور ، وبين ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين ، فإنها أعطيت ما لم تُعط الأمم قبلها ، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت ؛ ولهذا يقرن بين الحج والجهاد لدخول كل منهما في سبيل الله ، فأما الجهاد فهو أعظم سبيل بالنص والإجماع ، وكذلك الحج في الأصح كما قال : « الحج من سبيل الله » .

وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بذمه لكاتم العلم ، ثم ذكر أنه لا يقبل دينا غير ذلك . ففي أولها : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لله أَنْداداً ﴾ [(١)] وفي أثنائها . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنداداً ﴾ [(٢)] فـ « الأول » نهي عام و« الثاني » نهي خاص ، وذكرها بعد البيت لينتهي عن قصد الأنداد المضاهية له ولبيته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك ، ووجد نفسه قبل ذلك ، وأنه ﴿ لَا

= نحو هذا ورواه النسائي في التحريم ١ ، وإيمان ٩ ، ١٥ وأبو داود في الجهاد ٩٥ وأحمد بن حنبل ٣ : ١٩٩ ، ٢٢٥ .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [1] ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات .

ثم ذكر الحلال والحرام ، وأطلق الأمر في المطاعم ؛ لأن الرسول بعث بالحنيفية [2] وشعارها وهو البيت ، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة وفي الدماء بما شرعه من القصاص ، ومن أخذ الدية ، ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان ، فذكر الوصية المتعلقة بالموت ، ثم الصيام المتعلق برمضان ، وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختص بالمسجد وبالزمان استحباباً أو وجوباً بوقت الصيام ووسطه أولاً بين الطواف والصلاة ؛ لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام والصلاة تشرع في جميع الأرض [3] ، والعكوف بينهما .

ثم اتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل ، وأخبر أن المحرم « نوعان » . نوع لعينه كالميته، ونوع لكسبه كالربا والمغصوب ، فاتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه ، وذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقل الحرام المنتقل ، ولهذا اتبعه بقوله :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ [4] الآية .

وهي أعلام العبادات الزمنية ، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج لأن البيت تحجه الملائكة والجن ، فكان هذا أيضاً في

---

(١) سورة البفرة آية رقم ١٦٣ .

(٢) الحنيف - كأمير - الصحيح الميل الى الاسلام الثابت عليه ، وكل من حج أو كان على دين ابراهيم - ﷺ - وحنفه تحنيفاً ، جعله أحنف ، وتحنف عمل عمل الحنيفية ، أو اختتن أو اعتزل عبادة الأصنام .

(٣) روى ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها أبواب التيمم ٩٠ باب ما جاء في السبب ٥٦٧ بسنده عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٨٩ .

أن الحج مؤقت بالزمان كأنه مؤقت بالبيت المكاني ، ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة . وذكر « المحصر »[1] وذكر تقديم الإحلال المتعلق بالمال وهو الهدى عن الإحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق ، وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل ، ولهذا كان آخر ما يحل عين الوطء فإنه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحظور سواه .

وذكر « التمتع بالعمرة » إلى « الحج » لتعلقه بالزمان مع المكان فإنه لا يكون متمتعا حتى يحرم بالعمرة في أشهر الحج ، وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام وهو الأفقي - فإنه الذي يظهر التمتع في حقه لترفهه بسقوط أحد السفرين عنه ، أما الذي هو حاضر فسيان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج ، ثم ذكر وقت الحج ، وأنه أشهر معلومات وذكر الإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة فإن هذا مختص بزمان ومكان ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾[2] ولم يقل : (والعمرة) لأنها تفرض في كل وقت ، ولا ريب أن السنة فرض الحج في أشهره ومن فرض قبله خالف السنة ، فإما أن يلزمه ما التزمه كالنذر - إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت - وإما أن يلزم الإحرام ويسقط الحج ويكون معتمراً وهذان قولان مشهوران . ثم أمر عند قضاء المناسك[3] بذكره وقضائها - والله أعلم - قضاء التفث والإحلال ؛

---

(١) الحصر : يكون من عدو من المشركين أو غيرهم يمنع الحاج من الوصول الى البيت ، وحصره : ضيق عليه وأحاط به ، وبابه نصر ، والحصير : الضيق البخيل ، والحصير : المحبس قال تعالى : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ والحصر : العي وهو أيضاً ضيق الصدر يقال : حصر صدره أي ضاق وبابهما طرب ، وأما قوله تعالى : ﴿حصرت صدورهم﴾ فأجاز الأخفش والكوفيون أن يكون الماضي حالاً ولم يجوزه سيبويه إلا مع قد ، وجعل حصرت صدورهم على جهة الدعاء عليهم ، وقال الأخفش حصرت الرجل فهو محصور : أي حبسته .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٧ .

(٣) النسك : العبادة ، والناسك : العابد ، وقد نسك ينسُك بالضم نسكاً ، وتنسك : أي تعبد ، =

ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ [1] وهذا أيضاً من العبادات الزمانية المكانية . وهو ذكر الله تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات ، ودل على أنه مكاني قوله : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [2] الآية وإنما يكون التعجيل والتأخير في الخروج من المكان : ولهذا تضاف هذه الأيام إلى مكانها فيقال : أيام منى ، وإلى عملها فيقال : أيام التشريق ، كما يقال : ليلة جمع ، وليلة مزدلفة ، ويوم عرفة ، ويوم الحج الأكبر ، ويوم العيد ويوم الجمعة فتضاف إلى الأعمال وأماكن الأعمال ، إذ الزمان تابع للحركة ، والحركة تابعة للمكان .

فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض ، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين : مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه ، وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه ، وذكر أيضاً القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام : لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج .

وذكر أن « البر » [3] ليس أن يشقي الرجل نفسه ويفعل ما لا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيته حتى إذا أراد دخول بيته لا يأتيه إلا من ظهره فأخبر أن الهلال الذي جعل ميقاتاً للحج شرع مثل هذا ، وإنما تضمن شرع التقوى ، ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات ،

= والنسيكة : الذبيحة والجمع : نُسُك بضمتين ، والمنسك بفتح السين وكسرها الموضع الذي تذبح فيه النسائك وقرىء بهما قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ .

(1) (2) سورة البقرة آية رقم ٢٠٣ .

(3) البر : ضد العقوق ، وكذا « المبرة » وجمع البر : أبرار وجمع البار : بررة ، وفلان يبر خالقه : أي يطيعه . وذكر الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ٥ باب تفسير البر والإثم ١٤ (٢٥٥٣) عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه ، عن النواس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه » .

وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك ، ، ثم ختمها بالدعاء العظيم (١) المتضمن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) روى الترمذي في أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في آخر سورة البقرة ٣٠٤٣ ـ حدثنا أحمد ابن منيع ، أخبرنا جرير بن عبد الحميد عن منصور بن المعتمر ، عن ابراهيم بن يزيد عن عبد الرحمن بن يزيد عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

قال شيخ الاسلام
[في تفسير « بلى من كسب سيئة »]

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب التفسير » إلا ما هو خطأ .

منها قوله : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ الآية ، ذكر أن المشهور أن (السيئة) الشرك [1] ، وقيل الكبيرة يموت عليها قال عكرمة ، قال محمد : هل الذنوب تحيط بالقلب .

قلت : الصواب ذكر أقوال السلف وإن كان فيها ضعيف فالحجة تبين ضعفه ، فلا يعدل من ذكر أقوالهم لموافقتها قول طائفة من المبتدعة ، وهم ينقلون عن بعض السلف أن هذه الآية أخطأ فيها الكاتب كما قيل في غيرها ، ومن أنكر شيئاً من القرآن بعد تواتره استتيب فإن تاب وإلا قتل ، وأما قبل تواتره عنده فلا يستتاب ؛ لكن يبين له ، وكذلك الأقوال التي جاءت الأحاديث

---

(١) السيئة ها هنا : الشرك في قول ابن عباس وعكرمة ، وأبي وائل وأبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل .
والسيئة الفعلة القبيحة ، وهي ضد الحسنة ، والحسنة والسيئة ضربان : أحدهما بحسب اعتبار العقل والشرع ، نحو المذكور في قوله تعالى : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » . والثاني بحسب اعتبار الطبع وذلك ما يستخفه الطبع وما يستثقله نحو قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ .

بخلافها : فقهاً وتصوفاً واعتقاداً ، وغير ذلك . وقول مجاهد صحيح، كما في الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء »[1] الخ ، والذي يغشى القلب يسمى « ريناً »[2] و« طبعاً » و« ختماً » و« قفلاً » ونحو ذلك . فهذا ما أصر عليه ، و« إحاطة الخطيئة » إحداقها به فلا يمكنه الخروج ، وهذا هو «البلى» بما كسبت نفسه ، أي : تحبس عما فيه نجاتها في الدارين : فإن المعاصي قيد وحبس لصاحبها عن الجولان في فضاء التوحيد ، وعن جنى ثمار الأعمال الصالحة .

ومن المنتسبين إلى السنة من يقول : إن صاحب الكبيرة يعذب مطلقاً والأكثرون على خلافه ، وأن الله سبحانه يزن الحسنات والسيئات وعلى هذا دل الكتاب والسنة وهو معنى الوزن ؛ لكن تفسير السيئة بالشرك هو الأظهر لأنه سبحانه غاير بين المكسوب والمحيط فلو كان واحداً لم يغاير ، والمشرك له خطايا غير الشرك أحاطت به لأنه لم يتب منها .

و« أيضاً » قوله ﴿ سيئة ﴾ نكرة ، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق . و« أيضاً » لفظ (السيئة) قد جاء في غير موضع مراداً به الشرك وقوله : ﴿ سيئة ﴾ أي حال سيئة أو مكان سيئة ونحو ذلك ، كما في قوله : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾[3] أي حالاً حسنة تعم الخير كله ، وهذا اللفظ يكون صفة ، وقد ينقل من الوصفية إلى الإسمية ؛ ويستعمل لازماً أو متعدياً يقال : ساء هذا الأمر أي قبح ، ويقال : ساءني هذا ، قال ابن عباس في قوله :

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٢٩ باب ذكر الذنوب ٤٢٤٤ حدثنا محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه [فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زادت زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ ورواه الامام أحمد بن حنبل ٢ : ٢٩٧] .

(٢) الرين : الطبع والدنس والصدأ يعلو الشيء الجلي ران على قلبه رينه ورينا وريونا : غلب ، وكل ما غلبك فقدرانك ، وران بك ، وران عليك .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٠١ .

﴿ وَالَّذِينَ كَسِبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ [1] .

عملوا الشرك ؛ لأنه وصفهم بهذا فقط ، ولو آمنوا لكان لهم حسنات ، وكذا لما قال : (كسب سيئة) لم يذكر حسنة كقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ [2] وهو ما أمروا به ، كذلك (السيئة) تتناول المحظور فيدخل فيها الشرك .

---

(1) سورة يونس آية رقم ٢٧ وتكملة الآية ﴿ وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(2) سورة يونس آية رقم ٢٦ وتكملة الآية ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

فصل
(في معنى الغيب والشهادة)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (٢) .

وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٣) .

قال طائفة من السلف : « الغيب » هو الله ، أو من الإيمان بالغيب الإيمان بالله . ففي موضع نفي عن نفسه أن يكون غائباً ، وفي موضع جعله نفسه غيباً .

ولهذا اختلف الناس في هذه المسألة ، فطائفة من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم ـ كالقاضي (٤) وابن عقيل (٥) وابن الزاغوني (٦) ـ يقولون :

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٦ ـ ٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٤) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى ت ٤٥٨ هـ . [راجع شذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ ، والوافي بالوفيات ٣ : ٧ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦] .

(٥) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري أبو الوفاء ويعرف بابن عقيل عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ت ٥١٣ [راجع جلاء العينين ٩٩ وشذرات الذهب ٤ : ٣٥ ولسان الميزان ٤ : ٢٤٣] .

(٦) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسين بن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة =

بقياس الغائب على الشاهد ، ويريدون بالغائب الله ، ويقولون : قياس الغائب على الشاهد ثابت بالحد والعلة والدليل والشرط . كما يقولون في مسائل الصفات في إثبات العلم والخبرة والإرادة وغير ذلك ، وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم الشيخ أبو محمد في رسالته إلى أهل رأس العين وقال : لا يسمى الله غائباً واستدل بما ذكر .

وفصل الخطاب بين الطائفتين أن اسم « الغيب ، والغائب » من الأمور الإضافية يراد به ما غاب عنا فلم ندركه ، وَيراد به ما غاب عنا فلم يدركنا ، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيباً مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا ، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فليس هو غائباً وإنما [لما] لم يره العباد كان غيباً ؛ ولهذا يدخل في الغيب الذي يُؤمن به وليس هو بغائب ؛ فإن « الغائب » اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب والله شاهد غير غائب ، وأما « الغيب » [1] فهو مصدر غاب يغيب غيباً ، وكثيراً ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والزور ، وموضع المفعول كالخلق والرزق ودرهم ضرب الأمير .

= من أهل بغداد قال ابن رجب : كان متفنناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله من كتبه « الاقناع » و« الواضح » والخلاف الكبير وغير ذلك كثير توفي عام ٥٢٧ هـ [راجع شذرات الذهب ٤ : ٨٠ واللباب ١ : ٢١٦] .

(١) الغيب : ما غاب عنك . قال تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ . قيل الغيب هو الله تعالى لأنه لا يرى في دار الدنيا وإنما ترى آياته الدالة عليه وقيل الغيب : ما غاب عن الناس مما أخبرهم به النبي ـ ﷺ : من الملائكة ، والجنة ، والنار ، والحساب ، وقيل : الغيب القرآن . وقال ابن الأعرابي : الغيب ما كان غائباً عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب وأنشد بيت تميم بن أبي بن مقيل :

وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدم الغلام وراء الغيب بالحجر

ولهـذا يقرن الغيب بـالشهادة ، وهي أيضـاً مصـدر ، فـالشهـادة [1] هي المشهود أو الشاهـد ، والغيب هو إمـا المغيب عنه فهـو الذي لا يشهـد نقيض الشهادة وإما بمعنى الغائب الذي غاب عنا فلم نشهـده فتسميته بـاسم المصدر فيه تنبيه على النسبة إلى الغير أي ليس هو بنفسه غائباً ، وإنما غاب عن الغيـر أو غاب الغير عنه .

وقـد يقال اسم « الشهـادة » و« الغيب » يجمع النسبتين ، فـالشهـادة مـا شهدنا وشهدناه ، والغيب ما غاب عنا وغبنا عنه فلم نشهده ، وعلى كل تقديـر فالمعنى في كونه غيباً هو انتفاء شهود ناله ، وهذه تسمية قرآنيـة صحيحة ، فلو قالوا : قياس الغيب على الشهادة لكانت العبارة مـوافقة ، وأمـا قياس الغـائب ففيـه مخالفـة في ظاهـر اللفظ ولكن مـوافقـة في المعنى : فلهـذا حصـل في اطلاقه التنازع .

---

(١) الشهادة : قول صـادر عن علم حصل بمشـاهدة بصـر أو بصيرة . وقـوله ﴿ أشهـدوا خلقهم ﴾ الزخرف آية ١٩ يعني شهادة بمشاهدة البصيرة ثم قال : ستكتب شهـادتهم ويسألـون » . تنبيهاً أن الشهادة تكون عن شهود وقوله :﴿ لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ . أي تعلمون . والشهادة تختص بأولي العلم ، فأما الجهال فمبعدون عنها وعلى هذا نبـه بقولـه : إنما يخشى الله من عبـاده العلماء » وهؤلاء هم المعنيـون بقولـه « والصديقين والشهـداء والصـالحين » . سورة النساء آية رقم ٦٩ .

فصل

(في قياس التمثيل وقياس الشمول)

عند السلف والفقهاء واصطلاح المنطقيين

المثل [1] في الأصل هو الشبيه وهو نوعـان ، لأن القضية المعينـة إما أن تكون شبهاً معيناً أو عاماً كلياً ، فإن القضايا الكلية التي تعلم وتقال هي مطابقة ممـاثلة لكل مـا يندرج فيهـا ، وهذا يسمى قيـاسـاً في لغـة السلف واصـطلاح المنطقيين ، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين هو أيضاً يسمى قيـاساً في لغـة السلف واصطلاح الفقهاء ، وهو الذي يسمى قياس التمثيل .

ثم من متـأخـري العلمـاء ـ كـالغـزالي [2] وغيـره ـ من ادعى أن حقيقـة القياس إنما يقال على هذا ، وما يسميه تأليف القضايا الكلية قياساً فمجـاز من جهة أنه لم يشبه فيه شيء بشيء ، وإنما يلزم من عموم الحكم تسـاوي أفراده فيـه ، ومنهمّ من عكس كأبي محمـد بن حزم [3] ، فـإنه زعم أن لفظ القيـاس

---

(١) المثل : عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهمـا الآخر ، ويصـوره نحو قـولهم : الصيف ضيعت اللبن » . فإن هـذا القول يشبـه قولـك : أهملت وقت الإمكان أمرك وعلى هذا الوجـه ما ضـرب الله تعالى من الأمثـال فقال ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾ سورة الحشر آية ٢١] ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للنـاس وما يعقلهـا إلا العالمون** ﴾ سورة العنكبوت آية ٤٣] .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبـو حامـد ، له نحـو مئتي مصنف مولـده عام ٤٥٠ هـ وتوفي عام ٥٠٥ هـ من كتبـه إحياء علوم الـدين والاقتصاد في الاعتقـاد ، والمنقذ من الضلال . [راجع وفيات الأعيان١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وشذرات الـذهب ٤ : ١٠]

(٣) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبـو محمد : عـالم الأندلس في عصـره ، وأحد =

إنما ينبغي أن يكون في تلك الأمور العامة وهو القياس الصحيح .

والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن ، كما سأذكره أن كلاهما قياس وتمثيل واعتبار ، وهو في قياس التمثيل ظاهر ، وأما قياس التكليل والشمول فلأنه يقاس كل واحد من الأفراد بذلك المقياس العام الثابت في العلم والقول ، وهو الأصل ، كما يقاس الواحد بالأصل الذي يشبهه ، فالأصل فيهما هو المثل ، والقياس هو ضرب [1] المثل ، وأصله ـ والله أعلم ـ تقديره فضرب المثل للشيء تقديره له ، كما أن القياس أصله تقدير الشيء بالشيء ، ومنه ضرب الدرهم وهو تقديره ، وضرب الجزية والخراج وهو تقديرهما ، والضريبة المقدرة والضرب في الأرض ، لأنه يقدر أثر الماشي بقدره ، وكذلك الضرب بالعصي لأنه تقدير الألم بالآلة ، وهو جمعه وتأليفه

= أئمة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون الى مذهبه يقال لهم « الحزمية » ولد بقرطبة عام ٣٨٤ هـ وتوفي عام ٤٥٦ هـ . من كتبه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وطوق الحمامة وغير ذلك . [راجع نفح الطيب ١ : ٣٦٤ وآداب اللغة ٣ : ٩٦ وأخبار الحكماء ١٥٦]

(١) ورد الضرب في اللغة والقرآن على وجوه :

الضرب : الخفيف من المطر ، والضرب : الصفة والصنف من الأشياء ، والضرب : الرجل الخفيف اللحم قال طرفة بن العبد :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونني خشاش كرأس الحية المتوقد

والضرب : الاسراع في السير قال تعالى ﴿ **لا يستطيعون ضرباً في الأرض** ﴾ . ﴿ **وآخرون يضربون في الأرض** ﴾ .

والضرب والالزام : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة** ﴾ أي ألزموهاوالضرب بالسيف وباليد : ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ والضرب : الوصف : ﴿ **ضرب الله مثلاً** ﴾ سورة ابراهيم آية ٢٤] أي وصف ﴿ **نضربها للناس** ﴾ . سورة العنكبوت ٤٣ والحشر ٢١] أي نضعها والضرب البيان : ﴿ **وكلا ضربنا له الأمثال** ﴾ الفرقان آية ٣٩] ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أي بينّا سورة ابراهيم آية ٤٥ .

وضرب الزمان مضى . قال ذو الرمة .

فإن تضرب الأيام يامى بيننا فلا ناشرٌ سراً ولا متغير

وتقديره ، كما أن الضريبة هي المال المجموع والضريبة الخلق ، وضرب الدرهم جمع فضة مؤلفة مقدرة ، وضرب الجزية والخراج إذا فرضه وقدره على مر السنين ، والضرب في الأرض الحركات المقدرة المجموعة إلى غاية محدودة ، ومنه تضريب الثوب المحشو وهو تأليف خلله طرائق طرائق .

ولهذا يسمون الصورة القياسية الضرب ، كما يقال للنوع الواحد ضرب لتألفه واتفاقه ، وضرب المثل لما كان جمعاً بين علمين يطلب منهما علم ثالث كان بمنزلة ضراب الفحل الذي يتولد عنه الولد ، ولهذا يقسمون الضرب إلى ناتج وعقيم ، كما ينقسم ضرب الفحل للأنثى إلى ناتج وعقيم ، وكل واحد من نوعي ضرب المثل - وهو القياس - تارة يراد به التصوير وتفهيم المعنى ، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته والتصديق به ، فقياس تصور وقياس تصديق فتدبر هذا .

وكثيراً ما يقصد كلاهما ، فإن ضرب المثل يوضح صورة المقصود وحكمه . وضرب الأمثال في المعاني نوعان هما نوعا القياس :

« أحدهما » الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر وهي في القرآن بضع وأربعون مثلاً ، كقوله : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً** ﴾ (١) إلى آخره وقوله : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ** ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ** ﴾ (٣) الآية .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٦١ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٤ .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِن أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (١)

فإن التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم من المنافقين ، والمنفقين والمخلصين منهم والمرائين ، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال هو من جنس قياس التمثيل ، الذي يقال فيه : مثل الذي يقتل بكودين القصار كمثل الذي يقتل بالسيف ، ومثل الهرة تقع في الزيت كمثل الفأرة تقع في السمن ونحو ذلك ، ومبناه على الجمع بينهما ، والفرق في الصفات المعتبرة في الحكم المقصود إثباته أو نفيسه ، وقوله : مثله كمثل كذا ، تشبيه للمثل العلمي بالمثل العلمي لأنه هو الذي يتوسطه يحصل القياس ، فإن المعتبر ينظر في أحدهما فيتمثل في علمه ، وينظر في الآخر فيتمثل في علمه ثم يعتبر أحد المثلين بالآخر فيجدهما سواء فيعلم أنهما سواء في أنفسهما لاستوائهما في العلم ، ولا يمكن اعتبار أحدهما بالآخر في نفسه حتى يتمثل كل منهما في العلم ، فإن الحكم على الشيء فرع على تصوره ؛ ولهذا والله أعلم يقال مثل هذا كمثل .

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع ، كقوله : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُم أَنْ تَكُونَ له جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأعنابٍ تَجْرِي مِنْ تحتِهَا الأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وأَصَابَهُ الكِبَرُ ﴾ (٢) ؟ إلى قوله ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لكُمُ الآياتِ لَعَلكم تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) فإن هذا يحتاج إلى تفكر ؛ ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي أرضاه .

ونظير ذلك ذكر القصص ؛ فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار ولا يمكن

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦٥ .
(٢) (٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٦ .

هناك تعديد ما يعتبر بها ، لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب ، فيقال فيها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولي الأَلْبَابِ ﴾ [1] ويقال عقب حكايتها : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولي الأَبْصَارِ ﴾ [2] ويقال : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتَيْنِ التَقَتَا ﴾ [3] إلى قوله ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الأَبْصَارِ ﴾ [4] .
والاعتبار هو القياس بعينه كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنان أي قيسوها بها ، فإن الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع فكذلك الأصابع ، ويقال : اعتبرت الدراهم بالصبخة إذا قدرتها بها .

« النوع الثاني » الأمثال الكلية ، وهذه التي اشكل تسميتها أمثالاً ، كما أشكل تسميتها قياساً ، حتى اعترض بعضهم قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ﴾ [5] فقال : أين المثل المضروب ؟ وكذلك إذا سمعوا قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [6] يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال ، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا وأربعين مثلاً .

وهذه « الأمثال » تارة تكون صفات ، وتارة تكون أقيسة ، فإذا كانت أقيسة فلا بد فيها من خبرين هما قضيتان وحكمان ، وأنه لا بد أن يكون أحدهما كلياً ؛ لأن الأخبار التي هي القضايا [7] لما انقسمت إلى معينة ومطلقة

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .
(٢) سورة الحشر آية رقم ٢ .
(٣) (٤) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .
(٥) سورة الحج آية رقم ٧٣ .
(٦) سورة الروم آية رقم ٥٨ .
(٧) القضية في المنطق : قول يصح أن يقال لقائله أنه صادق أو كاذب أو هي كل قول فيه نسبة بين شيئين بحيث يتبعه حكم صدق أو كذب .

وكلية وجزئية ، وكل من ذلك انقسم إلى خبر عن إثبات وخبر عن نفي ، فضرب المثل الذي هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عام وقضية كلية . وذلك هو المثل الثابت في العقل الذي تقاس به الأعيان المقصود حكمها ، فلولا عمومه لما أمكن الاعتبار لجواز أن يكون المقصود حكمه خارجاً عن العموم ؛ ولهذا يقال : لا قياس عن قضيتين جزئيتين [1] - بل لا بد أن تكون إحداهما كلية ، ولا قياس أيضاً عن سالبتين ؛ بل لا بد أن تكون إحداهما موجبة ، وإلا السلبان لا يدخل أحدهما في الآخر لا بد فيه من خبر يعم . وجملة ما يضرب من الأمثال ستة عشر ، لأن الأولى إما جزئية ، وإما كلية مثبتة أو نافية ، فهذه أربعة إذا ضربتها في أربعة صارت ستة عشر ، تحذف منها الجزئيتين سواء كانتا موجبتين أو سالبتين ، أو إحداهما سالبة والأخرى موجبة ، فهذه ست من ستة عشر ، والسالبتين سواء كانتا جزئتين أو كليتين ، أو إحداهما دون الأخرى ؛ لكن إذا كانتا جزئتين سالبتين فقد دخلت في الأول يبقى ضربان محذوفان فيه من ستة عشر ، ويحذف منهما السالبة الكلية الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية ؛ لأن الكبرى إذا كانت جزئية لم يجب أن يلاقيها السلب بخلاف الإيجاب ، فإن الإيجابين الجزئيين يلتقيان ، وكذلك الإيجاب الجزئي مع السلب الكلي يلتقيان لاندراج ذلك الموجب تحت السلب العام ، يبقى من الستة عشر ستة أضرب [2] فإذا كانت إحداهما

---

(١) الموجبة الجزئية : هي التي يكون الحكم فيها ايجاباً ولكن على بعض الموضوع .
والسالبة الجزئية : هي التي يكون الحكم فيها سلباً ولكن عن بعض الموضوع .
والايجاب مطلقاً : هو ايقاع النسبة أو إيجادها وفي القضية الحملية هو الحكم بوجود محمول لموضوع .
والسلب مطلقاً : هو رفع النسبة الوجودية بين شيئين ، وفي الحملين هو الحكم بلا وجود محمول لموضوع .

(٢) الضرب المنطقي ، أحد الأعمال الفكرية المطبقة في الحدود والقضايا والنسب المنطقية .
والضرب : هو اختلاف القضايا في كل شكل من أشكال القياس بالكم والكيف مثل قولنا في =

موجبة كلية جاز في الأقسام الأربعة ، وإذا كانت سالبة كلية جاز أن تقارنها الموجبتان ، لكن تقدم مقارنة الكلية لها ، ولا بد في الجزئية أن تكون صغرى ، وإذا كانت موجبة جزئية جاز أن تقارنها الكليتان وقد تقدمتا ، وإذا كانت سالبة جزئية لم يجز أن يقارنها إلا موجبة كلية ، وقد تقدمت ، فيقر الناتج ستة ، والملغى عشرة وبالاعتبارين تصير ثمانية .

فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الإيجاب العام ، ولا بد في جميع ضروبه من أحد أمرين ، إما إيجاب وعموم ، وإما سلب وخصوص ، فنقيضان لا يفيد اجتماعهما فائدة ؛ بل إذا اجتمع النقيضان من نوعين كسالبة كلية [١] وموجبة جزئية [٢] فتفيد بشرط كون الكبرى هي العامة . فظهر أنه لا بد في كل قياس من ثبوت وعموم ، إما مجتمعين في مقدمة وإما مفترقين في المقدميتن .

وأيضاً مما يجب أن يعلم أن غالب الأمثال المضروبة ، والأقيسة إنما يكون الخفي فيها إحدى القضيتين ، وإما الأخرى فجلية معلومة ، فضارب المثل وناصب القياس إنما يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية ، فيعلم بذلك المقصود لما قاربها في الفعل من القضية السلبية ، والجلية هي الكبرى التي هي أعم .

فإن الشيء كلما كان أعم كان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في

= الضرب الأول من الشكل الأول: كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حادث ، فكل جسم حادث فهو قياس مؤلف من كليتين موجبتين تنتجان كلية موجبة . والمنتج من ضروب القياس ١٩ ضرباً منها أربعة ضروب من الشكل الأول ، وأربعة ضروب من الشكل الثاني ، وستة ضروب من الشكل الثالث ، وخمسة ضروب من الشكل الرابع .

(١) السالبة الكلية : هي التي يكون الحكم فيها سلباً عن جميع أفراد الموضوع كقولنا : ليس ولا واحد من الناس بكامل .

(٢) سبق الحديث عنها .

العقل ، وخير الكلام ما قل ودل ؛ فلهذا كانت الأمثال المضروبة في القرآن تحذف منها القضية الجلية لأن في ذكرها تطويلاً وعياً ، وكذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين [1] يعد تطويلا .

واعتبر ذلك بقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [2] ما أحسن هذا البرهان ! فلو قيل بعده : وما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل ، وإنما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف في الهجاء والخط إذا علمنا الصبي الخط نقول : « با » « سين » « ميم » صارت (بسم) فإذا عقل لم يصلح له بعد ذلك أن يقرأه تهجياً فيذهب ببهجة الكلام ؛ بل قد صار التأليف مستقراً وكذلك النحوي إذا عرف أن « محمد » رسول الله ، مبتدأ وخبر لم يلف كلما رفع مثل ذلك أن يقول : لأنه مبتدأ وخبر . فتأليف الأسماء من الحروف لفظاً ومعنى وتأليف الكلم من الأسماء ، وتأليف الأمثال من الكلم جنس واحد . ولهذا كان المؤلفون للأقيسة يتكلمون أولاً في مفردات الألفاظ والمعاني التي هي الأسماء . ثم يتكلمون في تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر والقضية والحكم ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو « القياس » و« البرهان » [3] و« الدليل » و« الآية » و« العلامة » . فهذا مما ينبغي أن يتفطن

---

(١) المقدمات مبادىء الاستدلال ، وتطلق على ما يتوقف عليه البحث أو على ما يجعل جزء قياس من القضايا ، أو على ما تتوقف عليه صحة الدليل والمقدمة : قول يوجب شيئاً لشيء أو يسلب شيئاً عن شيء ، جعلت جزء قياس .

وفي كل قياس اقتراني مقدمتان تشتركان في حد وتفترقان في حدين فتكون الحدود ثلاثة ، وهي الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، والمقدمة التي فيها الحد الأكبر تسمى الكبرى ، والتي فيها الحد الأصغر تسمى الصغرى .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢ .

(٣) البرهان : هو الحجة الفاصلة البينة ، يقال : برهن ، يبرهن ، برهنة ، إذا جاء بحجة قاطعة للدد الخصم ، وبرهن بمعنى بين ، وبرهن عليه أقام الحجة وفي الحديث : الصدق =

له ، فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ، ثم اتباع ذلك بالأخبار عن النتيجة التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود ؛ بل إنما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره وينتفع بمعرفته ، فذلك هو البيان ، وهو البرهان ، وأما ما لا حاجة إلى ذكره فذكره عي .

وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانيين الجهال والمنطقيين الضلال حيث قال بعض أولئك : الطريقة الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في القرآن إلا قليلاً ، وقال الثاني : إنه ليس في القرآن برهان تام ، فهؤلاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى ، فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل وتدبر .

و« أيضاً » فينبغي أن يعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص والسلب والإيجاب ، فإنه ما من خبر إلا وهو إما عام أو خاص : سالب أو موجب ، فالمعين خاص محصور ، والجزئي أيضاً خاص غير محصور ، والمطلق إما عام وإما في معنى الخاص .

فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف « صيغ النفي والعموم » فإن ذلك يجيء في القرآن على أبلغ نظام .

مثال ذلك أن صيغة « الاستفهام » بحسب من أخذ ببادىء الرأي أنها لا تدخل في القياس المضروب ؛ لأنه لا يدخل فيه إلا القضايا الخبرية ، وهذه طلبية ، فإذا تأمل وعلم أن أكثر استفهامات القرآن أو كثيراً منها إنما هي استفهام إنكار معناه الذم والنهي إن كان إنكاراً شرعياً ، أو معناه النفي والسلب إن كان إنكار وجود ووقوع ، كما في قوله :

= برهان » .

والبرهان عند الأصوليين . ما فصل الحق من الباطل ، وميز الصحيح من الفاسد بالبيان الذي فيه .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (١) ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَل لَكُم مِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِن شُرَكَاءَ فِيما رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٢) الآية وكذلك قوله :

﴿ اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) وقوله في تعديد الآيات : ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ﴾ (٤) أي أفعل هذه إله مع الله ؟! والمعنى ما فعلها إلا الله ، وقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (٥) وما معها .

وهذا الذي ذكرناه الذي جاء به القرآن هو ضرب الأمثال (٦) من جهة المعنى . وقد يعبر في اللغة بضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة : لكن لا يستفاد منه الدليل

---

(١) سورة يس آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢٨ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٦٣ .

(٥) سورة الطور آية رقم ٣٥ .

(٦) أمثال القرآن قسمان : ظاهر مصرح به ، وكامن لا ذكر للمثل فيه ، فمن أمثلة الأول : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ . الآيات .
وأما الكامنة فقال الماوردي : سمعت أبا اسحاق ابراهيم بن مضارب يقول سمعت أبي يقول : سألت الحسين بن الفضل قلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله ﴿ خير الأمور أوساطها ﴾ قال: نعم في أربعة مواضع قوله ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ وقوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ . قلت فهل تجد في كتاب الله من جهل شيئاً عاداه . . ؟ قال : نعم في موضعين ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ .
قلت فهل تجد في كتاب الله ﴿ احذر شر من أحسنت إليه ﴾ ؟ قال : نعم . ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ .

على الحكم كأمثال القرآن ، وهو أن يكون الرجل قد قال كلمة منظومة أو منثورة لسبب اقتضاه فشاعت في الاستعمال ، حتى يصار يعبر بها عن كل ما أشبه ذلك المعنى الأول ، وإن كان اللفظ في الأصل غير موضوع لها ، فكأن تلك الجملة المثلية نقلت بالعرف من المعنى الخاص إلى العام كما تنقل الألفاظ المفردة فهذا نقل في الجملة مثل قولهم : « يداك أو كتا ، وفوك نفخ » هو موازٍ لقولهم : « أنت جنيت هذا » لأن هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت جنايته بالإيكاد والنفخ ، ثم صار مثلاً عاماً ، وكذلك قولهم : « الصيف ضيعت اللبن » مثل قولك « فرطت وتركت الحزم ، وتركت ما يحتاج إليه وقت القدرة عليه حتى فات » وأصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص . وكذلك « عسى العويرا بؤسا » أي أتخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن رديء ؟ فهذا نوع من البيان يدخل في اللغة والخطاب ، فالمتكلم به حكمه حكم المبين بالعبارة الدالة ، سواء كان المعنى في نفسه حقاً أو باطلاً، إذ قد يتمثل به في حق من ليس كذلك فهذا تطلبه في القرآن من جنس تطلب الألفاظ العرفية ، فهو نظر في دلالة اللفظ على المعنى لا نظر في صحة المعنى ودلالته على الحكم ، وليس هو المراد بقوله ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ [1] فتدبر هذا فإنه يجلو عنك شبهة لفظية ومعنوية .

وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجودة في القرآن منها أجناساً ، وهي معلنة ببلاغة لفظه ونظمه وبراعة بيانه اللفظي ، والذين يتكلمون في علم البيان وإعجاز القرآن يتكلمون في مثل هذا ، ومن الناس من يكون أول ما يتكلم بالكلمة صارت مثلاً ، ومنهم من لا تصير الكلمة مثلاً حتى يتمثل بها الضارب فيكون هذا أول من تمثل بها . كقوله ﷺ : « الآن حمى الوطيس » [2]

---

(١) سورة الروم آية رقم ٥٨ وسورة الزمر آية رقم ٢٧ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم - في كتاب الجهاد والسير ٢٨ باب في غزوة =

« مسعر حرب »[1] ونحو ذلك ؛ لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمن معنى الإنكار هو نفي مضمن دليل النفي ، فلا يمكن مقابلته بمنع ، وذلك أنه لا ينفي باستفهام الإنكار إلا ما ظهر بيانه أو ادعى ظهور بيانه فيكون ضاربه إما كاملاً في استدلاله وقياسه وإما جاهلاً ، كالذي قال : ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[2] إذا تبين ذلك فالأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً ومنها ما لا يسمى بذلك ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾[3] والذي يليه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِيي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[4]

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾[5]

﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾[6]

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾[7]

﴿ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾[8]

الآية ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾[9] والذي بعده ليس فيه لفظ مثل ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾[10] في الثلاثة ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾[11] ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[12] وقوله :

= حنين ٧٦ (١٧٧٥) بسنده عن كثير بن عباس بن عبد المطلب ولفظه : هذا حين حمى الوطيس ، قال : ثم أخذ رسول الله - ﷺ - حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قالوا : انهزموا ورب محمد الخ وأخرجه الامام أحمد في المسند ١ : ٢٠٧ (حلبى) .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشروط ١٥ ، وأبو داود في الجهاد ١٥٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٢١ (حلبي) وفي لفظ (ويل أمه مسعر بن حرب)

(٢) سورة يس آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٧ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٦ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٧١ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .

(٧) سورة البقرة آية رقم ٢٦١ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٢٦٤ .

(٩) سورة البقرة آية رقم ٢٦٥ .

(١٠) سورة آل عمران آية رقم ١١ وسورة الأنفال آية رقم ٥٢ .

(١١) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .

(١٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٧ .

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ ﴾ [١] .

ومن هذا الباب قوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ [٢] الآية . ويسمى جدالاً ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ ﴾ [٣] - إلى قوله - ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [٤] الآية ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ ﴾ [٥]

﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ ﴾ [٦] وقول يوسف .

﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ [٧] ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ ﴾ [٨] الآية . ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [٩] إلى قوله ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ ﴾ [١٠]

﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [١١] .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [١٢]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ [١٣] إلى آخره .

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ [١٤]

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤٦ وأول الآية (قل)

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٠ وسورة هود آية رقم ٣١ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٦ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٢٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ٢٤ .

(٦) سورة الرعد آية رقم ١٤ .

(٧) سورة يوسف آية رقم ٣٩ .

(٨) سورة الأنعام آية رقم ٥٠ وتكملتها ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ والرعد آية رقم ١٦ وتكملتها ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ .

(٩) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(١٠) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(١١) سورة الرعد آية رقم ٣٥ .

(١٢) سورة ابراهيم آية رقم ١٨ .

(١٣) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ .

(١٤) سورة ابراهيم آية رقم ٤٥ .

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله المَثَلُ الأعْلَىٰ ﴾ (١)

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ ﴾ (٢)

﴿ ضَرَبَ الله مَثَلا عبداً مملوكاً ﴾ (٣) والذى بعده .

﴿ وضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً ﴾ (٤)

﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ (٥) في موضعين .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاس إلَّا كُفُوراً ﴾ (٦) بعد أدلة التوحيد والنبوة والتحدي بالقرآن .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَجُلَيْنِ ﴾ (٧) القصة .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٨)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ (٩) ينبه على أنها براهين وحجج تفيد تصورا أو تصديقاً .

﴿ وَمَنْ يُشْرِك بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (١٠)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ (١١)

﴿ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾(١٢) .

مثل نوره ـ إلى قوله ـ ﴿ وَيَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ (١٣)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ (١٤) المثلين ، مثل نور المؤمنين في المساجد وأولئك في الظلمات .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٦٠ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٧٤ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٧٥ .
(٤) سورة النحل آية رقم ١١٢ .
(٥) سورة الفرقان اية رقم ٩ .
(٦) سورة الاسراء آية رقم ٨٩ .
(٧) سورة الكهف آية رقم ٣٢ .
(٨) سورة الكهف آية رقم ٤٥ .
(٩) سورة الكهف آية رقم ٥٤
(١٠) سورة الحج آية رقم ٣١ .
(١١) سورة الحج آية رقم ٧٣ .
(١٢) سورة النور آية رقم ٣٤ .
(١٣) سورة ابراهيم آية رقم ٢٥ .
(١٤) سورة النور آية رقم ٣٩ .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [١] -

فـ (التفسير) يعم التصوير ، ويعم التحقيق بالدليل ، كما في تفسير الكلام المشروح -

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [٢]الآية .

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾[٣] .

﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [٤]

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [٥]

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَل ، وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ [٦] الآية .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ [٧]

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [٨] وقوله :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ [٩]

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[١٠] إلى قوله

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجلًا ﴾

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ [١١] إلى آخره لما أوردوه نقضا على قوله :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [١٢]

فهم الذين ضربوه جدلاً ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾[١٣] إلى قوله :

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٣٣ .
(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤١ .
(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٤٣ .
(٤) سورة الروم آية رقم ٢٧ .
(٥) سوره الروم آية رقم ٢٨ .
(٦) سورة الروم آية رقم ٥٨ .
(٧) سورة يس آية رقم ١٣ .
(٨) سورة يس آية رقم ٧٧ - ٧٨ .
(٩) سورة ص آية رقم ٢٣ .
(١٠) سورة الروم آية رقم ٥٨ .
(١١) سورة الزخرف آية رقم ٥٧ .
(١٢) سورة الأنبياء آية رقم ٩٨ .
(١٣) سورة النحل آية رقم ٨٨ وسورة محمد آية رقم ١

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (١)

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ﴾ (٢)

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ (٣)

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ (٤)

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ ﴾ (٥)

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ (٦) الآية

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٧)

و ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٨)

﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً ﴾ ؟ (٩)

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (١٠) و ﴿ كَالفَرَاشِ ﴾ (١١) و ﴿ كَالعِهْنِ ﴾ (١٢)

---

(١) سورة محمد آية رقم ٣ .
(٢) سورة الحشر آية رقم ١٥ .
(٣) سورة الحشر آية رقم ١٦ .
(٤) سورة الحشر آية رقم ٢١ .
(٥) سورة الحشر آية رقم ٢١ .
(٦) سورة الجمعة آية رقم ٥ .
(٧) سورة التحريم آية رقم ١٠ .
(٨) سورة التحريم آية رقم ١١ .
(٩) سورة المدثر آية رقم ٣١ .
(١٠) سورة المعارج آية رقم ٤٣ .
(١١) سورة القارعة آية رقم ٤ وهي : ﴿ يوم يقوم الناس كالفراش المبثوث ﴾
(١٢) سورة القارعة آية رقم ٥ وهي : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ .

فصل
في تفسير قوله تعالى :
« إن الذين آمنوا والذين هادوا »

هــذه تفســير آيــات أشكلت حتى لا يــوجــد في طــائفــة من « كتــب التفسير » إلا ما هو خطأ (فيها) .

منها قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ [1] الآيتين ، فهو سبحــانه وصف أهل السعادة من الأولين والآخرين ، وهو الذي يدل عليه اللفظ ويعرف به معناه من غير تناقض ، ومناسبة لما قبلها ولمــا بعدهــا . وهو المعــروف عند السلف ، ويدل عليه ما ذكروه من سبب نزولها [2] بالأسانيــد الثابتــة عن سفيان

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٢) لعل ما يقصــده الامام ابن تيميــة ما رواه الـواحدي في أسبــاب النزول ٦٢ ـ أخبــرنا أحمــد بن محمد بن أحمد الحافظ ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر الحافظ حدثنا أبو يحيى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكري ، حدثنا يحيى بن أبي زائدة قال : قال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : لما قص سلمان على النبي ـ ﷺ ـ قصــة أصحاب الـدير قــال : هم في النار . قال سليمان : فأظلمت عليّ الأرض فنزلت ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ إلى قولـه ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . قال فكأنما كشف عني جبل .
وأخبرنا محمــد بن عبد العـزيز المـروزي ، أخبرنــا محمد بن الحسين الحـدادي ، أخبرنــا أبو يزيد ، أخبـرنا إسحـاق بن ابراهيم ، أخبـرنا عمــرو عن أسباط عن الســدي ﴿ إن الذين آمنـوا والذين هادوا ﴾ الآية قال : نـزلت في أصحاب سليمــان الفارسي لمــا قدم سلمــان على رسول الله ـ ﷺ ـ جعل يخبر عن عبــادتهم واجتهادهم وقــال : يا رســول الله كانـوا يصلون ويصومـون ويؤمنون بك ، ويشهـدون أنك تبعث نبيـاً فلما فـرغ سليمان من ثنــائه عليهم قــال رسول الله ـ ﷺ : يــا سلمان هم من أهـل النار ، فـأنزل الله ﴿ إن الـذين آمنوا والـذين هادوا ﴾ وتــلا الى =

عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال سليمان :

« سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من عبادتهم فنزلت الآية . ولم يذكر فيه أنهم من أهل النار ، كما روى بأسانيد ضعيفة وهذا هو الصحيح كما في مسلم « إلا بقايا من أهل الكتاب » .

والنبي ﷺ لم يكن يجيب بما لا علم عنده ، وقد ثبت أنه أثنى على من مات في الفترة ، كزيد بن عمرو[1] وغيره ، ولم يذكر ابن أبي حاتم خلافاً عن السلف ؛ لكن ذكر عن ابن عباس ثم أنزل الله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً ﴾[2] الآية ، ومراده أن الله يبين أنه لا يقبل إلا الإسلام من الأولين والآخرين ، وكثير من السلف يريد بلفظ النسخ رفع ما يظن أن الآية دالة عليه ؛ فإن من المعلوم أن من كذب رسولاً واحداً فهو كافر فلا يتناوله قوله : ﴿ من آمن بالله ﴾ الخ .

وظن بعض الناس : أن الآية فيمن بعث إليهم محمد ﷺ خاصة فغلطوا ، ثم افترقوا على أقوال متناقضة .

= قوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ .

ويقول ابن جرير في تفسيره وهو الذي يتفق مع ما ذهب اليه الامام ابن تيمية « فإن قال : وما معنى هذا الكلام . . ؟

قيل : إن معناه : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم .

ومعنى إيمان المؤمن : ثباته على إيمانه وتركه تبديله . [راجع تفسير الطبري جـ ٢ ص ١٤٨] .

(١) هو زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوى ابن عم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . لم يدرك الإسلام . وهو أحد الحكماء . وكان يكره عبادة الأصنام ، ولا يأكل مما ذبح عليها . ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها . فلم تعجبه اليهودية ولا النصرانية ، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم ، وجاهر بعداء الأوثان ، فتألب عليه جمع من قريش ، فأخرجوه من مكة . توفي عام ١٧ ق . هـ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

فصـــل
في تقسيم المـذمــومين من أهـل الكتــاب الى محرفين وأميين

قسم الله من ذمه من أهل الكتاب إلى محرفين وأميين ، حيث يقـول : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْـدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون؟وَإذَا لَقوا الَّذِينَ آمَنُـوا قَـالُـوا آمَنَّـا وَ إذَا خَـلَا بَعْضُهُمْ إلَى بَعْض قَالُوا : أَتُحَـدِّثُونَهُم بِمَـا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ لِيُحَـاجُّوكُم بِـهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَـلَا تَعْقِلُونَ ؟ أَوَلَا يَعْلَمُـونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَـا يُسِـرُّونَ وَمَـا يُعْلِنُـونَ ؟ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ ، وَإنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً، فَوَيْـلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا يَكْسَبُونَ ﴾ (1) .

---

(1) سورة البقرة الآيـات ٧٥ ـ ٧٩ ومعنى التحريف كمـا ذكره ابن جـرير : « يجعلون الحـلال فيها حراماً ، والحـرام فيها حـلالاً ، والحق فيها بـاطلاً ، والبـاطل فيهـا حقاً ، إذا جـاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخـرجوا لـه ذلك الكتـاب ، فهو فيـه محق ، وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيـه حق ولا رشوة ولا شيء أمـروه بالحق فقـال لهم : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ . سورة البقرة آيـة ٤٤] .

قال أبو جعفر : وأرى أنه قيل للأمي « أمي » نسبة له بأنه لا يكتب إلى « أمة » لأن الكتاب كان في الرجال دون النسـاء فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجـال إلى أمّه ـ في جهله بـالكتابـة دون أبيه كما ذكرنا عن النبي ـ ﷺ ـ من قـوله : إنـا أمة أميـة لا نكتب ولا نحسب » وكما قـال =

وفي هذا عبرة لمن ركب سنتهم من أمتنا ؛ فإن المنحرفين في نصوص الكتاب والسنة كالصفات ونحوها من الأخبار والأوامر :

« قوم » يحرفونه إما لفظا وإما معنى ، وهم النافون لما أثبته الرسول ﷺ جحوداً ، وتعطيلاً ، ويدعون أن هذا موجب العقل الصريح القاضي على السمع .

و« قوم » لا يزيدون على تلاوة النصوص لا يفقهون معناها ويدعون أن هذا موجب السمع الذي كان عليه السلف ، وإن الله لم يرد من عباده فهم هذه النصوص ، فهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ (١) أي تلاوة ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ ثم يصنف أقوام علوماً يقولون : إنها دينية ، وإن النصوص دلت على عليها والعقل ، وهي دين الله ؛ مع مخالفتها لكتاب الله ، فهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله بوجه من الوجوه . فتدبر كيف اشتملت هذه الآيات على الأصناف الثلاثة ، وقوله في صفة أولئك : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ (٢) حال من يكتم النصوص التي يحتج بها منازعه ، حتى إن منهم مَنْ يمنع من رواية الأحاديث المأثورة عن الرسول ﷺ ولو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه ، لكنهم يكتمون من وجوه دلالته من العلوم المستنبطة منه ، ويعوضون الناس عن ذلك

= ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [سورة الجمعة آية ٢] .

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٨ والأماني : من غير نوع الكتاب كما قال ربنا جل ثناؤه ﴿ ومالهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ (النساء ١٥٧) والظن من العلم بمعزل وكما قال ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ (سورة الليل ١٩ ، ٢٠) .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٦ وأصل الفتح في كلام العرب : النصر والقضاء والحكم يقال منه « اللهم افتح بيني وبين فلان » أي احكم بيني وبينه ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ بنى عصم رسولاً بأني عن فُتاحتكم غني .

قال أبو جعفر ، ويقال للقاضي « الفتّاح » ومنه قول الله عز وجل ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ سورة الأعراف آية : ٨٩ أي أحكم بيننا وبينهم .

بما يكتبونه بأيديهم ويضيفونه إلى أنه من عند الله .

وسُئِل

عن معنى قوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ [1] والله سبحانه لا يدخل عليه النسيان . فأجاب :

أما قوله : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ ففيها قراءتان [2] ، أشهرهما : ﴿ أو ننسها ﴾ أي ننسيكم إياها : أي نسخنا ما أنزلناه ، أو أخترنا تنزيل ما نريد أن ننزله نأتكم بخير منه أو مثله ، والثانية : ﴿ أو ننسأها ﴾ بالهمز أي نؤخرها ، ولم يقرأ أحد ننساها ، فمن ظن أن معنى ننسأها بمعنى ننساها فهو جاهل بالعربية والتفسير قال موسى عليه السلام : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [3] و« النسيان » مضاف إلى العبد كما في قوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ الله ﴾ [4] ولهذا قرأها بعض الصحابة : أو ﴿ تنساها ﴾ أي تنساها يا محمد ، وهذا واضح لا يخفى إلا على جاهل لا يفرق بين ننسأها بالهمز وبين ننساها بلا همز والله أعلم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) قال أبو جعفر : اختلفت القراءة في قوله ذلك : فقرأها أهل المدينة والكوفة « أوْ نُنْسها » . ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل .

أحدهما أن يكون تأويله : ما ننسخ يا محمد من آية فتغير حكمها أو نُنسها وقد ذكر أنها في مصحف عبدالله « ما نُنسك من آية أو نَنْسخها نجيء بمثلها » فذلك تأويل « النسيان » وبهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : ما ننسخ من آية أو ننسها ، قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأها « أو تنسها » قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال الله تعالى ﴿ سنقرئُك فلا تنسى ﴾ سورة الأعلى : ٦ ﴿ واذكر ربّك إذا نسيت ﴾ [الكهف آية ٢٤] .

(٣) سورة طه آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة الأعلى آية رقم ٦ ـ ٧ .

تفسير قوله تعالى : ولكم في القصاص حياة

في قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ في القَتْلَى ﴾ (1) الآية وفيها قولان : (أحدهما) أن القصاص هو القود ، وهو أخذ الدية [بدل] القتل كما جاء عن ابن عباس أنه كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية فجعل الله في هذه الآية الدية فقال :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيه شَيْءٌ ﴾ (2) والعفو هو أن يقبل الدية في العمد ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (3) مما كان على بني إسرائيل ، والمراد على هذا القول أن يقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، قال قتادة : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغي ، وكان الحي إذا كان فيهم عدد وعدة فقتل عبدهم عبد قوم آخرين لن يقتل به إلا حراً تعززاً على غيرهم . وإن قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن يقتل بها إلا رجلاً (4) فنزلت هذه الآية . وهذا قول أكثر الفقهاء ، وقد ذكر ذلك الشافعي وغيره .

ويحتج بها طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد على أن الحر لا يقتل بالعبد لقوله : ﴿ والعبد بالعبد ﴾ فينقض ذلك عليه بالمرأة فإنه قال ﴿ والأنثى بالأنثى ﴾ وطائفة من المفسرين لم يذكروا إلا هذا القول .

---

(1) (2) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ .

(3) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ ، روى البخاري والنسائي والدارقطني ، عن ابن عباس قال : كان في بني اسرائيل القصاص ، ولم تكن فيهم الدية . فقال الله لهذه الأمة « كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء » فالعفو أن يقبل الدية في العمد . ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ ﴿ مما كتب على من كان قبلكم ﴾ ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ . هذا لفظ البخاري .

(4) ولذا قال الرسول - ﷺ - إن من اعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة ، رجل قتل غير قاتله ، ورجل قتل في الحرم ، ورجل أخذ بذحول الجاهلية [الذحل] بفتح فسكون ، قيل : هو العدواة ، وقيل : الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ، ونحو ذلك .

« القول الثاني » أن القصاص في القتلى يكون بين الطائفتين المقتتلتين قتال عصبية وجاهلية فيقتل من هؤلاء ومن هؤلاء أحرار وعبيد ونساء فأمر الله تعالى بالعدل بين الطائفتين بأن يقاص دية حر بدية حر . ودية امرأة بدية امرأة ، وعبد بعبد ، فإن فضل لإحدى الطائفتين شيء بعد المقاصة فلتتبع الأخرى بمعروف ، ولتؤد الأخرى إليها بإحسان ، وهذا قول الشعبي وغيره ، وقد ذكره محمد بن جرير الطبري وغيره و[علي] هذا القول فإنه إذا جعل ظاهر الآية لزمته إشكالات ؛

لكن المعنى [الثاني] هو مدلول الآية ومقتضاه ولا إشكال عليه ؛ بخلاف القول الأول يستفاد من دلالة الآية كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى ، وما ذكرناه يظهر من وجوه .

(أحدها) أنه قال : ﴿ **كتب عليكم القصاص في القتلى** ﴾ و« القصاص » مصدر قاصَّه يقاصه مقاصة وقصاصاً ، ومنه مقاصة الدينين أحدهما بالآخر و﴿ **القصاص في القتلى** ﴾ إنما يكون إذا كان الجميع قتلى ، كما ذكر الشعبي فيقاص هؤلاء القتلى بهؤلاء القتلى ، أما إذا قتل رجل رجلاً فالمقتول ميت فهنا المقتول لا مقاصة فيه ، ولكن القصاص أن يمكن من قتل القاتل لا غيره ، وفي اعتبار المكافآت فيه قولان للفقهاء ، قيل : تعتبر المكافآت فلا يقتل مسلم بذمي ولا حر بعبد [1] وهو قول الأكثرين مالك والشافعي وأحمد ، وقيل لا تعتبر المكافآت كقول أبي حنيفة ، والمكافآت لا تسمى قصاصاً . وأيضاً فإنه قال : ﴿ **كتب عليكم القصاص** ﴾ وإن أريد

---

(١) اختلف العلماء في تأويل الآية فقالت طائفة : جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه ، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ، فالآية محكمة وفيها اجمال يبينه قوله تعالى : وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس وبينه النبي - ﷺ - بسنته لما قتل اليهودي بالمرأة ، قاله مجاهد، وذكره أبو عبيد عن ابن عباس ، وروي عن ابن عباس أيضاً أنها منسوخة بآية « المائدة » وهو قول أهل العراق .

بالقصاص المكافآت فتلك لم تكتب ، وإن أريد به استيفاء القود فذلك مباح للولي ، إن شاء اقتص وإن شاء لم يقتص فلم يكتب عليه الاقتصاص ، وقد أورد هذا السؤال بعضهم وقال : هو مكتوب على القاتل أن يمكن من نفسه ، فيقال له : هو تعالى قال : ﴿ كُتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ وليس هذا خطاباً للقاتل وحده بل هو خطاب لأولياء المقتول بدليل قوله تعالى : ﴿ **فمن عُفِي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان** ﴾ ثم لا يقال للقاتل : كتب عليكم القصاص في المقتول فإن المقتول لا قصاص فيه .

و« أيضاً » فنفس انقياد القاتل للولي ليس هو قصاصاً : بل الولي له أن يقتص وله أن لا يقتص [1] ، وإنما سمي هذا قوداً لأن الولي يقوده ، وهو بمنزلة تسليم السلعة إلى المشتري ، ثم قال تعالى : ﴿ **الحر بالحر** ﴾ فكيف يقال مثل هذا قصده القاتل : بل هذا خطاب للأمة بالمقاصة والمعادلة في القتل والنبي ﷺ إنما قال : « كتب الله القصاص » لما كسرت الربيع سن جارية وامتنعوا من أخذ الأرسن ، فقال أنس بن النضر : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع ، فقال النبي ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم بالأرسن فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » [2] كقوله تعالى : ﴿ **والجروح قصاص** ﴾ يعني « كتاب الله » . أن

---

(١) لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر فرض عليهم النهوض بالقصاص ، وإقامة الحدود وغير ذلك ، لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعاً أن يجتمعوا على القصاص ، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود ، وليس القصاص بلازم ، إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتداء ، فإما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الديات ١٦ باب القصاص في السنن ٢٦٤٩ حدثنا خالد ابن الحرث وابن أبي عديٍّ عن حميد ، عن أنس ، قال: كسرت الربيع عمة أنس ثنية جارية وذكره .

وأخرجه مسلم في كتاب القسامة ٥ باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها ٢٤ =

يؤخذ العضو بنظيره ، فهذا قصاص لأنه مساواة ، ولهذا كانت المكافآت في الأعضاء والجروح معتبرة باتفاق العلماء ، وإن قيل القصاص هو أن يقتل قاتله لا غيره فهو خلاف الاعتداء ، قيل : نعم ! وهذا قصاص في الأحياء لا في القتلى .

(الثاني) أنه قال : ﴿ **في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى** ﴾ ومعلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد وبالحر ، والأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر ، والحر يقتل بالحر وبالأنثى أيضاً عند عامة العلماء وقيل : يشترط أن تؤدي تمام ديته ، وإذا كان كذلك فقوله : ﴿ **الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى** ﴾ إنما يدل على مقاصة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به ، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وهذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر أيتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر فضل ؟ أما في القتلى فلا يختص هذا باتفاق المسلمين .

(الثالث) أنه قال : ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ** [1] **لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ** ﴾ لفظ (عُفي) هنا قد استعمل متعدياً : فإنه قال : (عفي) (شيء) ولم يقل : (عفا) (شيئاً) وهذا إنما يستعمل في الفعل كما قال تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ [2] وأما العفو عن القتل فذاك يقال فيه عفوت عن

= (١٦٧٥) حدثنا حماد أخبرنا ثابت عن أنس وذكره وأخرجه البخاري في الصلح ٨ والتفسير سورة ٢ : ٢٣ والنسائي في القسامة ١٦ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٢٨ - ١٦٧ - ٢٨٤ (حلبي) .

(١) سورة البقرة رقم ١٧٨ إن معنى « عفى » بذل والعفو في اللغة: البذل ولهذا قال الله تعالى: ﴿ خذ العفو ﴾ أي ما سهل . وقال أبو الأسود الدؤلي خذي العفو مني تستدعي مودتي » .
وقال ﷺ : أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله » يعني شهد الله على عباده ، فكأنه قال : من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف وقال قوم : وليؤد إليه القاتل باحسان فندبه تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القاتل ، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة كما قال ذلك عقب ذكر القصاص في سورة المائدة : فمن تصدق به فهو كفارة له » .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٩ .

القاتل . فولي المقتول بين خيرتين : بين أن يعفو عن القتل ويأخذ الدية فلم يعف له شيء ؛ بل هو عفا عن القتل وإذا عفا فإما أن يستحق الدية بنفسه أو بغير رضا القاتل على قولين :

وقد قال بعضهم : ﴿ من أخيه ﴾ أي من دم أخيه أي ترك له القتل ورضي بالدية ، والمراد القاتل يعني أن القاتل عفى له من دم أخيه المقتول أي ترك له القتل ، فيكون التقدير أن الولي عفى للقاتل من دم المقتول شيئاً وهذا كلام لا يعرف ، لا يقال : عَفَوْت لك شيئاً ولا يقال عفوت من دم القاتل وإنما الذي يقال : إنه عفا عن القاتل ، فأين هذا من هذا ؟ .

وأما على القول الأول فالمتقاصان إذا تعادل القتلى فمن عفى له أي فضل له من مقاصة أخيه مقاصة أخرى أي هذا الذي فضل له فضل كما يقال : أبقى له من جهة أخيه بقية ﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ فهذا المستحق للفضل يتبع المقاص الآخر بالمعروف ، وذلك يؤدي إلى هذا بإحسان .

﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ أي من أن كل طائفة تؤدي قتلى الأخرى فإن في هذا تثقيلاً عظيماً له ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [1] فإنهم إذا تعادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم يبق واحدة تطلب الأخرى بشيء فحيي هؤلاء وحيي هؤلاء ، بخلاف ما إذا لم يتقاصوا فإنهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت فيها خلائق ، كما هو معروف في فتن الجاهلية والإسلام ، إنما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين وإلا فمع التعادل

---

(١) اتفق الأئمة على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه ، دون السلطان وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك .
وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من رعيته ، إذ هو واحد منهم . وثبت عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه أنه قال : « لرجل شكا إليه أن عاملاً قطع يدي » « لئن كنت صادقاً لأقيدنك منه » .

والتناصف الذي يرضى به أولو الألباب لا تبقى فتنة .

وقوله ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ (١)

فطلب من الطائفة الأخرى مالاً أو قوماً أو أذاهم (٢) بسبب ما بينهم من الدم ﴿ فله عذاب أليم ﴾ وهذا كقوله :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِن فَاءَت فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (٣)

و« الأخوّة » هنا كالأخوة هناك وهذا في قتلى الفتن .

وأما إذا قتل رجل رجلاً من غير فتنة فهم كانوا يعرفون أن القاتل يقتل لكن كانت الطائفة القوية تطلب أن تقتل غير القاتل ، أو من هو أكثر من القاتل ، أو اثنين بواحد ، وإذا كان القاتل منها لم تقتل به من هو دونه كما قيل : إنه كان بين قريظة والنضير لكن هذا لم تثر به الفتن بل فيه ظلم الطائفة القوية للضعيفة ، ولم يكن في الأمم من يقول : إن القاتل الظالم المتعدي مطلقاً لا يقتل ، فهذا لم يكن عليه أحد من بني آدم ؛ بل كل بني آدم مطبقون على أن القاتل في الجملة يقتل ، لكن الظلمة الأقوياء يفرقون بين قتيل وقتيل .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ .

(٢) اختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي ، هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله ، وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة ، وقال قتادة ، وعكرمة ، والسدي ، وغيرهم ، عذابه أن يقتل البتة ، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو ، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ لا أعفى من قتل بعد أخذ الدية » .

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٩ ـ ١٠ .

وقول من قال : إن قوله :

﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ معناه أن القاتل إذا عرف أن يقتل كف فكان في ذلك حياة له وللمقتول [1] . يقال له : هذا معنى صحيح ؛ ولكن هذا مما يعرفه جميع الناس ، وهو مفروز في جبلتهم ، وليس في الآدميين من يبيح قتل أحد من غير أن يقتل قاتله ؛ بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل ولا يتصور أن الناس إذا كان كلٌ من قدر على غيره قتله وهو لا يقتل يرضى بمال ، وإذا كان هذا المعنى من أوائل ما يعرفه الآدميون ويعلمون أنهم لا يعيشون بدونه صار هذا مثل حاجتهم إلى الطعام والشراب والسكنى ، فالقرآن أجل من أن يكون مقصوده التعريف بهذه الأمور البديهية ؛ بل هذا مما يدخل في معناه ، وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حُر بِحُر وعبد بعبد وأنثى بأنثى ، فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كدم هذا متضمن لمساواتهم في الدماء والديات وكان بهذه المقاصة لهم حياة من الفتن التي توجب هلاكهم ، كما هو معروف ، وهذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية ، فعلم أن دم الحر وديته كدم الحر وديته فيقتل به وإذا علم أن المتقاص يقع للتساوي في الديات علم أن للمقتول دية ، ولفظ القصاص [2] يدل على

---

(١) إذا كف القصاصُ الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها ، وكان في هذا الكف حياة ، حياة مطلقة لا حياة فرد ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . . بل حياة شاملة عاملة للكون كله وللأحياء أجمعين .

(٢) والقصاص : هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء ، الاعتداء بالقتل ابتداء ، والاعتداء في الثأر أخيراً .

وبغير هذا الرباط لا تقوم شريعة ، ولا يفلح قانون، ويتحرج متحرج ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الانسان .

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود في عهد النبي - ﷺ - وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً - لقد كانت هناك التقوى ، وكانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر . الى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب .

المعادلة والمساواة فيدل على أن الله أوجب العدل والإنصاف في أمر القتلى ، فمن قتل غير قاتله فهو ظالم والمقتول وأولياؤه إذا امتنعوا من إنصاف أولياء المقتول فهم ظالمون ، هؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل ، وهؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل .

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في قوله :

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ [1] وإذا دلت على العدل في القود بطريق اللزوم والتنبيه ذهب الإشكال ، ولم يقل : فلم لا قال : والعبد بالعبد والحر ؟ فإنه لم يكن المقصود أنه يقاص به في القتلى ، ومعلوم أنه إنما يقاص الحر بالحر لا بالمرأة والمرأة بالمرأة لا بالحر والعبد بالعبد فظهرت فائدة التخصيص به والمقابلة في الآية .

ودلت الآية حينئذ على أن الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى إذا كانا متساويين في الدم ، وبدله هو الدية ، ولم ينتف أن يقتل عبد بحر وأنثى بذكر ولا لها مفهوم ينفي ذلك ؛ بل كما دلت على ذلك بطريق التنبيه والفحوى والأولى كذلك تدل على هذا أيضاً ؛ فإنه إذا قتل العبد بالعبد فقتله بالحر أولى ، وإذا قتلت المرأة بالمرأة فقتلها بالرجل أولى .

وأما قتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى فالآية لم تتعرض له لا بنفي ولا إثبات ولا لها مفهوم يدل عليه . لا مفهوم موافقةولا مخالفة ؛ فإنه إذا كان في المقاصة يقاس الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى لتساوي الديات دل ذلك على قتل النظير بالنظير والأدنى بالأعلى .

يبقى قتل الأعلى الكثير الدية بالأدنى القليل الدية ليس في الآية تعرض

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٣ .

له ، فإنه لم يقصد بها ابتداء القود ، وإنما قصد المقاصة في القتلى لتساوي دياتهم .

فإن قيل : دية الحر كدية الحر ودية الأنثى كدية الأنثى ويبقى العبيد قيمتهم متفاضلة ؟ .

قيل : عبيدهم كانوا متقاربين القيمة ، وقوله : ﴿ العبد بالعبد ﴾ قد يراد به بالعبد المماثل به ، كما يقال : ثوب بثوب وإن كان أحدهما أغلى قيمة فذاك مما عفى له ، وقد يعفى إذا لم تعرف قيمتهم وهو الغالب فإن المقتولين في الفتن عبيدهم الذين يقاتلون معهم ، وهم يكونون تربيتهم عندهم لم يشتروهم ، فهذا يكون مع العلم بتساوي القيمة ومع الجهل بتفاضلها فإن المجهول كالمعدوم ولو أتلف كل من الرجلين ثوب الآخر ولا يعلم واحد منهما قيمة واحد من الثوبين قيل ثوب بثوب ، وهذا لأن الزيادة محتملة من الطرفين : يحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ، ويحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ، وليس ترجيح أحدهما أولى من الآخر ، والأصل براءة ذمة كل واحد من الزيادة فلا تشتغل الذمة بأمر مشكوك فيه لو كان الشك في أحدهما فكيف إذا كان من الطرفين ؟ .

فظهر حكمة قوله : ﴿ والعبد بالعبد ﴾ وظهر بهذا أن القرآن دل على ما يحتاج الخلق إلى معرفته والعمل به ، ويحقن به دماؤهم ويحيون به ، ودخل في ذلك ما ذكره الآخرون من العدل في القود .

ودلت الآية على أن القتلى يؤخذ لهم ديات ، فدل على ثبوت الدية على القاتل وأنها مختلفة باختلاف المقتولين ، وهذا مما مَنَّ الله به على أمة محمد ﷺ حيث أثبت القصاص والدية .

وأما كون العفو هو قبول الدية في العمد ، وأنه يستحق العافي بمجرد عفوه فالآية لم تتعرض لهذا .

ودلت هـذه الآية على أن الـطوائف المقتتلة تضمن كل منهمـا ما أتلفتـه الأخـرى من دم ومال بـطريق الظلم لقـوله : ﴿ من أخيـه ﴾ بخلاف مـا أتلفـه المسلمون للكفار والكفار للمسلمين .

وأما القاتل بتأويـل « كقتال أهـل الجمل وصفين » فـلا ضمان فيـه أيضاً بـطريق الأولى عند الجمهـور ، فإنـه إذا كـان الكفـار المتـأولـون لا يضمنـون فالمسلمون المتأولون أولى أن لا يضمنوا .

ودلت الآية على أن هذا الضمان على مجموع الطائفة يستوي فيه الـردة والمباشر ، لا يقال : انظروا من قتل صاحبكم هذا فطالبوه بدينه بل يقـال ديته عليكم كلكم فإنكم جميعاً قتلتمـوه : لأن المباشـر إنما تمكن بمعـاونة الـرد له وعلى هذا دل قوله :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ فَعَـاقَبْتُمْ فَآتُـوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ (١)

فإن أولئك الكفـار كان عليهم مثـل صداق هـذه المرأة التي ذهبت إليهم فإذا لم يؤدوه أخذ من أموالهم التي يقدر المسلمون عليها ، مثـل امرأة جـاءت منهم يستحقـون صداقهـا ، فيعـطى المسلم زوج تلك المـرتـدة صـداقهـا من صداق هذه المسلمة المهاجرة التي يستحقه الكفـار لكونهـا أسلمت وهاجـرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها وإن كان زوج المهاجرة

---

(١) سـورة الممتحنة آيـة رقم ١١ قال ابن عبـاس يقول : إن لحقت امـرأة مؤمنة بكفـار أهل مكـة وليس بينكم وبينهم عهد ، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فاعطوا هذا الزوج المسلم مهـره من الغنيمة قبل أن تخمس . وقال الزهري : يعطى من مال الفيء وقال الأعمش : هي منسوخة ، وقـال عطاء : بـل حكمها ثـابت . والآية نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتـدت وتركت زوجهـا عياض بن غنم القـرش ولم ترتـد امرأة من قـريش غيرهـا ، ثم عادت إلى الإسـلام ، وحكى الثعلبي عن ابن عبـاس : هن ست نسـوة رجعن عن الإسـلام ولحقن بـالمشـركين من نساء المؤمنين المهاجرين .

ليس هو الذي تزوج بالمرتدة . لأن الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضاً صارت كالشخص الواحد .

ولهذا لما قتل خالد من قتل من بني جذيمة وداهم النبي ﷺ من عنده ؛ لأن خالداً نائبه وهو لا يمكنهم من مطالبته وحبسه لأنه متأول وكذلك عمرو بن أمية وقاتله خالد بن الوليد لأنه قتل هذا على سبيل الجهاد لا لعداوة تخصه ، وقد تنازع الفقهاء في خطأ ولي الأمر هل هو في بيت المال أو على ذمته ؟ على قولين :

ولهذا كان ما غنمته السرية يشاركها فيه الجيش وما غنمه الجيش شاركته فيه السرية ، لأنه إنما يغنم بعضهم بظهر بعض ، فإذا اشتركوا في المغرم اشتركوا في المغنم ، وكذلك في العقوبة يقتل الردء والمباشر من المحاربين عند جماهير الفقهاء ، كما قتل عمر رضي الله عنه ربيئة المحاربين . وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد ، وهو مذهب مالك في القتل قوداً وفي السراق أيضاً .

وبيان دلالة الآية على ذلك أنَّ المقتولين إذا حبس حر بحر وعبد بعبد وأنثى بأنثى فالحر من هؤلاء ليس قاتله هو ولي الحر من هؤلاء : بل قد يكون غيره ، وكذلك العبد من هؤلاء ليس قاتله هو سيد العبد من هؤلاء ؛ بل قد يكون غيره ؛ لكن لما كانوا مجتمعين متناصرين على قتال أولئك ومحاربتهم كان من قتله بعضهم فكلهم قتله ، وكلهم يضمنونه ؛ ولهذا ما فضل لأحد الطائفتين يؤخذ من مال الأخرى .

فإن قيل : إذا كان مستقراً في فطر بني آدم أن القاتل الظالم لنظيره يستحق أن يقتل وليس في الآدميين من يقول إنه لا يقتل فما الفائدة في قوله تعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ـ أي في التوراة ـ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ

بـالعَيْنِ ﴾ [١] . الآية . إذا كـان مثل هـذا الشرع يعـرفه العقـلاء كلهم ؟ قيـل لهم : فـائدتـه بيان تسـاوي دماء بني اسـرائيـل ، وإن دمـاءهـم متكـافئـة ليس لشريفهم مزيـة على ضعيفهم ، وهذه الفـائدة الجليلة التي جـاءت بها شـرائع الأنبيـاء ، فأمـا الطوائف الخـارجون عن شـرائع الأنبيـاء فلا يحكمـون بذلـك مطلقاً ؛ بـل قد لا يقتلون الشـريف ، وإذا كان الملك عـادلاً فقد يفعـل بعض ذلـك ، فهذا الـذي كتبه الله في التـوراة من تكـافـؤ دمـائهم ، ويسعى بذمتهم أدنـاهـم وهم يـد على من سـواهـم ، فحكم أيضـاً في المؤمنين بـه من جميـع الأجناس باتفاق العلماء .

وبهذا ظهر الجواب عن احتجاج من احتـج بآيـة التوراة على أن المسلم يقتل بالذمى لقوله :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾[٢]

و« شـرع من قبلنا شـرع لنا » فـإنه يقـال : الـذي كتب عليهم أن النفس منهم بالنفس منهم ، وهـم كلهم كانوا مؤمنين ، لم يكن فيهم كافر ، ولـم يكن في شريعتهم إبقاء كافر بينهم لا بجزية ولا غيرها ، وهذا مثل شرع محمد ﷺ أن المسلمين تتكافأ دمـاؤ هم ، وليس في الشريعتين أن دم الكـافر يكـافىء دم المسلم ؛ بل جعل الإيمان هو الـواجب للمكافـآت دليل على انتفـاء ذلك في

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٥ ويقال في سبب نزول هذه الآية : كـانت دية النضيـري أكثر ، وكـان النضيري لا يقتل بالقرظي ، ويقتل به القرظي فلما جاء الإسلام راجـع بنو قـريظة رسـول الله ـ ﷺ ـ فيه فحكم بالاستواء ، فقالت بنـو النضير قـد حططت منـا ، فنزلت هـذه الآية وتعلق أبـو حنيفـة وغيره بهـذه الآية فقـال : يقتل المسلم بـالذمى لأنـه نفس بنفس ، وقـد روى أبـو داود والترمذي والنسائي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل هل خصك رسول الله ـ ﷺ بشيء . . ؟ فقـال : لا ، إلا ما في هـذا ، وأخرج كتـاباً من قـراب سيفـه وإذا فيـه : « المؤمنـون تتكـافـأ دماؤ هم ، وهم يد على من سواهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهد » .
وقالت الشافعية : هذا خبر عن شرع من قبلنا وشرع من قبلنا ليس شرعاً لنا » .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٥ .

الكافر ـ سواء كان ذمياً أو مستأمناً ـ لانتفاء الإيمان الواجب للمكافأة فيه ؛ نعم ! يحتج بعمومه على العبد .

وليس في العبد نصوص صريحة صحيحة كما في الذمي ؛ بل ما روي « من قَتَلَ عبده قتلناه به »(١) وهذا لأنه إذا قتله ظالماً كان الإمام ولي دمه ؛ لأن القاتل كما أنه لا يرث المقتول إذا كان حراً فكذلك لا يكون ولي دمه إذا كان عبداً ، بل هذا أولى كيف يكون ولي دمه وهو القاتل ؟ بل لا يكون ولي دمه ؛ بل ورثة القاتل السيد ، لأنهم ورثته وهو بالحياة ولم يثبت له ولاية حتى تنتقل إليهم فيكون وليه الإمام وحينئذ فللإمام قتله ، فكل من قتل عبده كان للإمام أن يقتله . و« أيضاً » فقد ثبت بالسنة والآثار أنه إذا مثل بعبده عتق عليه(٢) ، وهذا مذهب مالك وأحمد وغيرهما ، وقتله [أشد] أنواع المثل فلا يموت إلا حرّا ؛ لكن حريته لم تثبت في حال الحياة حتى يرثه عصبته ، بل حريته تثبت حكما ، وهو إذا كان عتق كان ولاؤه للمسلمين ، فيكون الإمام

---

(١) الحديث رواه أبو داود في الديات ٧ ، ورواه ابن ماجه في الديات ٢٣ باب هل يقتل الحر بالعبد ٢٦٦٣ ـ حدثنا وكيع عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن ، عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ ـ وذكره . ورواه الترمذي في كتاب الديات ١٨ باب ما جاء في الرجل يقتل عبده ، ١٤١٤ ـ حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ قال الترمذي . هذا حديث حسن غريب ، وقد ذهب بعض أهل العلم منهم الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح : ليس بين الحر والعبد قصاص من النفس ، ولا فيما دون النفس ، وهو قول أحمد وإسحاق وقال بعضهم إذا قتل عبده لا يقتل به ، وإذا قتل عبد غيره قتل به وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة . والحديث رواه أيضاً أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ (حلبي) .

(٢) روى الامام مسلم في كتاب الايمان ٨ باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده ٢٩ (١٦٥٧) حدثنا أبو عوانة عن فراس ، عن ذكوان أبي صالح عن زاذان أبي عمر قال : أتيت ابن عمر وقد اعتق مملوكاً قال : فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال : ما فيه من الأجر ما يسوي هذا إلا أني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

ورواه الامام أحمد في مسنده ، ٢ : ٤٥ ، ٦١ (حلبي) .

هو وليه ، فله قتل قاتل عبده .

وقد يحتج بهذا من يقول : إن قاتل عبد غيره لسيده قتله ، وإذا دل الحديث على هذا كان هذا القول هو الراجح ، والقول الآخر ليس معه نص صريح ولا قياس صحيح ، وقد قال الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : من قُتل ولا ولي له كان الإمام ولي دمه ، فله أن يقتل ،وله أن يعفو على الدية ؛ لا مجاناً .

يؤيد هذا أن من قال : لا يقتل حر بعبد يقول : إنه لا يقتل الذمي الحر بالعبد المسلم . قال الله تعالى في كتابه :

﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾ [1] فالعبد المؤمن خير من الذمي المشرك فكيف لا يقتل به ؛ والعبد المؤمن مثل الحرائر المؤمنات ، كما دلت عليه هذه الآية ، وهو قول جماهير السلف والخلف ، وهذا قوي على قول أحمد فإنه يجوز شهادة العبد كالحر ، بخلاف الذمي ، فلماذا لا يقتل الحر بالعبد وكلهم مؤمنون ، وقد قال النبي ﷺ « المؤمنون تتكافأ دماؤهم » [2]

تفسير قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتالٍ فِيهِ ﴾ [3]

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الديات ١١ ، ٣١ والجهاد ١٤٧ والنسائي في كتاب القسامة ١٠ ، ١٤ وأخرجه ابن ماجة في كتاب الديات ٣١ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ٢٦٨٣ حدثنا المعمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد على أقصاهم » .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٧ . روى الطبري بسنده عن السدي : أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث

من باب بدل الاشتمال ، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه فلم قدم الشهر وقد قلتم : إنهم يقدمون ما بيانه أهم وهم به أعنى ؟ .

قيل : السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم انتهاكه وانتهاك حرمته ، وكان اهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال ، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة .

فإن قيل : فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر ، وهلا اكتفى بضميره فقال : هو كبير ؟ وأنت إذا قلت : سألته عند زيد هو في الدار كان أوجز من أن تقول أزَيْد في الدار ؟ .

قيل : في إعادته بلفظ الظاهر بلاغة بديعة ، وهو تعليق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً ولو أتى بالمضمر فقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه . وليس الأمر كذلك ؛وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام .

ونظير هذه القاعدة قوله ﷺ ـ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال ـ :

= سرية ـ وكانوا سبعة نفر ـ وأمر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي . وكتب مع ابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن ملل ، فلما نزل ببطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه أن سر حتى تنزل نخله فقال لأصحابه . من كان يريد الموت فليمض وليوص ، فإني موص وماض لأمر رسول الله ـ ﷺ ـ فسار وتخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان أضلا راحلة لهما . وسار ابن جحش الى بطن نخله فإذا هم بالحكم بن كيسان ، وعبد الله بن المغيرة وانفلت المغيرة وقتل عمرو بن الحضرمي ، قتله واقد بن عبد الله ، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما غنموا من الأموال أراد أهل مكة أن يفادوا بالاسيرين ، فقال النبي ـ ﷺ ـ حتى ننظر ما فعل صاحبانا فلما رجع سعد وصاحبه فأدى باسيرين ففجر عليه المشركون وقالوا محمد يزعم أنه تبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب فنزل قول الله تعالى .

« هو الطهور ماؤه »[1] فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله : « نعم توضؤوا به » لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص ، فعدل عن قوله : « نعم توضؤوا » إلى جواب عام يقتضي تعليق الحكم والطهور به بنفس مائه من حيث هو ، فأفاد استمرار الحكم على الدوام ، وتعلقه بعموم الأمة وبطل توهم قصره على السبب فتأمله فإنه بديع .

فكذلك في الآية لما قال : ﴿ قتال فيه كبير ﴾ فجعل الخبر بـ ﴿ كبير ﴾ واقعاً عن ﴿ قتال فيه ﴾ فيتعلق الحكم به على العموم : ولفظ « المضمر » لا يقتضي ذلك .

وقريب من هذا قوله تعالى :

﴿ والَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ المُصْلِحينَ ﴾[2] ولم يقل أجرهم ، تعليقاً لهذا الحكم بالوصف وهو كونهم مصلحين ، وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور .

وقريب منه وهو ألطف معنى قوله تعالى :

﴿ يَسْألونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ في الْمَحِيضِ ﴾[3] ولم يقل فيه تعليقاً بحكم الاعتزال بنفس الحيض ، وإنه هو

---

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب الطهارة ٣ باب الطهور للوضوء ١٢ - عن صفوان بن سليم ، عن سعيد بن سلمة من آل بني الأنـدق عن المغيرة بن أبي برده ، وهو من بني عبد الدار ، أنه سمع أبا هريرة يقول : جاء رجل الى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ به فقال رسول الله - ﷺ - وذكره .

ورواه أبو داود في ١ - كتاب الطهارة ٤١ باب الوضوء بماء البحر والترمذي في ١ - كتاب الطهارة ، ٥٢ باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور والنسائي في ١ - كتاب الطهارة ٤٧ - باب ماء البحر . وابن ماجه في ١ كتاب الطهارة ٣٨ - باب ما جاء في الوضوء بماء البحر .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٢٢ .

سبب الاعتزال وقال : ﴿ قُلْ هُوَ أَذَىً ﴾ ولم يقل : (المحيض أذى) لأنه جاء على الأصل ؛ ولأنه لو كرره لثقل اللفظ به لتكـرره ثلاث مـرات ، وكان ذكـره بلفظ الـظاهر في الأمـر بالاعتـزال أحسن من ذكره مضمـرا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً بخلاف قوله : ﴿ قُلْ هُوَ أَذىً ﴾ فإنه أخبار بالواقع ، والمخـاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً ، بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يعلم بالشرع .

سُئِل شَيخُ الاسلام
عن نكاح الكتابية

عن قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ (١)

وقد أباح العلماء التزويج بالنصرانية واليهودية ، فهل هما من المشـركين أم لا ؟؟. فأجاب الحمد لله . نكاح الكتابية جائز بالآية التي في المائدة قـال تعالى :

﴿ وَطَعَـامُ الَّـذِينَ أُوتُـوا الكِتَـابَ حِـلٌّ لَكُمْ وَطَعَـامُكُمْ حِـلٌّ لَهُمْ ، والمُحْصَنَـاتُ مِنَ المُؤْمِنَـاتِ وَالْمُحصَنَـاتُ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الكِتَـابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٢)

وهذا مذهب جماهير السلف والخلف من الأئمة الأربعة وغيـرهم ، وقد روي عن ابن عمـر : أنه كـره نكاح النصـرانية ، وقـال : لا أعلم شركـاً أعظم ممن تقول : إن ربها عيسى بن مريم .

وهو اليوم مـذهب طائفـة من أهل البـدع ، وقد احتجـوا بالآيـة التي في

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥ .

سورة البقرة وبقوله ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ ﴾ [1] والجواب من آية البقرة من ثلاثة أوجه .

(أحدها) أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين ، فجعل أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [2] .

فإن قيل : فقد وصفهم بالشرك بقوله :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3]

قيل : أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك ، فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد ، فكل من آمن بالرسل والكتب لم يكن في أصل دينهم شرك ؛ ولكن النصارى ابتدعوا الشرك ، كما قال : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلأجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم

---

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٧ الذين آمنوا : أي صدقوا بمحمد ـ ﷺ ـ والذين هادوا : معناه صاروا يهوداً نسبوا الى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام فقلبت العرب الذال دالاً لأن الأعجمية إذا عرّبت غيرت عن لفظها . سموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب ، والهائد : التائب قال الشاعر : « إني امرؤ من حبه هائد » . أي تائب وفي التنزيل : إنا هدنا إليك : أي تبنا والنصارى : جمع ، واحد نصراني ، وقيل : نصران باسقاط الياء ، وهذا قول سيبويه ، والأنثى نصرانه : كندمان وندمانه .
والصابئين : جمع صابىء ، وقيل : صابٍ ولذلك اختلفوا في همزه وهمزه الجمهور إلا نافعاً . فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال. فالصابىء في اللغة : من خرج ومال من دين الى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبا .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

يـأمر الله بـه ، وحيث ميـزهـم عن المشـركين فـلأن أصـل دينهم اتبـاع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك .

فإذا قيل : أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين ؛ فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا شرك فيه ، كما إذا قيل : المسلمون وأمة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد ، ولا رفض ، ولا تكذيب بالقدر ، ولا غير ذلك من البدع ، وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد ابتدع هذه البدع ؛ لكن أمـة محمـد ﷺ لا تجتمع على ضـلالـة ، فـلا يـزال فيهـا من هـو متبـع لشـريعـة التوحيد ؛ بخلاف أهل الكتاب ، ولم يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم مشـركون بـالاسم ؛ بل قـال : ﴿ **عمّا يشـركون** ﴾ بـالفعل ، وآيـة البقرة قـال فيها :

﴿ **المشركين** ﴾ و ﴿ **المشركات** ﴾ بالاسم ، والاسم أوكد من الفعل .

(الـوجه الثـاني) أن يقال : إن شملهم لفظ ﴿ **المشـركين** ﴾ في سـورة البقـرة كما وصفهم بـالشرك فهـذا متوجـه بأن يفـرق بين دلالة اللفظ مفـرداً أو مقروناً فإذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب ، وإذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم ، كما قيل : مثل هذا في اسم الفقير والمسكين ونحو ذلـك ، فعلى هذا يقال : آية البقرة عامة ، وتلك خاصـة ، والخاص يقـدم على العام . (الـوجه الثالث) أن يقال : آية المائدة ناسخة لآية البقرة ، لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء ، وقد جاء في الحديث المائدة

وقال شيخ الاسلام رحمه الله
(الصدقة وما يقترن بها من أحوال)

لمـا ذكر سبحـانه مـا يبطل الصـدقة من المن والأذى ومن الـريـاء ومثله بالتراب على الصفوان إذا أصابه المطر ، ولهذا قال :

﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [(١)] لأن الإيمان بأحدهما لا ينفع هنا ، بخلاف قوله في النساء :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [(٢)]

فإنه في معرض الذم ، فذكر غايته وذكر ما يقابله وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم .

فالأول الإخلاص .

و« التثبيت » هو التثبت كقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [(٣)] كقوله : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [(٤)]

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون هذا من باب قدم وتقدم كقوله : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [(٥)] فتبتل وتثبت لازم بمعنى ثبت لأن الثبت هو القوة والمكنة ، وضده الزلزلة ، والرجفة ، فإن الصدقة من جنس القتال ، فالجبان يرجف ، والشجاع يثبت ، ولهذا قال النبي ﷺ « وأما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب ، واختياله بنفسه عند الصدقة » [(٦)] لأنه مقام ثبات وقوة . فالخيلاء تناسبه ، وإنما الذي لا يحبه الله

---

(١) الآية هي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ . [البقرة آية رقم ٢٦٤] .

(٢) سورة النساء الآيات من ٣٦ ـ ٣٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٦٦.

(٤) سورة المزمل آية رقم ٨ .

(٥) سورة الحجرات آية رقم ١ .

(٦) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الخيلاء في الحرب ٢٦٥٩ حدثنا مسلم بن ابراهيم

المختـال الفخور البخيـل الآمر بـالبخل ، فـأما المختـال مع العـطاء أو القتال فيحبه .

وقوله ﴿ من أنفسهم ﴾ أي ليس المقوى له من خارج كالذي يثبت وقت الحرب لإمساك أصحابه له ، وهذا كقوله :

﴿وإذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[1] بل تثبته ومغفرته من جهة نفسه وقد ذكر الله سبحانه في البقرة والنساء والأقسام الأربعة في العطاء إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم في النساء ، أو يعطي مع الكراهة والمن والأذى فلا يكون بتثبيت وهو المذموم في البقرة ، أو مع الرياء فهو المذموم في السورتين ، ففي القسم الرابع : ابتغاء رضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم .

ونـظيره « الصـلاة » أما أن لا يصلي ، أو يصلي ريـاء ، أو كسـلان ، أو يصلي مخلصاً ، والأقسام الثلاثة الأولى مذمومة ، وكذلـك الزكـاة ونظيـر ذلك « الهجرة » و« الجهاد » فإن الناس فيها أربعة أقسام ، وكذلك .

﴿ إذَا لَقِيتُمْ فِئَـةً فَاثْبُتـوا واذْكُرُوا الله كَثِيـراً ﴾ [2] في الثبـات والـذكـر ، وكذلك :

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [3]

ومـوسى بن اسماعيـل ، والمعنى واحـد ، قـالا : ثنـا أبـان ، قـال : ثنـا يحيى ، عن محمـد بن ابراهيم ، عن ابن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول : من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة ، وإن من الخيلاء ما يبغض الله ومنهـا ما يحب الله : فـإما الخيـلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال واختيالـه عند الصـدقة ، وأمـا التي يبغضه الله فـاختيالـه في « البغي » قال موسى : والفخر .

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة البلد آية رقم ١٧ .

في الصبر والمرحمة أربعة أقسام وكذلك ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (١) فهم في الصبر والصلاة فعامة هذه الأشفاع التي في القرآن : إما عملان ، وإما وصفان في عمل : انقسم الناس فيها قسمة رباعية ، ثم إن كانا عملين منفصلين كالصلاة والصبر ، والصلاة والزكاة ونحو ذلك نفع أحدهما ولو ترك الآخر ، وإن كانا شرطين في عمل كالإخلاص (٢) والتثبت لم ينفع أحدهما فإن المن والأذى محبط ، كما أن الرياء محبط ، كما دل عليه القرآن ، ومن هذا تقوى الله وحسن الخلق ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والبر والتقوى والحق والصبر ، وأفضل الإيمان السماحة والصبر بخلاف الإشفاع في الذم كالإفك والإثم والاختيال والفخر والشح والجبن ، والإثم والعدوان ؛ فإن الذم ينال أحدهما مفردا ومقروناً لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته ، فقد لا تحصل المنفعة إلا بتمامه والشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر في الجملة غالباً ، ولهذا فرق في الأسماء بين الأمر والنهي ، والإثبات والنفي ، فإذا أمر بالشيء اقتضى كماله ، وإذا نهى عنه اقتضى النهي عن جميع أجزائه ، ولهذا حيث أمر الله بالنكاح ـ كما في المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره ، وكما في الإحصان ـ فلا بد من

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٤٥ وسورة البقرة ١٥٣ والأولى بزيادة (الواو) .

(٢) اخلاص المسلمين : أنهم تبرأوا مما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث ، فحقيقة الاخلاص : التعري من دون الله ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ سميت سورة الإخلاص ، لأنها خالص التوحيد وسبب خلاص أهله .

وقد ورد في القرآن على وجوه : الأول : في حق الكفار عند مشاهدتهم البلاء ﴿ **دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ الثاني : في أمر المؤمنين ﴿ **فادعوه مخلصين له الدين** ﴾ الثالث : في أن المؤمنين لم يؤمروا إلا به ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين** ﴾ .

الرابع في حق الأنبياء ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة** ﴾ .

الخامس في المنافقين إذا تابوا : ﴿ **وأخلصوا دينهم لله** ﴾ .

السادس أن الجنة لم تصلح إلا لأهله ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ .

الكمال بالعقد والدخول ، وحيث نهى عنه كما في ذوات المحارم فالنهي عن كل منهما على انفراده ، وهذا مذهب مالك وأحمد المنصوص عنه أنه إذا حلف ليتزوجنّ لم يبر إلا بالعقدة والدخول بخلاف ما إذا حلف لا يتزوج فإنه يحنث بالعقدة ، وكذلك إذا حلف لا يفعل شيئاً حنث بفعل بعضه بخلاف إذا حلف ليفعلنه ، فإن دلالة الاسم على كل وبعض تختلف باختلاف النفي والإثبات .

ولهذا لما أمر الله بالطهارة والصلاة ، والزكاة والحج كان الواجب الإتمام كما قال تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمهُنَّ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٢) ولما نهى عن القتل والزنا والسرقة والشرب كان ناهياً عن إبعاض ذلك ؛ بل وعن مقدماته أيضاً ، وإن كان الاسم لا يتناوله في الإثبات ولهذا فرق في الأسماء النكرات بين النفي والإثبات ، والأفعال كلها نكرات ، وفرق بين الأمر والنهي بين التكرار وغيره ، وقال ﷺ : « إذا أَمَرْتُكُمْ بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » (٣) .

وإنما اختلف في المعارف المنفية على روايتين ، كما في قوله : « لا تأخذ الدراهم ولا تكلم الناس » .

---

(١) هذا من جزء من آية ١٢٤ من سورة البقرة ﴿ **وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٣٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١ باب اتباع سنة رسول الله - ﷺ - ٢ - عن الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وذكره . وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ٣٧ باب توقيره - ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك ، ١٣٠ (١٣٣٧) بسنده عن أبو سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب قالا : كان أبو هريرة يحدث أنه سمع رسول الله - ﷺ - وذكره ، وأخرجه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٨٨ عن أبي الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - وذكره .

وقال شيخ الاسلام
أبو العباس تقي الدين بن تيمية قدَّس الله روحه ونوّر ضريحه

فصل
في تفسير قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾

في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1)

قد ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : لما أنزل الله ﴿ إن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتدّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، فأتوْا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب . وقالوا : أي رسول الله كلفنا من العمل ما لا نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ؛ وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابيين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ قولوا : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » (2) .

فلما قرأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها :

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(2) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٤١٢ ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٧ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ١٩٩ (١٢٥) عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال وذكره .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخطَأْنَا ﴾ (٢) قال : نعم !

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً (٣) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾
قال : نعم !

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾
قال : نعم !

﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤)
قال : نعم !

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه وقال : قد فعلت ، قد فعلت ، بدل نعم (٥) .

---

(١) سورة ألبقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ الأصر : في اللغة : العهد ومنه قوله تعالى : ﴿ وأخذتهم على ذلكم إصري ﴾ والاصر : الضيق ، والذنب ، والثقل ، وقال سعيد بن جبير : الإصر : شدة العمل ، وما غلظ على بني إسرائيل من البول ونحوه ، قال الضحاك : كانوا يحملون أموراً شداداً وهذا نحو قول مالك والربيع ، ومنه قول النابغة

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم ... والحامل الاصر عنهم بعدما عرفوا

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٥) الحديث رواه الامام مسلم ـ في كتاب الإيمان ٥٧ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا

ولهذا قال كثير من السلف والخلف : إنها منسوخة بقوله : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي وابن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي ، وابن زيد ، ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة ، بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم ، فيأخذ من يشاء ويغفر لمن يشاء ، كما نقل ذلك عن ابن عمر ، والحسن ، واختاره أبو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى ، وقالوا : هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ (1) .

= ما يطاق ، ٢٠٠ (١٢٦) حدثنا وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان مولى خالد قال : سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ [البقرة آية ٢٨٤] قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ـ ﷺ « **قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا** قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ قال : قد فعلت .

(1) قال الامام القرطبي بعد أن ذكر أقوال العلماء في ثلاث نقاط : الرابع : أنها محكمة عامة غير منسوخة والله محاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوا مما ثبت في نفوسهم ، وأضمروه ، ونووه وأرادوه ، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق ، ذكره الطبري عن قوم ، وأدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا . روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يقول : إني أخبركم بما اكننتم في أنفسكم فأما المؤمنون فيخبرهم ثم يغفر لهم ، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب فذلك قوله ﴿ **يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ وهو قوله : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ من الشك والنفاق وقال الضحاك : يعلمه الله يوم القيامة بما كان يسره ليعلم أنه لم يخف عليه وفي الخبر : إن الله تعالى يقول يوم القيامة ﴿ **هذا يوم تبلى فيه السرائر وتخرج الضمائر** ﴾ وأن كتابي « لم يكتبوا إلا ما ظهر من أعمالكم وأنا المطلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يخبروه ولا كتبوه فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه فاغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء » فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين ـ وهذا أصح ما في الباب يدل عليه حديث النجوي على ما يأتي : لا يقال فقد ثبت عن النبي ﷺ : « **إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به** » . فإنا نقول : ذلك محمول على أحكام الدنيا مثل الطلاق والعتاق والبيع التي لا يلزمه حكمها ما لم يتكلم به .

و« فصل الخطاب » . أن لفظ النسخ مجمل ، فالسلف كانـوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه ، من عموم أو إطلاق ، أو غير ذلـك ، كما قـال من قـال : إن قولـه : ﴿ **اتقوا الله حق تقـاته** ﴾ ﴿ **وجـاهدوا في الله حق جهـاده** ﴾ نسـخ بقولـه : ﴿ **فاتقـوا الله ما استـطعتم** ﴾ وليس بين الآيتين تناقض لكن قـد يفهم بعض النـاس من قولـه : ﴿ **حقَّ تقاتـه** ﴾ ﴿ **وحق جهاده** ﴾ الأمـر بمـا لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا ، كما ينسخ الله ما يلقى الشيـطان ويحكم الله آياته ، وإن لم يكن نسخ ذلك نسخ ما أنزله ، بل نسخ ما ألقاه الشيـطان ، إما من الأنفس أو من الأسماع أو من اللسان .

وكذلك ينسـخ الله ما يقـع في النفوس من فهم معنى ، وإن كـانت الآية لم تدل عليه لكنه محتمل ، وهذه الآية من هذا الباب ؛ فإن قوله :

﴿ **وإن تبـدوا مـا في أنفسكم أو تخفـوه** ﴾ الآيـة إنمـا تـدل على الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يعاقب على كل مـا في النفوس ، وقـوله : ﴿ **لمن يشـاء** ﴾ يقتضي أن الأمر إليـه في المغفرة والعـذاب لا إلى غيره ، ولا يقتضي أنه يغفر ويعذب بلا حكمة ولا عدل كما قد يظنه من يظنه من الناس ، حتى يجـوزوا أنه يعـذب على الأمر اليسيـر من السيئـات مـع كثـرة الحسنـات وعظمها ، وأن الرجلين اللذين لهما حسنات وسيئات يغفـر لأحدهمـا مع كثـرة سيئاته وقلة حسنـاته ويعـاقب الآخر على السيئـة الواحـدة مع كثـرة حسناتـه ، ويجعل درجة ذاك في الجنة فوق درجة الثاني . وهؤلاء يجوزون أن يعذب الله الناس بلا ذنب ، وأن يكلفهم ما لا يطيقـون ويعذبهم على تـركه ، والصحـابة إنما هربوا وخافوا أن يكون الأمر من هذا الجنس ، فقالوا : لا طاقة لنا بهذا ، فإنه إن كلفنا ما لا نطيق عذبنا فنسخ الله هـذا الظن ، وبين أنـه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون إنه يكلف العبد ما لا يطيقه ويعذبه عليه ، وهذا القول لم يعرف عن أحد من السلف والأئمة ؛ بل أقوالهم

تناقض ذلك حتى أن سفيان بن عيينة [1] سئل عن قوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ قال : إلا أيسرها، ولم يكلفها طاقتها ، قال البغوي : وهذا قول حسن ؛ لأن الموسع ما دون الطاقة وإنما قاله طائفة من المتأخرين لما ناظروا المعتزلة في « مسائل القدر » . وسلك هؤلاء مسلك الجبرى جهم[2] وأتباعه ، فقالوا هذا القول وصاروا فيه على مراتب ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

قال ابن الأنباري [3] في قوله :

﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه [4] .

قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ؛ فإن الرجل منهم يقول

---

(١) هو سفيان بن عيينه بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي ، من الموالي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة ، وتوفي بها عام ١٩٨ هـ قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز له الجامع في الحديث وكتاب في « التفسير » [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧] .

(٢) هو جهم بن صفوان أبو محرز رأس الجهمية قال الذهبي : الضال المبدع هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً ـ قبض عليه نصر بن سيار فطلب جهم استبقاءه فقال نصر : لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت وأمر بقتله فقتل عام ١٢٨ هـ .

(٣) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار قيل : كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد من القرآن ولد في الأنبار على الفرات عام ٢٧١ هـ وتوفي ببغداد عام ٣٢٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٥٠٣ ونزهة الألباب ٢٣٠ وبغية الوعاة ٩١ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٥٧]

(٤) قال قتادة : معناه لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا ، وقال الضحاك : لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق ، وقال نحوه ابن زيد ، وقال ابن جريج : لا تمسخنا قردة ولا خنازير ، وقال سلام بن سابور : الذي لا طاقة لنا به : الغلمة ، وحكاه النقاش عن مجاهد وعطاء ، وروى أبو الدرداء كان يقول في دعائه وأعوذ به من غلمة ليس لها عدة ، وقال السدي : هو التغليظ والأغلال التي كانت على بني اسرائيل .

للرجل ما أطيق النظر إليك وهو مطيق لذلك ، لكنه ثقيل عليه النظر إليه ، قال : ومثله قوله :

﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ [١]

قلت ليست هذه لغة العرب وحدهم ، بل هذا مما اتفق عليه العقلاء . و« الاستطاعة في الشرع » هي ما لا يحصل معه التكلف ضرر راجح كاستطاعة الصيام والقيام ، فمتى كان يزيد في المرض أو يؤخر البرء لم يكن مستطيعاً ، لأن في ذلك مضرة راجحة بخلاف هؤلاء فإنهم كانوا لا يستطيعون السمع لبغض الحق وثقله عليهم : إما حسداً لقائله ، وإما اتباعاً للهوى ورين [٢] الكفر والمعاصي على القلوب ، وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض ومَن فيهن .

والمقصود أن السلف لم يكن فيهم من يقول : إن العبد لا يكون مستطيعاً إلا في حال فعله ، وأنه قبل الفعل لم يكن مستطيعاً ، فهذا لم يأت الشرع به قط ، ولا اللغة ، ولا دلّ عليه عقل : بل العقل يدل على نقيضه كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والرب تعالى يعلم أن العبد لا يفعل الفعل مع أنه مستطيع له [٣] ،

---

(١) سورة هود آية رقم ٢٠ .

(٢) الرين : الطبع والدنس يقال : ران ذنبه على قلبه من باب باع قال أبو عبيد في قوله تعالى ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أي غلب وقال الحسن ـ رضي الله عنه : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

(٣) يقول ابن حزم : أما اللغة : فإن الاستطاعة إنما هي مصدر استطاع يستطيع استطاعة ، والمصدر : هو فعل الفاعل وصفته ، كالضرب الذي هو فعل الضارب والحمرة التي هي صفة الأحمر ، والاحمرار الذي هو صفة المحمر وما أشبه هذا ، والصفة والفعل عرضان بلا شك في الفاعل منا وفي الموصوف والمصادر هي احداث المسميين بالأسماء باجماع من أهل كل لسان ، فإذا كانت الاستطاعة في اللغة التي نتكلم بها نحن وهم إنما هي صفة في المستطيع

والمعلوم أنه لا يفعله ، ولا يريده لا أنه لا يقدر عليه ، والعلم يطابق المعلوم ، فالله يعلم ممن استطاع الحج والقيام والصيام أنه مستطيع ، ويعلم أن هذا مستطيع بفعل مستطاعه ، فالمعلوم هو عدم الفعل لعدم إرادة العبد ؛ لا لعدم استطاعته ، كالمقدورات له التي يعلم أنه لا يفعلها لعدم إرادته لها لا لعدم قدرته عليها ، والعبد قادر على أن يفعل ، وقد علم الله أنه لا يفعل مع القدرة ؛ ولهذا يعذبه لأنه إنما أمره بما استطاع لا بما لا يستطيع ، ومن لم يستطع لم يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم أن يكون قادراً على تغيير علم الله لأن الله علم أنه لا يفعل ، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله .

قيل : هذه مغالطة (١) ، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يلزم فيها تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه ؛ بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعرف علم الله إلا بما ظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بشيء بغير العلم ؛ بل هو قادر على فعل ما لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع .

= فبالضرورة تعلم أن الصفة هي غير الموصوف .

وإذن : فالاستطاعة عرض من الأعراض تقبل الأشد والأضعف فتقول استطاعة أشد من استطاعة ، واستطاعة أضعف من استطاعة وأيضاً فإن الاستطاعة لها ضد وهو العجز ، والأضداد لا تكون إلا أعراضاً وهذا كله أمر يعرف بالمشاهدة ولا ينكره إلا أعمى القلب .

(١) يقول ابن حزم : ويقال للمعتزلة أنتم تقرون معنا بأن الله تعالى لم يزل عليماً بأن كل كائن فإنه سيكون على ما هو عليه إذا كان ولم يزل الله تعالى يعلم أن فلاناً سيطأ فلانه في وقت كذا فتحمل منه بولد يخلقه الله تعالى من فيهما الخارج منهما عند جماعة إياها وأنه يعيش ثمانين سنة ويملك ويفعل ويصنع ، فإذا قلتم إن ذلك الفلان يقدر قدرة تامة على ترك ذلك الوطأ الذي لم يزل الله تعالى يعلم أنه سيكون وأنه يخلق ذلك الولد منه فقد قطعتم بأنه قادر على ابطال علم الله عز وجل ، وهذا كفر ممن اجازه .

وإذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل ليس الأمر كذلك ؛ بل العبد يقدر على وقوعه [1] ، وهو لم يوقعه ، ولو أوقعه ، لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فإذا وقع كان الله عالماً أنه سيقع ، وإذا لم يقع كان الله عالماً بأنه لا يقع البتة ، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة اثبات الملزوم بدون لازمه ، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال .

ومما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء إلا الرب ؛ فإن الأمور نوعان :

« نوع » علم الله أنه سيكون و« نوع » علم الله أنه لا يكون . فـ « الأول » لا بد من وقوعه . و« الثاني » لا يقع البتة ، فما علم الله أنه سيقع يعلم أنه يقع بمشيئته وقدرته ، وما علم أنه لا يقع يعلم أنه لا يشاؤه ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

---

(١) قال ابن حزم : وقد نص الله تعالى على ذلك بقوله : سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون إلى قوله : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

فأكذبهم الله تعالى في نفيهم عن أنفسهم الاستطاعة التي هي صحة الجوارح وارتفاع الموانع ثم نص تعالى على أنه قال : أقعدوا مع القاعدين وهذا أمر تكوين لا أمر بالقعود لأنه تعالى ساخط عليهم لقعودهم وقد نص تعالى على أنه « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » فقد ثبت يقيناً أنهم مستطيعون بظاهر الأمر بالصحة في الجوارح ، وارتفاع الموانع وأن الله تعالى كون فيهم قعودهم فبطل أن يتم استطاعتهم لخلاف فعلهم الذي ظهر منهم وقال عز وجل : من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

فبين عز وجل بياناً جلياً أن من أعطاه الهدى اهتدى ومن أضله فلا يهتدي فصح يقيناً أن بوقوع الهدى له من الله تعالى وهو التوفيق يفعل العبد ما يكون به مهتدياً » .

وأما « المعتزلة » فعندهم أنه يشاء ما لا يكون وما يكون ما لا يشاء ، وأولئك « المجبرة » في جانب ، وهؤلاء في جانب وأهل السنة وسط .

وما يفعل العباد باختيارهم يعلم سبحانه أنهم فعلوه بقدرتهم ومشيئتهم وما لم يفعلوه مع قدرتهم عليه يعلم أنهم لم يفعلوه لعدم إرادتهم له ، لا لعدم قدرتهم عليه ، وهو سبحانه الخالق للعباد ولقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وكل ذلك مقدور للرب ، وليس هذا مقدوراً بين قادرين بل القادر المخلوق هو وقدرته ومقدوره مقدور للخالق مخلوق له .

و« المقصود هنا » أن قوله تعالى :

﴿ وإنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله ﴾ [١] حق ، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه ، فمن فهم أن الله يكلف نفساً ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنّه ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه ، فقوله :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [٢] رد للأول ، وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [٣] رد للثاني ، وقوله : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٤] كقوله في آل عمران ﴿ وَلله مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٥] وقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٦] ونحو ذلك .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .
(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٢٩ .
(٦) سورة المائدة آية رقم ٤٠ .

وقد علمنا أنه لا يغفر أن يشرك به ، وأنه لا يعذب المؤمنين ، وأنه يغفر لمن تاب ، كذلك قوله : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ [1] الآية .

ودلت هذه الآية على أنـه سبحانـه يحاسب بمـا في النفوس ، وقـد قال عمـر : زنُوا أنفسكم قبـل أن تـوزنـوا ، وحـاسبـوا أنفسكم قبـل أن تحـاسبـوا و« المحاسبة » تقتضي أن ذلك يحسب ويحصي .

وأما « المغفرة والعـذاب » فقد دلّ الكتـاب والسنة على أن من في قلبـه الكفر وبغض الرسول وبغض ما جاء به أنه كافر بالله ورسوله وقد عفى الله لهذه الأمة ـ وهم المؤمنون حقـاً ، الذين لم يـرتابـوا ـ عما حـدثت به أنفسهـا ما لم تتكلم بـه أو تعمـل كمـا هـو في الصحيحين [2] من حـديث أبي هـريـرة وابن عباس ، وروي عن النبي ﷺ « أن الذي يهم بالحسنة تكتب لـه ، والذي يهم بـالسيئـة لا تكتب عليـه حتى يعملهـا » [3] إذا كـان مؤمنـاً من عـادتـه عمـل الحسنات وترك السيئات فإن ترك السيئة لله كتبت له حسنة ، فـإذا أبدى العبـد

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٢) روى الامـام البخاري في كتـاب الايمـان ١٥ والـطلاق ١١ والامـام مسلم في كتـاب الايمـان ٢٠١ ـ ٥٨ باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ٢٠١ ـ حدثنـا أبو عوانه عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ إن الله تجاوز لأمتي ما حـدثت به أنفسهـا ما لم يتكلمـوا أو يعملوا به » . ورواه ابن مـاجه في كتاب الطرق ١٤ باب من طلق في نفسه ولم يتكلم به بسنده عن أبي هريرة . وذكره .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ٣١ باب من هم بحسنـة أو سيئة ٦٤٩١ حـدثنا أبـو رجـاء العـطاردي عن ابن عبـاس ـ رضي الله عنهمـا عن النبي ﷺ ـ فيمـا يـروي عن ربـه عـز وجل . قال : قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كـاملة ، فإن هـو هم بها فعملهـا كتبها الله لـه عنده عشـر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة . وأخرجه الامـام مسلم في كتاب الايمـان ٥٩ باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، ٢٠٦ بسنده عن أبي هريـرة ، ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ٢٧٩ ، ٣١٠ ، ٣٦١ (حلبي)

ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب وإن أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الإيمان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقباً على ما أخفاه في نفسه من ذلك ؛ لأن ترك الإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به ، وأما إن كان وسواساً والعبد يكرهه فهذا صريح الإيمان ، كما هو مصرح به في الصحيح وهذه « الوسوسة » هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان ، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك فقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [1] .

و« الوسع » فعل بمعنى المفعول أي ما يسعه ، لا يكلفها ما تضيق عنه فلا تسعه ، وهو المقدور عليه المستطاع ، وقال بعض الناس : إن « الوسع » اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، وليس كذلك ؛ بل ما يسع الإنسان هو مباح له ، وما لم يسعه ليس مأموراً به ، فما يسعه قد يؤمر به ، وأما ما لا يسعه فهو المباح يقال : يسعني أن أفعل كذا ، ولا يسعني أن أفعل كذا ، والمباح هو الواسع ، ومن باحة الدار ، فالمباح لك أن تفعله هو يسعك ولا تخرج عنه ، ومنه يقال : رحم الله من وسعته السنة فلم يتعدها الى البدعة: أي فيما أمر الله به وما أباحه ما يكفي المؤمن المتبع في دينه ودنياه لا يحتاج أن يخرج عنه إلى ما نهى عنه . وأما ما كلفت به فهو ما أمرت بفعله ، وذلك يكون مما تسعه أنت لا مما يسعه هو ، وقد يقال : لا يسعني تركه ؛ بل تركه محرم وقد قال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [2]

وهو أول الحرام وقال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [3]

وهي آخر الحلال ، وقال :

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .
(2) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .
(3) سورة البقرة آية رقم ٢٢٩ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [1] .

وهذا التغيير نوعان :

(أحدهما) أن يبدو ذلك فيبقى قولاً وعملاً يترتب عليه الذم والعقاب و(الثاني) أن يغيروا الإيمان الذي في قلوبهم بضده من الريب والشك والبغض ، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله ، فيستحقون العذاب هنا على ترك المأمور ، وهناك على فعل المحظور .

وكذلك ما في النفس مما يناقض محبة الله والتوكل عليه والإخلاص له والشكر له يعاقب عليه ؛ لأن هذه الأمور كلها واجبة ، فإذا خلا القلب عنها واتصف بأضدادها استحق العذاب على ترك هذه الواجبات ، وبهذا التفصيل تزول شبه كثيرة ، ويحصل الجمع بين النصوص فإنها كلها متفقة على ذلك ، فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن قلوبهم ؛ بل أضمرت الكفر ، قال تعالى :

﴿ يَقُولُون بِألسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [2]

وقال : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [3]

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٥٣ إن هذه الآية : تقرر عدل الله في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها ، ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم التي يختارونها لأنفسهم .

(٢) سورة الفتح آية رقم ١١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠ .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١)

فالمنافق لا بد أن يظهر في قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره ، كما قال عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد قال تعالى عن المنافقين :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٢)

ثم قال : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (٣)

وهو جواب قسم محذوف أي : والله لتعرفهم في لحن القول !

فمعرفة المنافق في لحن القول لا بد منها ، وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة .

ولما كانت هذه الآية : ﴿ إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ (٤)

خبراً من الله : ليس فيها إثبات إيمان للعبد ، بخلاف الآيتين بعدها ، كما قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه » متفق عليه (٥) ، وهما قوله :

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٥) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي ١٢ باب ٣٩٩٦ ـ ٤٠٠٨ حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن ابراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن علقمة عن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه قال : وذكره . وفي فضائل القرآن ١٠ ، ٢٧ ، ٢٤ والامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٤٣ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة . بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد قال : لقيت أبا مسعود عند البيت : فقلت حديث بلغني عنك في الآيتين في سورة البقرة وذكره ، والترمذي في ثواب القرآن ٤ ، وابن

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] إلى آخرها .
وكلام السلف يوافق ما ذكرناه ، قال ابن عباس : هذه الآية لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم تطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله ﴾ [2]

يقول : يخبركم به الله ، وأما أهل الشرك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب وهو قوله :

﴿ يَغفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [3]

وقد روى عن ابن عباس : أنها نزلت في كتمان الشهادة ، وروى ذلك عن عكرمة والشعبي ، وكتمان الشهادة من باب ترك الواجب ، وذلك ككتمان العيب الذي يجب إظهاره ، وكتمان العلم الذي يجب إظهاره ، وعن مجاهد أنه الشك واليقين ، وهذا أيضاً من باب ترك الواجب ؛ لأن اليقين واجب ، وروي عن عائشة : ما أعْلَنت فإن الله يحاسبك به ، وأما ما أخفيت فما عجلت لك به العقوبة في الدنيا ، وهذا قد يكون مما يعاقب فيه العبد بالغمّ كما سئل سفيان بن عيينة عن غم لا يعرف سببه قال هو ذنب هممت به في سرك ولم تفعله فجزيت هما به .

فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، وروي عنها مرفوعاً قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ إنْ تُبْدُوا مَا فِي

= ماجه في إقامة الصلاة ١٨٣ باب ما جاء فيما يرجى أن يكفي من قيام الليل ١٣٦٨ ـ بسنده عن أبي مسعود . وذكره . والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١١٨ ١٢١ ، ١٢٢ (حلبي) .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٢٩ .

أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله ﴾ فقال يا عائشة : هذه مبايعة الله العبد مما يصيبه من النكبة والحمى ، حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيروع لها فيجدها في جيبه حتى أن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكبر »[1] قلت : هذا المرفوع هو والله أعلم بيان ما يعاقب به المؤمن في الدنيا وليس فيه أن كلما أخفاه يعاقب به ، بل فيه أنه إذا عوقب على ما أخفاه عوقب بمثل ذلك، وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة .

وقد روى الروياني في مسنده من طريق الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه العقوبة بذنبه حتى يوافيه بها يوم القيامة »[2] وقد قال تعالى :

﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِالله غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ٢٩٩١ ـ حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا الحسن بن موسى ، وروح بن عبادة عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أمية أنها سألت عائشة عن قول الله تعالى : **﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾** وعن قوله : **﴿ من يعمل سوء يجز به ﴾** فقالت : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : وذكره ، وأخرجه الامام أحمد في المسند ٦ : ٢١٨ (حلبي)

(٢) ورواه أيضاً الترمذي في كتاب الزهد ٥٦ باب ما جاء في الصبر على البلاء ٢٣٩٦ ـ حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره .

قال الترمذي : وبهذا الاسناد عن النبي ـ ﷺ ـ قال : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا ، قُلْ : لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُم وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [١] .

فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظناً ينافي اليقين بالقدر ، وظناً ينافي بأن الله ينصر رسوله ، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك ، وظن الجاهلية ، ومثل هذا كثير .

ومما يدخل في ذلك نيات الأعمال ، فإنما الأعمال بالنيات [٢] ، وإنما لكل امرىء ما نوى . و« النية » هي مما يخفيه الإنسان في نفسه ، فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب كما قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّين الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُون ﴾ [٣] وقال :

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [٤] وفي حديث

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ١ باب كيف بدء الوحي الى رسول الله ـ ﷺ ـ حدثنا الحميدي عبد الله بن الزبير ، قال : حدثنا سفيان قال : حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري ، قال أخبرني محمد بن ابراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول : سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه على المنبر قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
وفي إيمان ٤١ وكتاب النكاح ٥ والطلاق ١١ ومناقب الانصار ٤٥ والعتق ٦ ورواه الامام مسلم في كتاب الامارة ٤٥ باب قوله ـ ﷺ ـ إنما الأعمال بالنية » ١٥٥ (١٩٠٧) حدثنا مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن ابراهيم عن علقمة بن وقاص عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكره وأبو داود في الطلاق ١١ والترمذي في فضائل الجهاد ١٦ والنسائي في الطهارة ٥٩ والطلاق ٢٤ وابن ماجه في الزهد ٢٦ باب النية بسنده عن علقمة بن وقاص أنه سمع عمر ابن الخطاب وهو يخطب الناس فقال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٥ (حلبي) .

(٣) سورة الماعون آية رقم ٤ ـ ٦ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٤٢ .

أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم وعلم ليقال : عالم قارىء والذي قاتل ليقال جرىء وشجاع والذي تصدق ليقال جواد كريم » [1] فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم ؛ لم يقصدوا بذلك وجه الله وإن كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ، فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما في الحديث : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار » [2] وفي الحديث الآخر :

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ٤٨ باب ما جاء في الرياء والسمعة ٢٣٨٢ - حدثنا سويد بن نصر ، أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا حيوة بن شريح ، أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفيا الأصبحي حدثه أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال : من هذا فقالوا أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سكت وخلا قلت له أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله - ﷺ - عقلته وعلمته فقال أبو هريرة أفعل لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله - ﷺ - علقته وعلمته . وذكره .

وقال الوليد أبو عثمان : فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا : قال أبو عثمان - وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس . . ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر ثم أفاق معاوية ومسح على وجهه وقال : صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٢) روى ابن ماجه بسنده عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - وذكره .

في الزوائد : اسناده ضعيف لضعف حماد وأبي كرب .

أما الحديث الآخر الذي رواه في المقدمة ٢٣ باب الانتفاع بالعلم والعمل به ٢٥٤ - حدثنا ابن أبي مريم أنبأنا يحيى بن أيوب عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله - أن النبي - ﷺ - قال : لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » . .

في الزوائد : رجال اسناده ثقات ، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم مرفوعاً وموقوفاً .

« من طلب علماً مما يبتغي به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » (١) .

وفي « الجملة » القلب هو الأصل ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك الأعضاء ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده ، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه وأن النبي ﷺ قال : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » (٢) فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده ، فيكون هذا مما أبداه لا مما أخفاه .

وكلما أوجبه الله على العباد لا بد أنه يجب على القلب فإنه الأصل وإن وجب على غيره تبعاً ، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه ، وإنما يقصد الطاعة والامتثال القلب ، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة والزكاة والصيام ، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر ، وقصد الامتثال كان أول المعصية منه ؛ بل كان هو العاصي

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٣ باب الانتفاع بالعلم والعمل به ٢٥٢ حدثنا يونس ابن محمد ، وسريج بن النعمان قالا : حدثنا فليح بن سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ، أبي طوالة ، عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه [لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها] بدلاً من (لم يرح رائحة الجنة) .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه ٥٢ حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل مسلك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغه الخ . ورواه الامام مسلم في كتاب المساقاة ٢٠ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٠٧ (١٥٩٩) بسنده عن النعمان بن بشير وذكره ، ورواه ابن ماجه في ٣٦ - كتاب الفتن ١٤ - باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ - بسنده عن النعمان بن بشير يقول على المنبر وأهوى باصبعه الى أذنيه . سمعت رسول الله - ﷺ - يقول - وذكره .

وغيره تبع له في ذلك ؛ ولهذا قال في حق الشقي : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (١) الآيات ، وقال في حق السعداء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٢) في غير موضع ، والمأمور نوعان :

« نوع » هو عمل ظاهر على الجوارح ، وهذا لا يكون إلا بعلم القلب وإرادته فالقلب هو الأصل فيه ، كالوضوء والاغتسال وكأفعال الصلاة : من القيام ، والركوع ، والسجود ، وأفعال الحج : من الوقوف ، والطواف ، وإن كانت أقوالاً فالقلب أخص بها ، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله ، أو بما يقول ويقصده .

ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده ، فأما المجنون والطفل الذي لا يميز فأقواله كلها لغو في الشرع لا يصح منه إيمان ولا كفر ، ولا عقد من العقود ، ولا شيء من الأقوال باتفاق المسلمين ، وكذلك النائم إذا تكلم (٣) في منامه فأقواله كلها لغو سواء تكلم المجنون والنائم بطلاق أو كفر أو غيره ، وهذا بخلاف الطفل فإن المجنون والنائم إذا أتلف ما لا ضمنه ، ولو قتل نفساً وجبت ديتها كما تجب دية الخطأ .

وتنازع العلماء في السكران مع اتفاقهم أنه لا تصح لقوله ﷺ : « مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » وفرقوا بينهم في المضاجع » (٤) وهو معروف في السنن .

---

(١) سورة القيامة آية رقم ٣١ - ٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٧٧ .

(٣) روى الامام أحمد في المسند ١ : ١٤٠ حدثنا سعيد ، عن قتادة عن الحسن أن عمر بن الخطاب أراد أن يرجم مجنونة فقال له علي . . مالك ذلك . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الطفل حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يبرأ أو يعقل فأدرأ عنها عمر - رضي الله عنه .

(٤) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ١٨٠ ، ١٨٧ - ورواه أبو داود في كتاب الصلاة

وتنازعوا في عقود السكران كطلاقه ، وفي أفعاله المحرمة ، كالقتل والزنا هل يجري مجرى العاقل ، أو مجرى المجنون ، أو يفرق بين أقواله وأفعاله وبين بعض ذلك وبعض ؟ على عدة أقوال معروفة .

والذي تدل على النصوص والأصول وأقوال الصحابة : أن أقواله هدر ـ كالمجنون ـ لا يقع بها طلاق ولا غيره ؛ فإن الله تعالى قد قال : ﴿ **حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ [1] فدل على أنه لا يعلم ما يقول ، والقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والأفعال عنه ، فإذا لم يعلم ما يقول لم يكن ذلك صادراً عن القلب ؛ بل يجري مجرى اللغو [2] ، والشارع لم يرتب المؤاخذة إلا على ما يكسبه القلب من الأقوال والأفعال الظاهرة كما قال : ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ [3] ولم يؤاخذ على أقوال وأفعال لم يعلم بها القلب ولم يتعمدها ، وكذلك ما يحدث به المرء نفسه لم يؤاخذ منه إلا بما قاله أو فعله ، وقال قوم : إن الله قد أثبت للقلب كسباً فقال : ﴿ **بما كسبت قلوبكم** ﴾ فليس لله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة في جوارحه ، أو هم في قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه ، ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

واحتجوا بقوله تعالى :

= باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ٤٩٥ ـ حدثنا مؤمل بن هشام ـ يعني اليشكري ـ حدثنا إسماعيل عن سوار أبي حمزة ، قال أبو داود ، وهو سوار بن داود أبو حمزة المزني الصيرفي عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه عن جده ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(١) سورة النساء آية رقم ٤٣ .

(٢) اللغو واللغا : كفتى ، واللغوي : السقط ، وما لا يعتد به من الكلام وغيره .
وقوله تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو** ﴾ أي ما لا عقد عليه ومن هذا أخذ الشاعر :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ... إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

وقال تعالى : ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً** ﴾ أي قبيحاً من الكلام .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ .

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [1] وهذا القول ضعيف شاذ ؛ فإن قوله :

﴿ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [2]

إنما ذكره لبيان أنه يؤاخذ في الأعمال بما كسب القلب لا يؤاخذ بلغو الإيمان ، كما قال : ﴿ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ ﴾ [3]

فالمؤاخذة لم تقع إلا بما اجتمع فيه كسب القلب مع عمل الجوارح ، فأما ما وقع في النفس ؛ فإن الله تجاوز عنه ما لم يتكلم به أو يعمل ، وما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب وعلمه فإنه لا يؤاخذ به .

و« أيضاً » فإذا كان السكران لا يصح طلاقه والصبي المميز تصح صلاته ثم الصبي لا يقع طلاقه فالسكران أولى ، وقد قال النبي ﷺ « لماعز » لما اعترف بالحد : « أبكَ جنون [4] ؟ قال: لا » ، ثم أمر باستنكاهه لئلا يكون سكران ، فدل على إن إقرار السكران باطل ، وقضية ماعز متأخرة بعد تحريم الخمر ، فإن الخمر حرمت سنة ثلاث بعد أُحد باتفاق الناس ، وقد ثبت عن

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٨٩ .

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الحدود ٥ باب من اعترف على نفسه بالزنى ٢٢ (٩٥ ١٦) حدثنا يحيى بن يعلى (وهو ابن الحارث المحاربي) عن غيلان (وهو ابن جامع المحاربي) عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال : جاء ماعز بن مالك الى النبي ـ ﷺ ـ فقال يا رسول الله طهرني . فقال ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله طهرني . فقال رسول الله ـ ﷺ : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه قال : فرجع غير بعيد . حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ـ ﷺ : فيم أطهرك . . ؟ فقال من الزنى فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ أبه جنون . . ؟ الخ . ورواه أبو داود في كتاب الحدود ٤٤٢١ ـ حدثنا أبو كامل ، ثنا يزيد بن زريع ، ثنا خالد ـ يعني الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس وذكره .

عثمان وغيره من الصحابة كعبد الله بن عباس أن طلاق السكران لا يقع ، ولم يثبت عند صحابي خلافه .

والذين أوقعوا طلاقه لم يذكروا إلا مأخذاً ضعيفاً ، وعمدتهم أنه عاص بإزالة عقله ، وهذا صحيح يوجب عقوبته على المعصية التي هي الشرب فيحد على ذلك ، وأما الطلاق فلا يعاقب به مسلم على المعصية ، ولو كان كذلك لكان كل من شرب الخمر أو سكر طلقت امرأته وإنما قال مَن قال : إذا تكلم به طلقت، فهم اعتبروا كلامه لا معصيته ، ثم إنه في حال سكره قد يعتق ، والعتق قربة ، فإن صححوا عتقه بطل الفرق ، وإن ألغوه فإلغاء الطلاق أولى ، فإن الله يحب العتق ولا يحب الطلاق . ثم من علل ذلك بالمعصية لزمه طرد ذلك فيمن زال عقله بغير مسكر كالبنج ، وهو قول من يسوي بين البنج والسكران من أصحاب الشافعي وموافقيه كأبي الخطاب [(١)] ، والأكثرون على الفرق ، وهو منصوص أحمد وأبي حنيفة وغيرهما ؛ لأن الخمر تشتهيها النفس وفيها الحد ؛ بخلاف البنج فإنه لا حدَّ فيه ؛ بل فيه التعزير [(٢)] ، وعامة العلماء على أنه لا حدّ فيها إلّا قولا نقل عن الحسن ، فهذا فيمن زال عقله .

وأما إذا كان يعلم ما يقول ، فإن كان مختاراً قاصداً لما يقوله فهذا هو الذي يعتبر قوله ، وإن كان مكرهاً فإن أكره على ذلك بغير حق فهذا عند جمهور العلماء أقواله كلها لَغْو ، مثل كفره ، وإيمانه ، وطلاقه وغيره ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

---

(١) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني أبو الخطاب ، إمام الحنبلية في عصره ، أصله من كلواذي (من ضواحي بغداد)مولده عام ٤٣٢ هـ ووفاته عام ٥١٠ هـ ببغداد من كتبه « التمهيد في أصول الفقه » « والانتصار في المسائل الكبار » و« عقيدة أهل الأثر » وغير ذلك [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ ومخطوطات رباط الفتح ١ : ١٤١] .

(٢) التعزير : هو تأديب دون الحد ، وأصله من العزر ، وهو المنع [راجع التعريفات للجرجاني ٥٥] .

وأبو حنيفة وطائفة يفرقون بين ما يقبل الفسخ وما لا يقبله ، قالوا : فما يقبل الفسخ لا يلزم من المكره كالبيع ؛ بل يقف على إجازته له ، وما لا يقبل الفسخ كالنكاح والطلاق واليمين فإنه يلزم من المكره . والجمهور ينازعون في هذا الفرق : في ثبوت الوصف ، وفي تعلق الحكم به ؛ فإنهم يقولون : النكاح ونحوه يقبل الفسخ ، وكذلك العتق يقبل الفسخ عند الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد ، حتى إن المكاتب قد يحكمون بعتقه ثم يفسخون العتق ويعيدونه عبداً ، والإيمان المنعقدة تقبل التحلة ، كما قال تعالى :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ (١)

وبسط الكلام على هذا له موضع آخر .

و« المقصود هنا » إن القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال فما أمر الله به من الأفعال الظاهرة فلا بدّ فيه من معرفة القلب وقصده وما أمر به من الأقوال وكل ما تقدم ، والمنهي عنه من الأقوال والأفعال إنما يعاقب عليه إذا كان بقصد القلب ، وأما ثبوت بعض الأحكام كضمان النفوس والأموال إذا أتلفها مجنون أو نائم أو مخطىء أو ناس فهذا من باب العدل في حقوق العباد ، ليس هو من باب العقوبة .

فالمأمور به كما ذكرنا « نوعان » نوع ظاهر على الجوارح ، ونوع باطن في القلب . « النوع الثاني » ما يكون باطناً في القلب كالإخلاص وحب الله ورسوله والتوكل عليه والخوف منه ، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به

---

(١) سورة التحريم آية رقم ٢ .

وتحلة اليمين الاستثناء ، أي فرض الله لكم الاستثناء المخرج عن اليمين ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الايمان متى شاء وإن تحلل مدة وعند المعظم لا يجوز إلا متصلاً فكأنه قال : استثن بعد هذا فيما تحلف عليه ، وتحلة اليمن : تحليلها بالكفارة ، والأصل تحللة فأدمغت ، وتفعله من مصادر فعّل كالتسمية والتوصية ، فالتحلة تحليل اليمين فكأن اليمين عقد والكفارة حل ، وقيل : التحلة : الكفارة أي أنها تحل للحالف ما حرم على نفسه .

الرسول ، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فإنه محله ، وهذا النوع هو أصل النوع الأول ، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول ، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له لا يتم شيء من المأمور به ظاهراً إلا بها ، وإلا فلو عمل أعمالاً ظاهرة بدون هذه كان منافقاً ، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالاً ظاهرة توافقها ، وهي أشرف من فروعها كما قال تعالى :

﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [1]

وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعته أعظم إثماً من أعمال ظاهرة خالية عن هذا كالقتل والزنا والشرب والسرقة وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة : كالسجود للأوثان ، وسب الرسول ونحو ذلك فإنما ذلك لكونه مستلزماً لكفر الباطن ، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً ، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله ، كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب

---

(١) سورة الحج آية رقم ٣٧ .

والتقوى وردت في القرآن على وجوه :

١ - بمعنى الخشية : قال تعالى في سورة النساء ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ يعني اخشو ربكم .

٢ - بمعنى اعبدوا : قال تعالى في سورة النحل : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ يعني فاعبدون .

٣ - بمعنى لا تعصوا : قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله ﴾ يعني فلا تعصوه فيما أمركم به .

٤ - بمعنى وحدوا : قال تعالى : في سورة النساء ﴿ اتقوا الله ﴾ يعني وحدوا الله . وفي سورة الحجرات ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ يعني الاخلاص ، وقوله تعالى في سورة الحج ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ يعني من إخلاص القلوب .

فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين حتى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا على يديه ، ولم يظهر منافرتهم في أول الأمر .

وهنا « أصول » تنازع الناس فيها ، منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟ فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح ، فمن قال : إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن وإنما هو كافر . وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، وهذا باطل شرعاً وعقلاً كما قد بسط في غير هذا الموضع . وقد كفر السلف كوكيع [1] وأحمد وغيرهما من يقول بهذا القول ، وقد قال النبي ﷺ : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » [2] . فبين إن صَلَاح

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي أبو سفيان ، حافظ للحديث ثبت كان محدث العراق في عصره ، ولد بالكوفة وأبوه ناظر على بيت المال فيها وتفقه وحفظ الحديث واشتهر وأراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة فامتنع ورعاً ، وكان يصوم الدهر توفي عام ١٩٧ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٨٢ وحلية الأولياء ٨ : ٣٦٨ ومفتاح السعادة ٢ : ١١٧]

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الامام مسلم في كتاب المساقاة ٢٠ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٠٧ ـ حدثنا زكرياء عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير قال سمعته يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ يقول : وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه « إن الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله محارمه وذكره .

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ مسلم . وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٧٠ ، ٢٧٤ وعند الدارمي في البيوع (١)

القلب مستلزم لصلاح الجسد ، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح ، والقلب المؤمن صالح ، فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمناً ، حتى إن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلا بد أن يتكلم مع نفسه وفي السر مع مَن يَأمَن إليه .

ولا بد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، كما قال عثمان ، وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان .

وذلك أن الجسد تابع للقلب فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجوه ، وإن لم يظهر كل موجبه لمعارض فالمقتضى لظهور موجبه قائم ؛ والمعارض لا يكون لازماً للإنسان لزوم القلب له ؛ وإنما يكون في بعض الأحوال متعذراً إذا كتم ما في قلبه كمؤمن آل فرعون [1] ، مع أنه قد دعى إلى الإيمان دعاء ظهر به من إيمان قلبه ما لا يظهر من إيمان من أعلن إيمانه بين موافقيه وهذا في معرفة القلب وتصديقه .

ومنها قصد القلب وعزمه إذا قصد الفعل وعزم عليه مع قدرته على ما قصده هل يمكن أن لا يوجد شيء مما قصده وعزم عليه ؟ فيه قولان أصحهما أنه إذا حصل القصد الجازم مع القدرة وجب وجود المقدور وحيث لم يفعل

---

(١) المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، قال السدي : كان ابن عم فرعون ، ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام واختاره ابن جرير ، وورد قول من ذهب الى أنه كان اسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان اسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم ، وقال ابن جرير : عن ابن عباس - رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال : **﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾** .

قال تعالى : **﴿ وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾** .

العبد مقدوره دل على أنه ليس هناك قصد جازم وقد يحصل قصد جازم مع العجز عن المقدور لكن يحصل معه مقدمات المقدور ، وقيل : بل قد يمكن حصول العزم التام بدون أمر ظاهر . وهذا النظيرقول من قال ذلك في المعرفة والتصديق ، وهما من أقوال أتباع جهم الذين نصروا قوله في الإيمان ، كالقاضي أبي بكر وأمثاله فإنهم نصروا قوله وخالفوا السلف والأئمة وعامة طوائف المسلمين . وبهذا يتفصل النزاع في « مؤاخذة العبد بالهمة » فمن الناس : من قال : يؤاخذ بها إذا كانت عزماً ، ومنهم من قال : لا يؤاخذ بها ، والتحقيق : إن الهمة إذا صارت عزماً فلا بدّ أن يقترن بها قول أو فعل ؛ فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور .

والذين قالوا : يؤاخذ بها احتجوا بقوله « إذا التقى الجمعان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » [1] . الحديث ، وهذا لا حجة فيه ؛ فإنه ذكر ذلك في رجلين اقتتلا ، كل منهما يريد قتل الآخر ، وهذا ليس عزماً مجرداً ؛ بل هو عزم مع فعل المقدور ، لكنه عاجز عن إتمام مراده ، وهذا يؤاخذ باتفاق المسلمين ، فمن اجتهد على شرب الخمر وسعى في ذلك بقوله وعمله ثم عجز فإنه آثمٌ باتفاق المسلمين ، وهو كالشارب وإن لم يقع منه شرب ، وكذلك من اجتهد على الزنا والسرقة ونحو ذلك بقوله وعمله ثم عجز فهو آثم كالفاعل ، ومثل ذلك في قتل النفس وغيره ، كما جعل الداعي الى الخير له مثل أجر المدعو ووزره لأنه أراد فعل المدعو ، وفعل ما يقدر عليه ، فالإرادة الجازمة ، مع فعل المقدور من ذلك ، فيحصل له مثل أجر الفاعل ووزره وقد

---

(١) الحديث رواه النسائي في التحريم ٢٩ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١١ باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما ٣٩٦٤ ـ حدثنا يزيد بن هارون عن سليمان التيمي وسعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن عن أبي موسى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » . قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول . .؟ قال : إنه أراد قتل صاحبه .

في الزوائد : اسناده صحيح ورجاله ثقات .

قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ [1] الآية .

وفصل الخطاب في الآية أن ﴿ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ نوعان :

نوع لهم عزم تام على الجهاد ولو تمكنوا لما قعدوا ولا تخلفوا وإنما أقعدهم العذر ، فهو كما قال النبي ﷺ : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم سيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » [2] . وهم أيضاً كما قال في حديث أبي كبشة الأنماري « هما في الأجر سواء » [3] . وكما في حديث أبي موسى « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » [4] . فأثبت له مثل ذلك العمل ؛ لأن عزمه تام وإنما منعه العذر .

و(النوع الثاني) من ﴿ أولي الضرر ﴾ الذين ليس لهم عزم على الخروج ، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولوا الضرر العازمون عزماً جازماً على الخروج ، وقوله تعالى : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ [5] سواء كان استثناء أو صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين في نفي الاستواء ، فإذا

---

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٣٥ باب من حبسه العذر عن الغزو ٢٨٣٩ - حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد هو ابن زيد عن حميد عن أنس - رضي الله عنه - وذكره ، وكتاب المغازي ٨١ وأبو داود في الجهاد ١٩ وابن ماجه في كتاب الجهاد ٦ باب من حبسه العذر عن الجهاد ٢٧٦٤ بسنده عن أنس بن مالك . وذكره . والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٣٠٠ .

(٣) (٤) روى الامام أحمد في المسند ٤ : ٤١٠ - حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا يزيد قال أنبأنا العوام بن حوشب ثنا ابراهيم بن اسماعيل السكسكي أنه سمع أبا بردة بن أبي موسى واصطحب هو ويزيد بن أبي كبشة في سفر وكان يزيد يصوم فقال له أبو بردة سمعت أبا موسى مراراً يقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٥) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

فصل الأمر فيهم بين العازم وغير العازم بقيت الآية على ظاهرها ، ولو جعل قوله :

﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ (١)

عاماً في أهل الضرر وغيرهم لكان ذلك مناقضاً لقوله : ﴿ **غير أولي الضرر** ﴾ فإن قوله : ﴿ **لا يستوي القاعدون** ﴾ ﴿ **والمجاهدون** ﴾ إنما فيها نفي الاستواء ؛ فإن كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله : ﴿ **غير أولي الضرر** ﴾ ، ولزم أنه لا يساوي المجاهدين قاعد ولو كان من أولي الضرر ، وهذا خلاف مقصود الآية .

و« أيضاً » فالقاعدون إذا كانوا من غير أولي الضرر ، والجهاد ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم ؛ فإنه لا حرج عليهم في القعود بل هم موعودون بالحسنى كأولي الضرر وهذا مثل قوله : ﴿ **لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أنفقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ** ﴾ (٢) الآية . فالوعد بالحسنى شامل لأولي الضرر وغيرهم .

فإن قيل : قد قال في الأولى في فضلهم ﴿ **درجة** ﴾ ، ثم قال في فضلهم ﴿ **دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً** ﴾ (٣)

كما قال : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥ .
(٢) سورة الحديد آية رقم ١٠ .
(٣) سورة النساء آية رقم ٩٦ .
(٤) سورة التوبة آية رقم ١٩ .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ [(١)] .

فقوله : ﴿ أعظم درجة ﴾ كما قال في السابقين ﴿ أعظم درجة ﴾ وهذا النصب على التمييز: أي درجتهم أعظم درجة ، وهذا يقتضي تفضيلاً مجملاً يقال : منزلة هذا أعظم وأكبر ، كذلك قوله : ﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [(٢)] الآيات : ليس المراد به أنهم لم يفضلوا عليهم إلا بدرجة ، فإن في الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد وأبو هريرة : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كمّا بين السماء والأرض » [(٣)] الحديث .

وفي حديث أبي سعيد : « من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة ، فعجب لها أبو سعيد فقال رسول الله ﷺ : وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فقال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » [(٤)]

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٩٥ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٤ باب درجات المجاهدين في سبيل الله حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه وذكره وفيه ﴿ **فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة** ﴾ أراه قال : ﴿ **وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة** ﴾ ورواه الترمذي في كتاب صفة الجنة ٤ باب ما جاء في صفة درجات الجنة ٢٥٢٩ بسنده عن أبي هريرة .

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الامارة ٣١ باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهدين في الجنة من الدرجات ١١٦ (١٨٨٤) حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثني أبو هانيء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وذكره . ورواه أبو داود في الوتر ٢٦ ، والنسائي في الجهاد ١٨ .

فهذا الحديث الصحيح بين أن المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير أولي الضرر مائة درجة ، وهو يبطل قول من يقول : إن الوعد بالحسنى والتفضيل بالدرجة مختص بأولي الضرر ، فهذا القول مخالف للكتاب والسنة . وقد يقال : إن ﴿ درجة ﴾ منصوب على التمييز كما قال أعظم درجة أي فضل درجتهم على درجتهم أفضل كما يقال : فضل هذا على هذا منزلاً ومقاماً ، وقد يراد (بالدرجة) جنس الدرج ، وهي المنزلة والمستقر لا يراد به درجة واحدة من العدد ، وقوله :

﴿ وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ ﴾ (١) منصوب (بفضَّل) لأن التفضيل زيادة للمفضل ، فالتقدير زادهم عليهم أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة ، فهذا النزاع في العازم الجازم إذا فعل مقدوره هل يكون كالفاعل في الأجر والوزر أم لا ؟ وأما في استحقاق الأجر والوزر فلا نزاع في ذلك ، وقوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » (٢) فيه حرص كل واحد منهما على قتل صاحبه وفعل مقدوره ، فكلاهما مستحق للنار ويبقى الكلام في تساوي القعودين بشيء آخر .

وهكذا حال المقتتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم ، فلا تكون عاقبتهما إلا عاقبة سوء الغالب والمغلوب ، فإنه لم يحصل له دنيا ولا آخرة ، كما قال الشعبي (٣) : أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة

---

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥ ـ ٩٦ وصدر الآية ﴿ **فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة** ﴾ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث فليرجع إليه في هذا الجزء من التفسير .

(٣) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو من التابعين يضرب به المثل بحفظه ولد عام ١٩ هـ بالكوفة ومات سنة ١٠٣ هـ بالكوفة اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه وسميره ورسوله الى ملك الروم وهو من رجال الحديث الثقات . [راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٦٥ والوفيات ١ : ٢٤٤ وحلية الأولياء ٤ : ٢١٠ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ١٣٨] .

أشقياء ، وأما الغالب فإنه يحصل له حظ عاجل ثم ينتقم منه في الآخرة ، وقد يعجل الله له الانتقام في الدنيا ، كالغالبين في الحرة [1] وفتنة أبي مسلم الخراساني [2] ونحو ذلك . وأما من قال : إنه لا يؤاخذ بالعزم القلبي فاحتجوا بقوله ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها » [3] وهذا ليس فيه أنه عاف لهم عن العزم ، بل فيه أنه عفا عن حديث النفس إلى أن يتكلم أو يعمل ، فدل على أنه ما لم يتكلم أو يعمل لا يؤاخذ ؛ ولكن ظن من ظن أن ذلك عزماً وليس كذلك ؛ بل ما لم يتكلم أو يعمل لا يكون عزماً : فإن العزم لا بد أن يقترن به المقدور ، وإن لم يصل العازم إلى المقصود ، فالذي يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزماً جازماً لا بد أن يتحرك ولو برأسه ، أو بمسن أو يأخذ آلة ، أو يتكلم كلمة ، أو يقول أو يفعل شيئاً ، فهذا كله ما يؤاخذ به كزنا العين واللسان والرجل ، فإن هذا يؤاخذ به ، وهو من مقدمات الزنا التام بالفرج ، وإنما وقع العفو عما ما لم يبرز خارجاً بقول أو فعل ولم يقترن به أمر ظاهر قط ، فهذا يعفى عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به ، سواء كان المأمور به في القلب وموجه في الجسد أو كان

---

(١) موقعة الحرة معروفة في كتب التاريخ وذلك عندما استباح أحد القادة من المسلمين مدينة الرسول ـ ﷺ ـ وعمل في أهلها القتل والتعذيب .

(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم : مؤسس الدولة العباسية ، وأحد كبار القادة قال الذهبي : كان ذا شأن عجيب ، شاب دخل خراسان ابن تسع عشرة سنة على حمار بإكاف وخرمة وعرمة فما زال يتنقل حتى خرج من مرو بعد عشر سنين يقود كتائب أمثال الجبال فقلب دولة ، وأقام دولة وذلت له رقاب الأمم وراحت تحت سيفه ستمائة ألف أو يزيدون توفي عام ١٣٧ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٢٨٠ وابن الأثير ٥ : ١٧٥ والطبري ٩ : ١٥٩]

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٨ باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ٢٠١ ـ حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة وذكره ورواه الامام البخاري في كتاب الايمان ١٥ ، والطلاق ١١ والترمذي في الطلاق ٨ وتفسير سورة ٢ : ٣٧ وابن ماجه في الطلاق ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٥ ، ٣٩٣ ، ٤٢٥ ، ٤٧٤ .

المأمور به ظاهراً في الجسد وفي القلب معرفته وقصده ، فهؤلاء إذا حدثوا أنفسهم بشيء كان عفواً مثل همٍّ ثابت بلا فعل ، ومثل الوسواس الذي يكرهونه وهم يثابون على كراهته ، وعلى ترك ما هموا به وعزموا عليه لله تعالى وخوفاً منه .

وقال الشيخ رحمه الله تعالى :
في خواتيم سورة البقرة

أعلم أن الله سبحانه وتعالى أعطى نبيه محمداً ﷺ وبارك ، خواتيم (سورة البقرة) من كنز تحت العرش [١] لم يؤت منه نبي قبله ، ومن تدبر هذه الآيات وفهم ما تضمنته من حقائق الدين ، وقواعد الإيمان الخمس ، والرد على كل مبطل ، وما تضمنته من كمال نعم الله تعالى على هذا النبي ﷺ وأمته ، ومحبة الله سبحانه لهم ، وتفضيله إياهم على من سواهم ، فاليهنه العلم ، ولو ذهبنا نستوعب الكلام فيها لخرجنا عن مقصود الكتاب ، ولكن لا بدّ من كليمات يسيرة تشير إلى بعض ذلك فنقول :

لما كانت (سورة البقرة) سنام القرآن ، وأكثر سوره أحكاماً وأجمعها لقواعد الدين : أصوله وفروعه ، وهي مشتملة على ذكر « أقسام الخلق » : المؤمنين والكفار ، والمنافقين ، وذكر أوصافهم وأعمالهم .

وذكر الأدلة الدالة على إثبات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى وحدانيته وذكر نعمه ، وإثبات نبوة رسوله ﷺ وتقرير المعاد ، وذكر الجنة والنار ، وما فيهما من النعيم والعذاب .

ثم ذكر تخليق العالم العلوي والسفلي .

---

(١) رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٥١ ـ حدثنا جرير عن منصور عن ربعي بن حراش عمن حدثه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ـ ﷺ « أني أوتيتهما من كنز من بيت تحت العرش ولم يؤتهما نبي قبلي يعني الآيتين من آخر سورة البقرة » .

ثم ذكر خلق آدم عليه السلام [١] ، وإنعامه عليه بالتعليم وإسجاد ملائكته له وإدخاله الجنة ، ثم ذكر محنته مع إبليس ، وذكر حسن عاقبة آدم عليه السلام ثم ذكر « المناظرة » مع أهل الكتاب من اليهود ، وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم ثم ذكر النصارى والرد عليهم ، وتقرير عبودية المسيح ، ثم تقرير النسخ ، والحكمة في وقوعه .

ثم بناء البيت الحرام [٢] وتقرير تعظيمه ، وذكر بانيه والثناء عليه ، ثم تقرير الحنيفية ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتسفيه من رغب عنها ووصية نبيه بها ، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى آخر السورة ، فختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة ، فقال تعالى :

﴿ لله مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأرْضِ ، وَإنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٣] .

فأخبر تعالى أن ما في السموات وما في الأرض ملكه وحده لا يشاركه فيه مشارك وهذا يتضمن انفراده بالملك الحق والملك العام لكل موجود ، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته وتوحيد إلهيته ، فتضمن نفي الولد والصاحبة والشريك لأن ما في السموات وما في الأرض إذا كان ملكه وخلقه لم يكن له فيهم ولد ولا صاحبة ولا شريك [٤] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ سورة البقرة آية رقم ١٢٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٤) راجع ما يأتي بعد ذلك من الآيات فإنها تدل على ذلك وأيضاً قول الله تعالى : ﴿ وقالت =

وقد استدلّ سبحانه بعيد هذا الدليل في سورة الأنعام ، وسورة مريم ، فقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١)

وقال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ (٢)

ويتضمن ذلك أن الرغبة والسؤال والطلب والافتقار لا يكون إلا إليه وحده ؛ إذ هو المالك لما في السموات والأرض .

ولما كان تصرفه سبحانه في خلقه لا يخرج عن العدل والإحسان وهو تصرف بخلقه وأمره ، وأخبر أن ما في السموات وما في الأرض ملكه ، فما تصرف خلقاً وأمراً إلا في ملكه الحقيقي ، وكانت سورة البقرة مشتملة من الأمر والخلق على ما لم تشتمل عليه سورة غيرها ـ أخبر تعالى أن ذلك صدر منه في ملكه قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ﴾ (٣) .

فهذا متضمن لكل علمه سبحانه وتعالى بسرائر عباده وظواهرهم ، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه ، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه فعلمه عام وملكه عام .

ثم أخبر تعالى عن محاسبتهم لهم بذلك ، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه فتضمن بذلك علمه بهم وتعريفهم إياه ، ثم قال :

= اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ . سورة التوبة آية رقم ٣١ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٩٢ ـ ٩٣

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [1]

فتضمن بذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء عدلاً ، وذلك يتضمن الثواب والعقاب المستلزم للأمر والنهي المستلزم للرسالة والنبوة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] فتضمن ذلك أنه لا يخرج شيء عن قدرته البتة ، وأن كل مقدور واقع بقدره ، ففي ذلك رد على المجوس الثنوية [3] ، والفلاسفة ، والقدرية المجوسية ، وعلى كل من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته - وهم طوائف كثيرون - فتضمنت الآية إثبات التوحيد وإثبات العلم بالجزئيات والكليات وإثبات الشرائع والنبوات ، وإثبات المعاد والثواب والعقاب وقيام الرب على خلقه بالعدل والفضل ، وإثبات كمال القدرة وعمومها ، وذلك يتضمن حدوث العالم بأسره ؛ لأن القديم لا يكون مقدوراً ولا مفعولاً .

ثم إن إثبات كمال علمه وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلي وله من كل صفة اسم حسن ، فيتضمن إثبات صفاته الحسنى ، وكمال القدرة يستلزم أن يكون فعالاً لما يريد ، وذلك يتضمن تنزيهه من كل ما يضاد كماله ،

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .

(٣) هذه فرقة من الفرق : يزعم أصحابها أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس ، فإنهم قالوا بحدوث الظلام وبتساويهما في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والعقل ، والحيز والمكان ، والأجناس والأبدان والأرواح .
من هؤلاء الثنوية : ماني بن فاتك الفارسي الذي ظهر بمذهب المانوية في عهد سابور بن أردشير بعد المسيح فأسس ديناً بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة عيسى عليه السلام دون موسى زعم ماني أن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شيء لا من أصل قديم [راجع دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ : ص ٧٧٠ - ٧٧٣] .

فيتضمن تنزيهه من الظلم المنافي لكمال غناه وكمال علمه ؛

إذ الظلم إنما يصدر عن محتاج أو جاهل ، وأما الغنى عن كل شيء العالم بكل شيء سبحانه فإنه يستحيل منه الظلم ، كما يستحيل عليه العجز المنافي لكمال قدرته ، والجهل المنافي لكمال علمه .

فتضمنت الآية هذه المعارف كلها بأوجز عبارة وأفصح لفظ وأوضح معنى . وقد عرفت بهذا أن الآية لا تقتضي العقاب على خواطر النفوس المجردة ، ؛ بل إنما تقتضي محاسبة الرب عبده بها ، وهي أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص ، وبعد محاسبته بها يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وعلى هذا فالآية محكمة لا نسخ فيها ، ومن قال من السلف نسخها ما بعدها فمراده بيان معناها والمراد منها ، وذلك يسمى نسخاً في لسان السلف ، كما يسمون الاستثناء نسخاً .

ثم قال تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (١)

فهذه شهادة الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بإيمانه بما أنزل إليه من ربه ، وذلك يتضمن إعطاءه ثواب أكمل أهل الإيمان ـ زيادة على ثواب الرسالة والنبوة ـ لأنه شارك المؤمنين في الإيمان ، ونال منه أعلى مراتبه ، وامتاز عنهم بالرسالة والنبوة ، وقوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ ﴾ (٢) يتضمن أنه كلامه الذي تكلم به ، ومنه نزل لا من غيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .
(٣) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

وقال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

وهذا أحد ما احتج به أهل السنة على المعتزلة القائلين بأن الله لم يتكلم بالقرآن ، قالوا : فلو كان كلاماً لغير الله لكان منزلاً من ذلك المحل لا من الله : فإن القرآن صفة لا تقوم بنفسها ؛ بخلاف قوله :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (٢) .

قال : تلك أعيان قائمة بنفسها ، فهي منه خلقاً ، وأما « الكلام » فوصف قائم بالمتكلم فلما كان منه فهو كلامه ؛ إذ يستحيل أن يكون منه ولم يتكلم به .

ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمن به رسولهم ، ثم شهد لهم جميعاً بأنهم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الإيمان الخمسة (٣) التي لا يكون أحد مؤمناً إلا بها ، وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكُتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة في أول السورة ووسطها وآخرها ، فقال في أولها :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) . والإيمان بالله يدخل في الإيمان بالغيب وفي الإيمان بالكتب والرسل ، فتضمنت الإيمان بالقواعد الخمس .

وقال في وسطها :

---

(١) سورة الواقعة آية رقم ٨٠ والحاقة آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٣) في الحديث الذي رواه ابن ماجة في المقدمة ٩ باب في الإيمان ٦٣ بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٤ .

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [١] ثم حكى عن أهل الإيمان أنهم قالوا :

﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [٢] فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فلا ينفعنا إيماننا بمن آمنّا به منهم كما لم ينفع أهل الكتاب ذلك ؛ بل نؤمن بجميعهم ونصدقهم ولا نفرق بينهم ؛ وقد جمعتهم رسالة ربهم فنفرق بين من جمع الله بينهم ونعادي رسله ، ونكون معادين له ، فباينوا بهذا الإيمان جميع طوائف الكفار المكذبين لجنس الرسل ، والمصدقين لبعضهم المكذبين لبعضهم .

وتضمن إيمانهم بالله إيمانهم بربوبيته ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وأسمائه الحسنى ، وعموم قدرته ومشيئته ، وكمال علمه وحكمته ، فباينوا بذلك جميع طوائف أهل البدع والمنكرين لذلك أو لشيء منه ، فإن كمال الإيمان بالله يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه ، وتنزيهه عما نزّه نفسه عنه ، فباينوا بهذين الأمرين جميع طوائف الكفر ، وفرق أهل الضلال الملحدين في أسماء الله وصفاته .

ثم قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فهذا إقرار منهم بركني الإيمان الذي لا يقوم إلا بها ، وهما السمع [٣] المتضمن للقبول ؛ لا مجرد سمع الإدراك

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٣) قد ورد السمع في التنزيل على وجوه :

الأول : بمعنى الإفهام : « إنك لا تسمع الموتى » . أي لا تفهمهم .

الثاني : بمعنى إجابة الدعاء : إنك سميع الدعاء .

الثالث: بمعنى فهم القلب « أو ألقى السمع وهو شهيد » .

الرابع : بمعنى سماع جارحة الأذن « سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » .

(سمعنا وعصينا) أي سمعنا بالآذان . وعصينا بالجنان .

المشترك بين المؤمنين والكفار ؛ بل سمع الفهم والقبول ، و« الثاني » الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر ، وهذا عكس قول الأمة الغضبية ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ .

فتضمنت هذه الكلمات كمال إيمانهم ، وكمال قبولهم ؛ وكمال انقيادهم ، ثم قالوا : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [1] لما علموا أنهم لم يوفوا مقام الإيمان حقه مع الطاعة والانقياد الذي يقتضيه منهم ، وأنهم لا بد أن تميل بهم غلبات الطباع ودواعي البشرية إلى بعض التقصير في واجبات الإيمان ، والله لا يلم شعث ذلك إلا مغفرة الله تعالى لهم ، سألوه غفرانه الذي هو غاية سعادتهم ، ونهاية كمالهم ؛ فإن غاية كل مؤمن المغفرة من الله تعالى ، فقالوا :

﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ ثم اعترفوا أن مصيرهم ومردهم إلى مولاهم الحق لا بد لهم من الرجوع إليه فقالوا :

﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ . فتضمنت هذه الكلمات إيمانهم به ودخولهم تحت طاعته وعبودته واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم إلى مغفرته واعترافهم بالتقصير في حقه وإقرارهم برجوعهم إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [2] فنفى بذلك ما توهموه من أنه يعذبهم بالخطرات التي لا يملكون دفعها ، وأنها داخلة تحت تكليفه ، فأخبرهم أنه لا يكلفهم إلا وسعهم ، فهذا هو البيان الذي قال فيه

= الخامس : بمعنى سمع الحق تعالى : المنزه عن الجارحة والآلة : المقدس عن الصماخ والمحارة ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً والله سميع عليم ﴾ .

وقد يكون السميع بمعنى المسمع قال عمرو بن معد يكرب ـ رضي الله عنه :

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

ابن عباس وغيره فنسخها الله عنهم بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمراً ونهياً فهم مطيقون له قادرون عليه وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ، وفي ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك والله تعالى أمرهم بعبادته ، وضمن أرزاقهم ، فكلفهم من الأعمال ما يسعونه وأعطاهم من الرزق ما يسعهم ، فتكليفهم يسعونه وأرزاقهم تسعهم ، فهم في الوسع في رزقه وأمره : وسعوا أمره ، ووسعهم رزقه ففرق بين ما يسع العبد وما يسعه العبد ، وهذا هو اللائق برحمته وبره وإحسانه وحكمته وغناه ؛ لا قول من يقول إنه كلفهم ما لا قدرة لهم عليه البتة ولا يطيقونه ثم يعذبهم على ما لا يعملونه .

وتأمل قوله عز وجل : ﴿ إلا وسعها ﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه ؛ لا في ضيق وحرج ومشقة ؛ فإن الوسع يقتضي ذلك ، فاقتضت الآية أنما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج بخلاف ما يقدر عليه الشخص فإنه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرج عليه ، وأما وسعه الذي هو منه في سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود ؛ بل لنفسه فيه مجال ومتسع وذلك منافٍ للضيق والحرج .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (١)

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٨ .

والحرج : مصدر بزنة فعل وأصله مجتمع الشجر ، وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج ، وللإثم حرج ، وقد حرج صدره يحرج كعلم يعلم . وقد ورد في القرآن على ثلاثة معان :

الأول بمعنى الشك والريب ﴿ فلا يكن في صدرك حرج ﴾ قيل : هو نهي وقيل : دعاء ، وقيل : حكم ﴿ في أنفسهم حرجاً مما قضيت ﴾ أي شكاً . الثاني : بمعنى الضيق ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ يجعل صدره

بل ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١)

قال سفيان بن عيينة في قوله ﴿ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ إلا يسرها لا عسرها ولم يكلفها طاقتها ، ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود .

فهذا فهم أئمة الإسلام وأين هذا من قول من قال إنه كلفهم ما لا يطيقونه البتة ولا قدرة لهم عليه ؟ ثم أخبر تعالى أن ثمرة هذا التكليف وغايته عائدة عليهم ، وأنه تعالى يتعالى عن انتفاعه بكسبهم وتضرره باكتسابهم بل لهم كسبهم ونفعه ، وعليهم اكتسابهم وضرره فلم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ؛ بل رحمة وإحساناً وتكرماً ، ولم ينههم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم بل حمية وحفظاً وصيانة وعافية .

وفيه أيضاً أن نفساً لا تعذب باكتساب غيرها ، ولا تثاب بكسبه ، ففيه معنى قوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣)

وفيه أيضاً إثبات كسب النفس المنافي للجبر وفيه أيضاً اجتماع الحكمة فيه ، فأما كسب خيراً أو اكتسب شراً ، لم يبطل اكتسابه كسبه ، كما يقول أهل الأحباط والتخليد ، فإنهم يقولون : إن عليه ما اكتسب وليس له ما كسب ، فالآية رد على جميع هذه الطوائف فتأمل كيف أتى فيما لها بالكسب الحاصل ، ولو لأدنى ملابسة ، وفيما عليها بالاكتساب الدال على الاهتمام

= ضيقاً حرجاً ، أي ضيقاً بكفره
الثالث : بمعنى الإثم ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ﴾ أي إثم ، والمتحرج : المتجنب عن الحرج .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٣٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٦٤ .

والحرص والعمل : فإن اكتسب أبلغ من كسب [1] ، ففي ذلك تنبيه على غلبة الفضل للعدل والرحمة للغضب .

ثم لما كان ما كلفهم به عهوداً منه ووصايا ، وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، وأن لا يخل بشيء منها ؛ ولكن غلبات الطباع البشرية تأبى إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله تعالى إلى أن يسألوه مسامحته إياهم في ذلك كله ، ورفع موجبه عنهم بقولهم :

﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ [2]

أي لا تكلفنا من الآصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا ؛ فإنا أضعف أجساداً وأقل احتمالاً .

ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم ، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه سألوه التخفيف في قضائه وقدره ، كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه فقالوا :

﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [3]

فهذا في القضاء والقدر والمصائب وقولهم :

---

(1) الكسب : يقال فيا أخذه لنفسه ولغيره ، والاكتساب لا يقال إلا فيما استفاده لنفسه ، وكل اكتساب كسب وليس كل كسب اكتساباً وقوله تعالى : ﴿ **انفقوا من طيبات ما كسبتم** ﴾ أي جمعتم وفي الحديث « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » .
وقد ورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات . فمما استعمل في الصالحات قوله تعالى : ﴿ **أوكسبت في إيمانها خيراً** ﴾ . ومما استعمل في العكس ﴿ **أن تبسل نفس بما كسبت** ﴾ .
والاكتساب قد ورد فيهما أيضاً ففي الصالحات قوله تعالى ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ وقوله ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾

(2) سورة البقرة اية رقم ٢٨٦ .

(3) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ [1]
في الأمر والنهي والتكليف فسألوه التخفيف في النوعين .

ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ؛ فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة ، ولا يصفو عين في الدنيا والآخرة إلا بها ، وعليها مدار السعادة والفلاح ، فالعفو متضمن لإسقاط حقه قبلهم ومسامحتهم به ، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم ؛ بخلاف العفو المجرد ؛ فإن العافي قد يعفو ولا يقبل على من عفا عنه ولا يرضى عنه ، فالعفو ترك محصن ، والمغفرة إحسان وفضل وجود والرحمة [2] متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر ، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير ، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه ، وإعلاء كلمته ، وقهر أعدائه ، وشفاء صدورهم منهم ، وإذهاب غيظ قلوبهم ، وحزازات نفوسهم ، وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولى لهم سواه ، فهو ناصرهم ، وهاديهم ، وكافيهم ، ومعينهم ، ومجيب دعواتهم ، ومعبودهم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) الرحمة : رقة تقتضي الإحسان للمرحوم ، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة ، نحو: رحم الله فلاناً وإذا وصف به الباري تعالى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وفضل ، ومن الآدميين رقة وعطف .

وقد ورد الرحمة في القرآن على وجوه :

الأول بمعنى منشور القرآن : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

الثاني : بمعنى سيد الرسل ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

الثالث : بمعنى توفيق الطاعة والإحسان ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ .

الرابع : بمعنى نبوة المرسلين :﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ .

الخامس : بمعنى الإسلام والإيمان : ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ .

فلمـا تحققت قلوبهم بهذه المعـارف وانقادت وذلّت لعـزة ربها ومـولاها وإجابتها جوارحهم أعطوا كلما سألوه من ذلك ، فلم يسألوا شيئاً منه إلا قال الله تعالى : قد فعلت [1] ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ذلك .

فهـذه كلمات قصيـرة مختصرة في معـرفة مقـدار هذه الآيـات العـظيمـة الشأن ، الجليلة المقدار ، التي خص الله بها رسوله محمداً ﷺ وأمتـه من كنز تحت العرش .

وبعـد ففيهـا من المعـارف وحقـائق العلوم مـا تعجـز عقـول البشـر عن الإحاطة به ، والله المرغوب إليه أن لا يحرمنا الفهم في كتابه إنه رحيم ودود

(وقال رحمه الله)

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

فصل

(في فضل دعاء آخر سورة البقرة)

في الدعاء المذكور في آخر (سورة البقرة) وهو قوله :

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخرها . قد ثبت في صحيح مسلم : « أنه قال قد فعلت » (١) وكذلك في صحيحه من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » (٢) وفي صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ (٣) قال :

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم ـ في كتاب الايمان ٥٧ ـ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ٢٠٠ (١٢٦) حدثنا وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان مولى خالد قال : سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ (البقرة آية ٢٨٤) قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ـ ﷺ ـ قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا . قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ قال : قد فعلت .

(٢) ورواه أيضاً الامام أحمد في المسند ٥ : ١٥١ بسنده عن المعرور بن سويد عن أبي ذر بلفظ قال رسول الله ـ ﷺ ـ أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي » .

(٣) سورة النجم آية رقم ١٦ .

فراش من ذهب ، قال : فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً ، أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن مات من أمته ـ لا يشرك بالله شيئاً ـ المقحمات »[1] .

قال بعض الناس إذا كان هذا الدعاء قد أجيب فطلب ما فيه من باب تحصيل الحاصل ، وهذا لا فائدة فيه ، فيكون هذا الدعاء عبادة محضة ليس المقصود به السؤال ، وهذا القول قد قاله طائفة في جميع الدعاء أنه إن كان المطلوب مقدراً فلا حاجة إلى سؤاله وطلبه ، وإن كان غير مقدر لم ينفع الدعاء ـ دعوت أو لم تدع ـ فجعلوا الدعاء تعبداً محضاً ، كما قال ذلك طائفة أخرى في التوكل . وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع ، وذكرنا قول من جعل ذلك إمارة أو علامة بناء على أنه ليس في الوجود سبب يفعل به ، بل يقترن أحد الحادثين بالآخر ، قاله طائفة من القدرية النظار ، وأول من عرف عنه ذلك الجهم بن صفوان ومن وافقه ، وذكرنا أن « القول الثابت » هو الصواب وهو أن الدعاء والتوكل والعمل الصالح سبب في حصول المدعو به من خير الدنيا والآخرة والمعاصي سبب ، وإن الحكم المعلق بالسبب قد يحتاج إلى وجود الشرط وانتقاء الموانع ، فإذا حصل ذلك حصل المسبب بلا ريب .

والمقصود هنا الكلام في الدعاء الذي قد علم أنه أجيب ، فقال بعض

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٧٦ باب في ذكر سورة المنتهى ٢٧٩ - (١٧٣) حدثنا أبو أسامة ، حدثنا مالك بن مغول ، وحدثنا ابن نمير ، وزهير بن حرب جميعاً عن عبد الله بن نمير وألفاظهم متقاربة قال ابن نمير ، حدثنا أبي حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدي ، عن طلحة عن مُرة عن عبد الله . قال : لما أسرى برسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
والمقحمات : الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها ، والتقحم : الوقوع في المهالك . ومعنى الكلام من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحمات .

الناس هذا تعبد محصن لحصول المطلوب بدون دعائنا ، فلا يبقى سبباً ولا علامة وهذا ضعيف .

أما أولاً فإن العمل الذي لا مصلحة للعبد فيه لا يأمر الله به ، وهذا بناء على قول السلف : إن الله لم يخلق ولم يأمر إلا لحكمة ، كما لم يخلق ولم يأمر إلا لسبب . والذين ينكرون الأسباب والحكم يقولون بل يأمر بما لا منفعة فيه للعباد البتة وإن أطاعوه وفعلوا ما أمرهم به ، كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . والمقصود أن كلما أمر الله به أمر به لحكمة ، وما نهى عنه نهي لحكمة ، وهذا مذهب أئمة الفقهاء قاطبة وسلف الأمة وأئمتها وعامتها فالتعبد المحض بحيث لا يكون فيه حكمة لم يقع ، نعم ! قد تكون الحكمة في المأمور به ، وقد تكون في الأمر ، وقد تكون في كليهما ، فمن المأمور به ، ما لو فعله العبد بدون الأمر حصل له منفعة : كالعدل ، والإحسان إلى الخلق وصلة الرحم ، وغير ذلك . فهذا إذا أمر به صار فيه « حكمتان » حكمة في نفسه ، وحكمة في الأمر فيبقى له حسن من جهة نفسه ومن جهة أمر الشارع ، وهذا هو الغالب على الشريعة ، وما أمر الشرع به بعد إن لم يكن إنما كانت حكمته لما أمر به . وكذلك ما نسخ زالت حكمته وصارت في بدله كالقبلة .

وإذا قدر أن الفعل ليست فيه حكمة أصلاً فهل يصير بنفس الأمر فيه حكمة الطاعة ؟ وهذا جائز عند من يقول بالتعبد المحصن وإن لم يقل بجواز الأمر لكل شيء : لكن يجعل من باب الابتلاء والامتحان ، فإذا فعل صار العبد به مطيعاً ، كنهيهم عن الشرب إلا من اغترف غرفة بيده [1] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ سورة البقرة آية ٢٤٩ قال قتادة : النهر الذي ابتلاهم الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين ـ ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته في الماء وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد =

والتحقيق أن الأمر الذي هو ابتلاء وامتحان يحصن عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود ، وإن لم يفعله كإبراهيم لما أمر بذبح ابنه (١) ، وكحديث أقرع وأبرص وأعمى (٢) لما طلب منهم إعطاء ابن السبيل فامتنع الأبرص والأقرع فسلبا النعمة ، وأما الأعمى فبذل المطلوب ، فقيل له إمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك ، وهذا هو الحكمة الناشئة من نفس الأمر والنهي لا من نفس الفعل ، فقد يؤمر العبد وينهى وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له وبذله للمطلوب ، كما كان المطلوب من ابراهيم تقديم حب الله على حبه

= أحرى ، ورخص للمطيعين في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروانزاع النفس في هذه الحال . ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : حسب المرء لقيمات يقمن صلبه » .

(١) قال تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ . سورة الصافات الآيات ١٠٢ ـ ١٠٦ .

قال الشوكاني : البلاء والابتلاء الاختبار ، والمعنى : إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله في طاعته بذبح ولده ، وقيل المعنى : إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح وفداه بالكبش ، ويقال : أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه والأول أولى ، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير والشر ومنه قوله تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ قال أبو زيد : هذا في البلاء الذي نزل به في أن يذبح ولده قال : وهذا من البلاء المكروه .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، ٥١ باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني اسرائيل ، ٣٤٦٤ ـ حدثنا همام ، حدثنا اسحاق بن عبد الله ، قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ وحدثني محمد ، حدثنا عبد الله بن رجاء أخبرنا همام عن اسحاق بن عبد الله ، قال أخبرني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه حدثه ـ وذكره .

ورواه الامام مسلم في كتاب الزهد والرقاق ١٠ (٢٩٦٤) حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا همام . حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة ، أن أبا هريرة حدثه ، أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول وذكره .

لابنه حتى تتم خلته به قبل ذبح هذا المحبوب لله ، فلما أقدم عليه وقوى عزمه بإرادته لذلك تحقق بأن الله أحب إليه من الولد وغيره ، ولم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبة الله .

وكذلك أصحاب طالوت ابتلوا بالامتناع من الشرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة ، والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر وأما رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله .

وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله في الحديث الذي في السنن « إنما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله » [1] رواه أبو داود والترمذي وغيرهما ، فبين النبي ﷺ أن هذا له حكمة ، فكيف يقال لا حكمة بل هو تعبد وابتلاء محصن .

وأما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا حكمة إلا مجرد الطاعة والمؤمنون يفعلونه فهذا لا أعرفه ، بل ما كان من هذا القبيل نسخ بعد العزم كما نسخ إيجاب الخمسين صلاة إلى خمس .

و« المعتزلة » تنكر الحكمة الناشئة من نفس الأمر ؛ ولهذا لم يجوزوا النسخ قبل التمكن ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي الحسن التميمي [2] وبنوه على أصلهم ، وهو أن الأمر عندهم كاشف

---

(١) ورد الحديث في سنن الترمذي (كتاب الحج) والدارمي (كتاب المناسك ورواه الامام أحمد ابن حنبل في المسند ٦ : ١٤١ (حلبي) وانظر ما ذكره البخاري ٢ : ١٩٣ ـ ١٩٥ في فضل السعي بين الصفا والمروة .

(٢) هو عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث أبو الحسن التميمي فقيه حنبلي له اطلاع على مسائل الخلاف صنف كتباً في الأصول والفرائض قال ابن الجوزي « قد تعصب عليه الخطيب يعني صاحب تاريخ بغداد وهذا شأنه في أصحاب أحمد توفي عام ٣٧١ هـ [راجع المنتظم ٧ : ١١٠ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٦١]

عن حسن الفعل الثابت في نفسه لا مثبت لحسن الفعل ، وإن الأمر لا يكون إلا بحسن ، وغلطوا في المقدمتين فإن الأمر وإن كان كاشفاً عن حسن الفعل فالفعل بالأمر يصير له حسن آخر غير المحسن الأول ، وإذا كان مقصود الأمر الامتحان للطاعة فقد يأمر بما ليس بحسن في نفسه وينسخه قبل التمكن إذا حصل المقصود من طاعة المأمور وعزمه وانقياده ، وهذا موجود في أمر الله وأمر الناس بعضهم بعضاً .

والجهمية تنكر أن يكون في الفعل حكمة أصلاً في نفسه ولا في نفس الأمر بناء على أصلهم أنه لا يأمر لحكمة ، وعلى أن الأفعال بالنسبة إليه سواء ليس بعضها حسناً وبعضها قبيحاً ، وكلا الأصلين قد وافقهم عليه الأشعرية [١] ومن اتبعهم من الفقهاء ؛ كأصحاب الشافعي ومالك وأحمد وغيرهم ، وهما أصلان مبتدعان فإن مذهب السلف والأئمة أن الله يخلق لحكمة ويأمر لحكمة ومذهب السلف والأئمة أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى ذلك ، ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان ؛ وإن كان قد شاء وجود ذلك وقد بسط هذا في موضع آخر . وقد قال تعالى :

﴿ **أُدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقولُوا حِطَّةٌ** ﴾ [٢] فإن نفس السجود خضوع لله ولو فعله الإنسان لله مع عدم علمه أنه أمر به انتفع كالسحرة الذين سجدوا قبل الأمر بالسجود .

وكذلك قول العبد حط عنا خطايانا دعاء لله وخضوع ، وقد قال تعالى :

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [٣] وهذه الأفعال المدعو بها في آخر البقرة أمور مطلوبة للعباد .

---

(١) هم اتباع أبو الحسن الأشعري صاحب كتاب (مقالات الاسلاميين) وكتاب (الإبانة) .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٥٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

وقد أجيب بجواب آخر وهو أن الله تعالى إذا قدر أمراً فإنـه يقدر أسبـابه والدعاء من جملة أسبابه ، كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبي ﷺ قبل وقوعه أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلـك استغاثـة النبي ﷺ ودعاؤه ، وكذلك ما وعده به ربه من الوسيلة [1] ، وقد قضى بها له ، وقد أمر أمته بطلبها له ، وهو سبحانه قدرها بأسباب منها ما سيكون من الدعاء .

وعلى هذا فالداخل في السبب هـو ما وقـع من الدعـاء المأمـور به والله أعلم بـذلـك ، فيثيب هــذا الـداعي على مــا فعله من الـدعــاء بجعله تمـام السبب ،ولا يكون على هذا الدعاء سببـاً في اختصاصـه بشيء من ذلك ؛ بـل في حصـوله لمجمـوع الأمة ؛ لكن هـو يثاب على الـدعـاء لكـونـه من جملة الأسباب ، وهذا لأن النبي ﷺ قال : « ما من عبـد يدعـو الله بدعـوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحـم إلا أعطاه الله بها إحـدى خصال ثـلاث : إما أن يعجـل له دعـوته ، وإمـا أن يدخـر له من الخيـر مثلها ، وإمـا أن يكفر عنـه من الذنـوب مثلها ، وإما أن يدفع عنـه من البلاء مثلهـا ، قالـوا يا رسـول الله ! إذن نكثر ،

(١) قال تعالى في سوره الإسراء : ﴿ قل ادعو الـذين زعمتم من دونه فـلا يملكون كشف الضـر عنكم ولا تحويلا (٥٦) أولئـك الذين يـدعون يبتغـون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقـرب ويرجـون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً (٥٧)﴾ قيل : نـزلت فيمن يعبد المـلائكة والمسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقولـه :
ثم بـين تعـالى أن هؤلاء المشـركـين قـد خـالفـوا من كـان يـدعـونـه في دينـه فقـال ﴿أولئـك الـذين يـدعـون يبتغـون إلى ربهـم الـوسيلة أيهم أقرب﴾ وقدم المعمول لأنـه يفيـد الحصر : يعني يبتغـون إلى ربهم الوسيلة لا الى غيره ، وأعـظم الوسـائـل الى الله تعـالى التـوحيد الـذي بعث الله به أنبيـاءه ورسله وخلق الخلق لأجله ، ومن التوسـل إليـه الـتـوسل بأسمائه وصفاته كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسمـاء الحسنى فادعـوه بها ﴾ وكمـا ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله : ﷺ ـ اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام ، فالتوسل الى الله هو بما يحبه ويرضاه لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

قال : الله أكثر [١] » فالداعي بهذا كالـداعي بالـوسيلة يحصل لـه من الأجر مـا يخصه ، كالداعي للأمة ولأخيه الغائب ، ودعاؤه من أسباب الخير التي بها رحمة الأمة ، كما يثاب على سؤاله الوسيلة للنبي ﷺ بأن تحل عليـه الشفاعـة يوم القيامة .

وهنـا « جواب ثـالث » وهو أن كـل من دعا بهـذا الدعـاء حصل لـه من المدعو المطلوب ما لا يحصل بدون المطلوب من الدعاء ، فيكون الـدعاء بـه كدعائه بسائر مطالبه من المغفرة والرحمة ، وليس هو كدعاء الغائب للغـائب ؛ فـإن الملك يقول هنـاك : ولـك بمثله ، فيـدعـو لـه الملك بمثـل مـا دعـا بـه للغائب .

وهنا هو داع لنفسه وللمؤمنين .

وبيان هذا أن الشرع وإن كان قـد استقر بمـوت النبي ﷺ ، وقد أخبـر أن الله تجاوز لأمته عن الخطأ والنسيان [٢] ، وقد أخبر أن الـرسول يضـع عن أمته إصرهم والأغلال التي كـانت عليهم وسأل ربـه لأمته أن لا يسلط عليهم عـدواً من غيرهم فيجتاحهم [٣] فأعطاه ذلـك ، لكن ثبوت هـذا الحكم في حق آحاد

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٨ (حلبي) حدثنا أبو عامر حدثنا علي عن أبي المتوكل عن أبي سعيد أن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره

(٢) روى ابن مـاجه في كتـاب الطلاق ١٦ بـاب طلاق المكـره والناس ٢٠٤٥ حـدثنـا الـوليـد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس ـ عن النبي ﷺ ـ قـال : (إن الله وضـع عن أمتي الخـطأ والنسيـان ومـا استكـرهـوا عليه) .

في الزوائد : إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع . والظاهر أنه منقـطع بدليـل زيادة عبيـد بن نميـر في الطريق الثـاني ، وليس ببعيد أن يكـون السقط من جهة الـوليد بن مسلم فـإنـه كـان يدلس .

(٣) روى الامام أحمد في المسند ٥ : ٢٤٧ بسنده عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنـه قال : صلى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة فأحسن فيها القيام والخشوع والركوع والسجود قال : إنهـا صلاة رغب

الأمـة قد لا يحصـل إلا بطاعـة الله ورسولـه ، فـإذا عصى الله ذلـك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة وإن كانت الشريعة لم تنسخ .

يبين هذا أن في هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفـرة والرحمـة والنصر على الكفـار ، ومعلوم أن هذا ليس حـاصلاً لكـل واحد من أفـراد الأمة ، بـل منهم من يدخل النار ، ومنهم من ينصر عليه الكفار ، ومنهم من يسلب الـرزق لكونهم فرطوا في طاعة الله ورسوله فيسلبون ذلك بقدر مـا فرطـوا أو قصـروا، وقول الله : « قد فعلت » يقال فيه شيئان :

(أحدهما) أنه قد فعل ذلك بالمؤمنين المذكورين في الآية ، والإيمـان المطلق يتضمن طاعة الله ورسوله ، فمن لم يكن كذلـك نقص إيمانـه الواجب فيستحق من سلب هذه النعم بقدر النقص ، ويعوق الله عليه مـلاذ ذلك ، ولم يستحق من الجزاء ما يستحق من قام بالإيمان الواجب (الثاني) أن يقال هـذا الدعاء استجيب له في جملة الأمة ، ولا يلزم من ذلك ثبوتـه لكل فـرد ، وكلا الأمرين صحيح ؛ فإن ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمـة حاصـل ، ولولا ذلـك لأهلكوا بعذاب الاستئصـال كما أهلكت الأمم قبلهم ، وقـد قال النبي ﷺ في الحـديث الصحيـح : « سـألت ربي لأمتي ثـلاثـاً فـأعــطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عـامة فـأعطانيهـا ، وسألتـه أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » [1] . وقال : يا محمد : إني إذا قضيت قضاءً لم يرد [2] .

= ورهب سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين وروى عني واحـدة ، سألته أن لا يبعث على أمتي عـدواً من غيرهم فيجتـاحهم ، فأعـطانيه ، وسـألته أن لا يبعث عليهم سنة تغتالهم فأعطانيه وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردها عليّ » .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب الفتن ١٣ باب سؤال النبي - ﷺ - ثلاثاً في أمته - ٢٢٦٦ - حدثنا محمد بن بشار ، أخبرنا وهب بن جـرير ، حـدثنا أبي قـال : سمعت النعمان بن راشـد عن الزهري ، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن خباب بن الأرث عن أبيـه قال : صلى =

وكذلك في الصحيحين : « لما نزل قوله تعالى :
﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ (١)

قال النبي ﷺ أعوذ بوجهك
﴿ أو مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال أعوذ بوجهك
﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

قال : هاتان أهون (٢) ، وهذا لأنه لا بد أن تقع الذنوب من هذه الأمة ولا بد أن يختلفوا ؛ فإن هذا من لوازم الطبع البشري ، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك .

ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها ؛ بل هي أفضل الأمم ، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية وهو في غيرها أكثر وأعظم ، وخير غيرها أقل والخير فيها أكثر ، والشر فيها أقل ، فكل

= رسول الله - ﷺ - صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله - صليت صلاة لم تكن تصليها قال أجل إنها صلاة رغبة ورهبة وذكره .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن سعد وابن عمر .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب الفتن ٢٢٦٧ - حدثنا قتيبة أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال رسول الله - ﷺ - إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال : « يا محمد إني قضيت قضاء فإنه لا يرد » . الخ .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٥

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن ، ومن سورة الأنعام ٥٠٦٠ ، حدثنا ابن أبي عمر ، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار ، سمع جابر بن عبد الله يقول لما نزلت هذه الآية وذكره .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام وفي الاعتصام ١١ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠٩ (حلبي) .

خير في غيرها فهو فيها أعظم ، وكل شر فيها فهو في غيرها أعظم .

وأما حصول المطلوب للآحاد منها فلا يلزم حصوله لكل عاص ؛ لأنه لم يقم بالواجب ، ولكن قد يحصل للعاصي من ذلك بحسب ما معه من طاعة الله تعالى ، أما حصول المغفرة والعفو والرحمة بحسب الإيمان والطاعة فظاهر ؛ لأن هذا من الأحكام القدرية الخلقية من جنس الوعد والوعيد وهذا يتنوع بتنوع الإيمان والعمل الصالح .

وأما دفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، ودفع الآصار ، فإن هذا قد يشكل لأنه من باب الأحكام الشرعية احكام الأمر والنهي .

فيقال : الخطأ والنسيان المرفوع عن الأمة مرفوع عن عصاة الأمة : فإن العاصي لا يأثم بالخطأ والنسيان ؛ فإنه إذا أكل ناسياً أتم صومه سواء كان مطيعاً في غير ذلك أو عاصياً ، فهذا هو الذي يشكل وعنه جوابان .

(أحدهما) أن الذنوب والمعاصي قد تكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية السمحة فإن الإنسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملاً ، لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ؛ إما لجهله ، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ، كمن يبطل الصوم بالنسيان وآخرون بالخطأ ، وكذلك الإحرام ، وكذلك الكلام في الصلاة ، وكذلك إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو مخطئاً ، فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وخفي ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة إلا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان ، فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلاً في حقه لعدم العلم لا لنسخ الشريعة .

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع ، كقوله :

﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ؛ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [١] وقال :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [٢] وقال :

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَت لَا يُؤْمِنُونَ ، وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [٣] وقال :

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [٤] وقال :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [٥]

وهذا كما أنه حرم على بني إسرائيل طيبات أحلت لهم لأجل ظلمهم وبغيهم فشريعة محمد لا تنسخ ولا تعاقب أمته كلها بهذا ، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا ، بأن يحرموا الطيبات ، أو بتحريم الطيبات : إما تحريماً كونياً بأن لا يوجد غيثهم وتهلك ثمارهم ، وتقطع الميرة عنهم ، أو أنهم لا يجدون لذة مأكل ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس ونحوه كما كانوا يجدونها قبل ذلك ، وتسلط عليهم الغصص وما ينقص ذلك ويعوقه ، ويجرعون غصص المال والولد والأهل ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [٦] وقال :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٠ .

(٥) سورة الصف آية رقم ٥ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٥٥ .

بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [1] وقال :

﴿ إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [2]

فيكون هذا كابتلاء أهل السبت بالحيتان [3] .

وأما أن يعاقبوا باعتقاد تحريم ما هو طيب حلال لخفاء تحليل الله ورسوله عندهم ، كما قد فعل ذلك كثير من الأمة اعتقدوا تحريم أشياء فروج عليهم بما يقعون فيه من الإيمان والطلاق ، وإن كان الله ورسوله لم يحرم ذلك ؛ لكن لما ظنوا أنها محرمة عليهم عوقبوا بحرمان العلم الذي يعلمون به الحل ، فصارت محرمة عليهم تحريماً كونياً ، وتحريماً شرعياً في ظاهر الأمر ؛ فإن المجتهد عليه أن يقول ما أدى إليه اجتهاده فإذا لم يؤد اجتهاده إلا إلى تحريم هذه الطيبات لعجزه عن معرفة الأدلة الدالة على الحل كان عجزه سبباً للتحريم في حق المقصرين في طاعة الله .

وكذلك اعتقدوا تحريم كثير من المعاملات التي يحتاجون إليها كضمان البساتين والمشاركات وغيرها ، وذلك لخفاء أدلة الشرع فثبت التحريم في حقهم بما ظنوه من الأدلة ، وهذا كما أن الإنسان يعاقب من يخفى عليه من الطعام الطيب والشراب الطيب ما هو موجود وهو مقدور عليه لو علمه ؛ لكن لا يعرف بذلك عقوبة له ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه [4] ، وقد

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) سورة التغابن آية رقم ١٥ .

(٣) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ . آية رقم ١٦٣ .

(٤) روى ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩٠ حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها » .

في الزوائد : سألت شيخنا أبا الفضل القرافي عن هذا الحديث . فقال : حسن .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [1] فهو سبحانه إنما ضمن الأشياء على وجهها واستقامتها للمتقين ، كما ضمن هذا للمتقين .

فتبين أن المقصرين في طاعته من الأمة قد يؤاخذون بالخطأ والنسيان ومن غير نسخ بعد الرسول ، لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ولعدم علم من عندهم من العلماء بذلك ؛ ولهذا يوجد كثير ممن لا يصلي [في السفر قصراً] يرى الفطر في السفر حراماً فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره في الطاعة ؛ لكنه مما يكفر الله به من خطاياه ما يكفره ، كما يكفر خطايا المؤمنين بسائر مصائب الدنيا .

وكذلك منهم من يعتقد التربيع في السفر واجباً فيربع فيبتلي بذلك لتقصيره في الطاعة ، ومنهم من يعتقد تحريم أمور كثيرة من المباحات التي بعضها مباح بالاتفاق ، وبعضها متنازع فيه ؛ لكن الرسول لم يحرمه ؛ فهؤلاء الذين اعتقدوا وجوب ما لم يوجبه الله ورسوله ، وتحريم ما لم يحرمه حمل عليهم إصراً ، ولم توضع عنهم جميع الآصار والأغلال وإن كان الرسول قد وضعها ، لكنهم لم يعلموها وقد يبتلون بمطاع يلزمهم ذلك فيكون آصاراً وأغلالاً من جهة مطاعهم : مثل حاكم ، ومُفْتٍ ، وناظر وقف ، وأمير ينسب ذلك إلى الشرع ؛ لاعتقاده الفاسد أن ذلك من الشرع ، ويكون عدم علم مطاعيهم تيسير الله عليهم عقوبة في حقهم لذنوبهم ، كما لو قدر أنه سار بهم في طريق يضرهم ، وعدل بهم عن طريق فيه الماء والمرعى لجهله ، لا لتعمده مضرتهم ، أو أقام بهم في بلد غالي الأسعار مع إمكان المقام ببلد آخر .

وهذا لأن الناس كما قد يبتلون بمطاع يظلمهم ويقصد ظلمهم يبتلون أيضاً بمطاع يجهل مصلحتهم الشرعية والكونية ، فيكون جهل هذا من أسباب

---

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .

عقوبتهم ، كما أن ظلم ذلك من أسباب مضرتهم ، فهؤلاء لم ترفع عنهم الآصار والأغلال لذنوبهم ومعاصيهم ، وإن كان الرسول ليس في شرعه آصار وأغلال ، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظلم ، وتساق إليهم الأعداء ، وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلك من الآصار والأغلال التي لم ترفع عنهم ، مع عقوبات لا تحصى ؛ وذلك لضعف الطاعة في قلوبهم وتمكن المعاصي وحب الشهوات فيها ، فإذا قالوا :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ (١) دخل فيه هذا .

وأما قوله : ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ فعلى قولين : قيل : هو من باب التحميل القدري ، لا من باب التكليف الشرعي ، أي : لا تبتلينا بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلي الإنسان بفقر لا يطيقه ، أو مرض لا يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ، أو حب أو عشق لا يطيقه ، ويكون سبب ذلك ذنوبه .

وهذا مما يبين أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

وقوله : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ (٢) و ﴿ فمنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾ (٣) قول حق ، وقال تعالى في قصة قوم لوط :

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (٤) فما من أحد يبتلي

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ وقد جاءت في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (من) الأولى بدون (الفاء) .

(٤) سورة الذاريات رقم ٣٧ .

بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم ، حتى تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الإنسان ، وإن قويت حتى صارت غراماً وعشقاً زاد العذاب الأليم ، سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه ؛ فإن كان عاجزاً فهو في عذاب أليم من خوف فراقه ، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه ، فإن نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب ، وإن صار إلى غيره استبدالاً به أو مشاركة قوي عذابه ، فإن هذا الجنس يحصل فيه من العذاب ما لا يحصل في عشق البغايا وما يحصل مثله في الحلال ، وإن حصل في الحلال نوع عذاب كان أخف من نظيره وكان ذلك سبب ذنوب أخرى . فإذا دعى الإنسان بهذ الدعاء يخص نفسه ويعم المسلمين فله من ذلك أعظم نصيب ، كيف لا وقد قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة ما قرأ بهما أحد في ليلة إلا كفتاه »(1) وكيف لا تكفيانه وما دعا به من ذلك لم يحصل له إلا ما حصل لسائر المؤمنين الذين لم يقرأوهما فإن الداعي بهذا الدعاء له منه نصيب يخصه كسائر الأدعية . ومما يبين ذلك أن الصحابة إنما استجيب لهم هذا الدعاء لما التزموا الطاعة لله مطلقاً بقولهم : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ ثم أنزل هذا الدعاء فدعوا به فاستجيب لهم .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله ﷺ وكانوا فيها على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا في زمن

---

(1) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٨٣ باب ما جاء فيما يرجى أن يكفي من قيام الليل ١٣٦٨ - حدثنا حفص بن غياث وأسباط بن محمد قالا حدثنا الأعمش عن ابراهيم ، عن عبد الرحمن بن يزيد عن علقمة ، عن أبي مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . قال حفص : في حديثه : قال عبد الرحمن ، فلقيت أبا مسعود وهو يطوف فحدثني به . وأخرجه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٤٣ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، والحث على قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة ٢٥٦ بسنده عن أبي مسعود الأنصاري ، وأخرجه الامام البخاري في المغازي ١٢ ، وفضائل القرآن ١٠ ، ٢٧ ، ٣٤ ، وأبو داود في رمضان ٩ ، والترمذي في ثواب القرآن ٤ والدارمي في الصلاة ١٧٠ وفضائل القرآن ١٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ . (حلبي) .

عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم كمنعهم من متعة الحج ، وكإيقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر ، وكان أطوعهم لله وأزهدهم مثل أبي عبيدة [١] ينقاد له عمر ما لا ينقاد لغيره ، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها ، حتى تنازعوا فيها وهم مؤتلفون متحابون ، كل منهم يقر الآخر على اجتهاده .

فلما كان في آخر خلافة « عثمان » زاد التغير والتوسع في الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى :

﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [٢] أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط ؛ بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم كما قال النبي ﷺ « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » [٣] .

وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات ، وصاروا يختصمون في متعة الحجِ ونحوها مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر ، فطائفة تمنع

---

(١) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي الأمير القائد فاتح الديار الشامية ، أحد العشرة المبشرين بالجنة قال ابن عساكر : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة توفي عام ١٨ هـ [راجع طبقات ، والاصابة ، وحلية الأولياء ١ : ١٠٠ والبدء والتاريخ ٥ : ٨٧ وابن عساكر ٧ : ١٥٧] .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢٠ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠٠٥ حدثنا عبد الله بن نمير وأبو أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنا سمعنا رسول الله - ﷺ - يقول ﴿ إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه ﴾ قال أبو أسامة : مرة أخرى : فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وذكره .

المتعـة مطلقاً كابن الـزبير ، وطـائفة تمنـع الفسخ كبني أميـة وأكثر النـاس ، وصاروا يعاقبون من تمتع ، وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا يقصـد مخـالفة الـرسول ، بـل خفي عليهم العلم ، وكان ذلـك سببـه مـا حـدث من الـذنوب ، كمـا قال ﷺ : « خـرجت لأخبـركم بليلة القـدر فتـلاحمـا رجـلان فرفعت ، ولعل ذلـك أن يكون خيـراً لكم » أي قد يكـون إخفاؤ هـا خيراً لكم لتجتهـدوا في ليالي العشـر كلها ؛ فـإنه قـد يكون إخفـاء بعض الأمـور رحمـة لبعض الناس .

والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم من خفاء الحكم ولهذا صنف رجل كتاباً سمـاه « كتاب الاختـلاف » فقال أحمـد : سمه « كتـاب السعة » وإن الحق في نفس الأمـر واحد ، وقـد يكـون من رحمـة الله ببعض النـاس خفاؤ ه لمـا في ظهوره من الشـدة عليه ، ويكـون من باب قـوله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (١)

وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصـوباً ، فـإذا لم يعلم الإنسان بـذلك كـان كله لـه حـلالاً لا إثم عليـه فيـه بحال ؛ بخلاف ما إذا علم ، فخفاء العلم بمـا يوجب الشـدة قد يكـون رحمة كما أن خفاء العلم بما يوجب الرخصة قد يكون عقـوبة ، كمـا أن رفع الشـك قد يكون رحمة وقد يكون عقوبة . والرخصة رحمة ، وقد يكون مكـروه النفس أنفع كما في الجهاد :

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئـاً وَهُوَ خَيْـرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئـاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠١ وتكملة الآية ﴿ وان تسألوا عنها حين ينـزل القرآن تبـدلكم عفا الله عنها والله غفور رحيم ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه بل يكون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك .

والله سبحانه كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما :

﴿ وكُلا منها رغداً حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مما كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (١) .

فكل عداوة كانت في ذريتهما وبلاء ومكروه وتكون إلى قيام الساعة وفي النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى .

فالإنسان إذا كان مقيماً على طاعة الله باطناً وظاهراً كان في نعيم الإيمان والعلم وارد عليه من جهاته ، وهو في جنة الدنيا ، كما في الحديث :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » (٢) . وقال : (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٥ ، ٣٦ وجاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث خلط بين الآية في سورة البقرة رقم ٣٥ والآية في سورة الأعراف رقم ١٩ حيث أن الأولى : **﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكون من الظالمين﴾** والثانية : **﴿فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان﴾**

(٢) رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أنس . قال في الجامع الكبير وهو حسن غريب ، وعند الترمذي عن أبي هريرة إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة . . ؟ قال : المساجد ، قيل : وما الرتع . . ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ورواه الطبراني عن ابن عباس بلفظ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل يا رسول الله وما رياض الجنة . . .؟ قال : مجالس العلم ، وقال في الجامع الكبير ورواه ابن شاهين عن أبي هريرة بلفظ : إذا مررتم برياض الجنة فاجلسوا إليهم قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال أهل الذكر» الحديث رواه البخاري في ٢٠ كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٥ باب فضل ما

الجنة) . فإنه كان يكون هنا في رياض العلم والإيمان .

وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى فلا يزال في علو ما دام كذلك ، فإذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل ، فلا يزال في هبوط ما دام كذلك ، ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة ، فإن أراد الله به خيراً ثاب وعمل في حال هبوط قلبه إلى أن يستقيم فيصعد قلبه ، قال تعالى :

﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ (١) فتقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٢) فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فإنها لا تنال الله .

و« الباطنية » (٣) المنكرون لخلق العالم في ستة أيام ، ومعاد الأبدان الذين يجعلون للقرآن تأويلاً يوافق قولهم ، عندهم مأثم « جنة » إلا لذة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة ، ومأثم « ثأر » إلا ألم ما تتصف به النفس من الجهل والأخلاق الذميمة السيئة ، فنار النفوس ألمها القائم بها كحسراتها لفوات العلم ، أو لفوات الدنيا المحبوبة لها وحجبها إنما هي ذنوبها .

وهذا الكلام مما يذكره أبو حامد في « المظنون » به على غير أهله (٤) ،

= بين القبر والمنبر ، ومسلم في ١٥ - كتاب الحج ٩٢ باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة حديث ٥٠١ ورواه صاحب الموطأ في كتاب القبلة ٥ باب ما جاء في مسجد النبي - ﷺ ١٠ ، ١١ عن مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم ، عن عبد الله بن زيد المازني وذكره .

(١) سورة الحج آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٣) كتب الامام الغزالي كتاباً مستفيضاً سماه (فضائح الباطنية)

(٤) قال السبكي في طبقاته ذكر ابن الصلاح أنه منسوب الى أبي حامد الغزالي وقال : معاذ الله أن =

لكن قد يقول هذا : ليس هو عذاب القبر المذكور في الأجسام ؛ بل ذلك أمر آخر مما بينه أهل السنة ، ولا نعيم عندهم إلا ما يقوم بالنفس من هذا ، ولهذا ليس عندهم نعيم منفصل عن النفس ولا عذاب .

وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً ؛ فإن الناس في الدنيا يثابون ويعاقبون بأمور منفصلة عنهم ، فكيف في دار الجزاء ولكن الذي أثبتوه من هذا وهذا [منه] ما هو حق ، ولكن الباطل جحدهم ما جحدوه مما أخبر الله به ورسوله ، فهؤلاء عندهم أن آدم لم يكن إلا في جنة العلم وهبوطه انخفاض درجته في العلم ، وهذا كذب ، ولكن ما أثبتوه من الحق حق ، وقصة آدم تدل عليه بطريق الاعتبار الذي تسميه الصوفية الإشارة ؛ لا أنه هو المراد بالآية ؛ لكن قد دل عليه آيات أخر تدل على أن من كذب بالحق عوقب بأن يطبع على قلبه فلا يفهم العلم أو لا يفهم المراد منه ، وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلاً ، كما قال تعالى عن اليهود :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ (١)

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢)

= يكون له وبين سبب كونه مختلقاً موضوعاً عليه ـ والأمر كما قال ، وقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟ انتهى .

أوله : الحمد لله على موجب ما هدانا إلى حمده الخ وهو أجوبة مسائل تسع سئل عنها الغزالي ، وفي التاسعة فصول كثيرة قال : يشمل على أربعة أركان في معرفة الربوبية ، الثاني في معرفة الملائكة ، الثالث : في حقائق المعجزات ، الرابع : فيما بعد الموت . وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي كتاباً في رده وتوفي سنة ٧٥٠ هـ [راجع كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧١٣] .

(١) سورة البقرة آية رقم ٦١ .

(٢) **هذا جزء من سورة البقرة آية رقم ٦١ وتكملة الآية ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا**

ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات ، و« اللذة » التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له ، وهو الإيمان به ، وهم يجعلون ذلك الوجود المطلق .

وأيضاً فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادة له بل كان مع حب لغيره كائناً من كان فإن عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة ، وهم لا يجعلون كمال اللذة إلا في نفس العلم .

و« أيضاً » فاقتصارهم على اللذة العقلية خطأ ، والنصارى زادوا عليهم السمع والشم ، فقالوا : يتمتعون بالأرواح المتعشقة والنفحات المطربة ولم يثبتوا هم ولا اليهود الأكل والشرب ولا النكاح ـ وهي لذة اللمس ـ والمسلمون أثبتوا جميع أنواع اللذات : سمعاً ، وبصراً وشماً وذوقاً ولمساً ، للروح والبدن جميعاً وكان هذا هو الكمال ؛ لا ما يثبته أهل الكتاب ومن هو شر منهم من الفلاسفة الباطنية ، وأعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه ، كما في الحديث الصحيح : « فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »[1] وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ، وأطيب ما في الآخرة النظر إليه سبحانه ؛ ولهذا كان التجلي يوم الجمعة في الآخرة على مقدار صلاة الجمعة في الدنيا .

= وكانوا يعتدون ﴾ .

(١) روى ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٧ ـ حدثنا حجاج حدثنا حماد عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب قال : تلا رسول الله ـ ﷺ هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [سورة يونس آية ٢٦] وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى منادي : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون وما هو . . ؟ ألم يثقل الله موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه . فوالله . ما أعطاهم الله شيئاً أحب اليهم من النظر يعني اليه ولا أقر لأعينهم » .

وأبـو حامـد يذكـر في كتبه هـو وأمثالـه « الرؤ يـة » وأنهـا أفضـل أنـواع النعيم ، ويـذكر كشف الحجب ، وأنهم يـرون وجـه الله [1] ، ولكن هـذا كله يريد به ما تقوله الجهمية والفلاسفة ؛ فإن « الرؤ ية » عندهم ليست إلا العلم ، لكن كما أن الإنسان قد يرى الشيء بعينيه ، وقد يمثل له خيـاله إذا غـاب عنه فهكـذا العلم ، ففي الـدنيـا ليس عنـدهم من العلم إلا مثـال كـالخيـال في الحساب ، وفي الآخرة يعلمونه بلا مثال ، وهو عندهم « وجود لا داخل العالم ولا خارجه » و« كشف الحجـاب » عندهم رفـع المانـع الذي في الإنسـان من الرؤ ية ، وهو أمر عدمي فحقيقته جعـل العبد عـالماً ، وهـذا كله مما تقـول به الفلاسفة والباطنية وهؤلاء إنما يأمرون بالزهد في الدنيا لينقطع تعلق النفس بها وقت [فراق] النفس ، فلا تبقى النفس مفارقة لشيء يحبه ؛ لكن أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط ، بل يقول قتل واحـد من هؤلاء خير من قتـل عدد كثير من الكفار . وأما هؤلاء فالفواصل عندهم إلى العلم المطلوب قد يبيحون لـه محظورات الشـرائع حتى الفـواحش والخمر وغيـرها إذا كـانوا ممن يعتقـد تحريم الخمر ، وإلا فغالب هؤلاء لا يوجبون شريعـة الإسلام ؛ بـل يجوزون التهود والتنصر وكل من كان من هؤلاء واصلاً إلى علمهم فهو سعيد .

وهكـذا تقـول الاتحـاديـة منهم : كـابن سبعين [2] ؛ وابن هـود [3] ،

---

(١) روى ابن ماجه في المقدة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٥ ـ بسنده عن أبي موسى . قال : قام فينا رسـول الله ـ ﷺ ـ بخمس كلمات فقـال إن الله لا ينام ، ولا ينبغي لـه أن ينام يخفض القِسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبـل عمل الليـل ، حجابـه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصـر بن سبعين الأشبيلي المرسي من القـائلين بوحـدة الـوجود . صنف كتـاب « الحروف الـوضعية في الصـور الفلكية » وشـرح كتـاب إدريس عليـه السـلام الذي وضعـه في علم الحرف ، وكفره كثير من النـاس ، له مـريدون وأتبـاع يعرفـون بالسبعينية . قال الذهبي : اشتهر عن ابن سبعين أنه قـال : لقد تحجـر ابن آمنة واسعـاً بقولـه « لا نبي بعد » مات عـام ٦٦٩ هـ [راجع جـلاء العينين ٥١ وفوات الـوفيات ١ : ٢٤٧ ونفـح =

والتلمساني [1] ، ونحوهم ، ويدخلون مع النصارى بيعهم ، ويصلون معهم إلى الشرق ، ويشربون معهم ومع اليهود الخمر ، ويميلون إلى دين النصارى أكثر من دين المسلمين لما فيه من إباحة المحظورات ؛ ولأنهم أقرب الى الاتحاد والحلول ، ولأنهم أجهل فيقبلون ما يقولونه أعظم من قبولهم لقول المسلمين ، وعلماء النصارى جهال إذا كان فيهم متفلسف عظموه ، وهؤلاء يتفلسفون .

والواحد من هؤلاء يفرح إذا قيل له لست بمسلم ؛ ويحكي عن نفسه - أنه دخل الى بعض ديارات النصارى ليأخذ منهم ما يأكله هو ورفيقه ، فأخذ بعضهم يتكلم في المسلمين ، ويقول : يقولون : كذا وكذا ، فقال له آخر :

= الطيب ١ : ٤٢١] .

(٣) هو الحسن بن عضد الدولة على أخي المتوكل على الله ملك الأندلس بن يوسف بن هود الجّذامي المرسي أبو علي . فيلسوف متصوف مولده في مرسيه عام ٦٣٣ وكان أبوه نائب السلطنة فيها . تصوف واشتغل بالطب والحكمة . توفي بدمشق عام ٦٩٩ هـ كان يصيبه ذهول ، ويقرىء اليهود كتاب « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون ، وجاءه عماد الدين الواسطي (من علماء عصره) فقال له : أريد أن تسلكني فقال : من أي الطرق . . ؟ من الموسوية ، أو العيسوية ، أو المحمدية . . ؟ وله شعر غريب منه .

علم قوم بي جهل إن شأني لأجل
أنا عبد أنا رب أنا عز أنا ذل
أنا دنيا أنا أخرى أنا بعض أنا - كل
أنا معشوق لذاتي لست عنه الدهر أسلو

وصفه الذهبي بالإلحاد والضلالة ، وقال ابن أبي جحلة : ابن هود ، شيخ اليهود عقدوا له العقود على ابنة العنقود . [راجع شذرات الذهب ٥ : ٤٤٦ وفي فوات الوفيات ١ : ١٢٧ مات سنة ٦٩٧ هـ] .

(١) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني التلمساني أبو مدين ، صوفي من مشاهيرهم أصله من الأندلس ، أقام بفاس وسكن (بجاية) وكثر اتباعه توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين أو تجاوزها عام ٥٩٤ هـ [راجع شذرات الذهب ٤ : ٣٠٣ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٣٩٩] .

لا تتكلم في المسلمين فهذا واحد منهم فقال ذلك المتكلم هذا وجهه وجه مسلم أي ليس هذا بمسلم ، فصار يحكيها المارديني [1] أن النصراني قال عنه ليس هذا بمسلم ، ويفرح بقول النصراني ويصدقه فيما بقول ، أي ليس هذا بمسلم . والمتفلسفة يصرحون بهذا ، يقولون : قلنا : كذا وكذا ، وقال المسلمون : كذا وكذا ، وربما قالوا قلنا : كذا وقال المليون : أي أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وكتبهم مشحونة بهذا ، ولا بد لأحدهم عند أهل الملل أن يكون على دينهم .

لكن دخولهم في هذا كدخولهم في سياسة الملوك ، كما كانوا مع الترك الكفار ، وكانوا مع « هولاكو » ملك المغول الكفار ، ومع « القان » الذي هو أكبر منه خليفة « جنكزخان » ببلاد الخطا ، وانتساب الواحد منهم هناك إلى الإسلام انتساب إلى إسلام يرضاه ذلك الملك بحسب غرضه ، كما كان « النصير الطوسي » [2] وأمثاله مع « هولاكو » ملك الكفار ، وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها ، وأخذ كتب الناس : ملكها ووقفها ، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه ، وأفسد الباقي ، وبنى الرصد ووضعها

---

(١) هناك المارديني الأب : وهو : عثمان بن ابراهيم بن مصطفى المارديني ويقال له ابن التركماني فقيه من العارفين بالتفسير انتهت إليه رياسة الحنفية بالديار المصرية وتوفي عام ٧٣١ هـ .
وهناك المارديني الابن : وهو : علي بن عثمان بن ابراهيم بن مصطفى المارديني ، أبو الحسن . قاض حنفي ، من علماء الحديث واللغة من أهل مصر ، له كتب منها المنتخب في علوم الحديث « والمؤتلف والمختلف » وكتاب «الضعفاء والمتروكين » و « الجوهر النقي في الرد على البيهقي وتخريج أحاديث الهداية توفي عام ٧٥٠ هـ » [راجع الفوائد البهية ١٢٣ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٢٤٦] .

(٢) محمد بن محمد بن الحسن ، أبو جعفر نصير الدين الطوسي ، فيلسوف علت منزلته عند « هولاكو » فكان يطيعه فيما يشير به عليه ، ولد بطوس (قرب نيسابور) عام ٥٩٧ هـ وابتنى بمراغه قبة ، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، من كتبه (تربيع الدائرة) « وتحرير أصول أقليدس » و(تلخيص المحصل) مختصر المحصل للفخر الرازي « وحل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا » وغير ذلك توفي عام ٦٧٢ هـ [راجع فوات الوفيات ٢ : ١٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٢٦١] .

فيه ، وكان يعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطوينية ، ويعطي في رصده الفيلسوف والمنجم والطبيب اضعاف ما يعطي الفقيه ، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان ولا يصلون .

وكذلك كان بالشام ومصر طائفة مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم يشرب أحدهم الخمر في نهار رمضان ، وتارة يصلون وتارة لا يصلون ، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم ؛ بل يقولون : هذا للعامة والأنبياء ، وأما مثلنا فلا يحتاج إلى الأنبياء ، ويحكمون عن بعض الفلاسفة أنه قيل له : قد بعث نبي فقال : لو كان الناس كلهم مثلي ما احتاجوا إلى نبي ، ومثل هذه الحكاية يحكيها من يكون رئيس الأطباء ولا يعرف الزندقة ولا يدري مضمون هذه الكلمة ما هو لجهله بالنبوات ، وقيل لرئيسهم الأكبر في زمن موسى عليه السلام ألا تأتيه فتأخذ عنه ؟ فقال : نحن قوم مهديون فلا نحتاج إلى من يهدينا .

وأما ما ذكروه من حصول اللذة في القلب والنعيم بالإيمان بالله والمعرفة به فهو حق ، وهو سبب دخول الجنة ، وقد قال ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » [1] وما ذاك إلا لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب إلى الخير والأعمال الصالحة التي بها وبسببها تفتح أبواب الجنة ، ويمتنع من الشرور التي بها تفتح أبواب النار ، وتصفد الشياطين فلا يتمكنون أن يعملوا ما يعملونه في الإفطار ، فإن المصفد هو المقيد لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات ، فإذا كفوا عن الشهوات صفدت الشياطين .

---

(١) الحديث : رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وله طرق وألفاظ أخر منها ما رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي وابن حبان عن أبي هريرة : إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النيران فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي مناد كل ليلة يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، ولله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة » . [راجع كشف الخفا ١ : ٩٢] .

والجنة والنار التي تفتح وتغلق غير ما في القلوب ؛ ولكن ما في القلوب سبب له ودليل عليه وأثر من آثاره ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّـذِينَ يَـأْكُلُونَ أَمْـوَالَ الْيَتَـامَى ظُلْمَـاً إِنَّمَـا يَـأْكُلُونَ فِي بُـطُونِهِمْ نَاراً ﴾ (١) وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » (٢) . فقيل : يأكلون ويشربون ما سيصير ناراً ، وقيل : هو سبب النار والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠ .

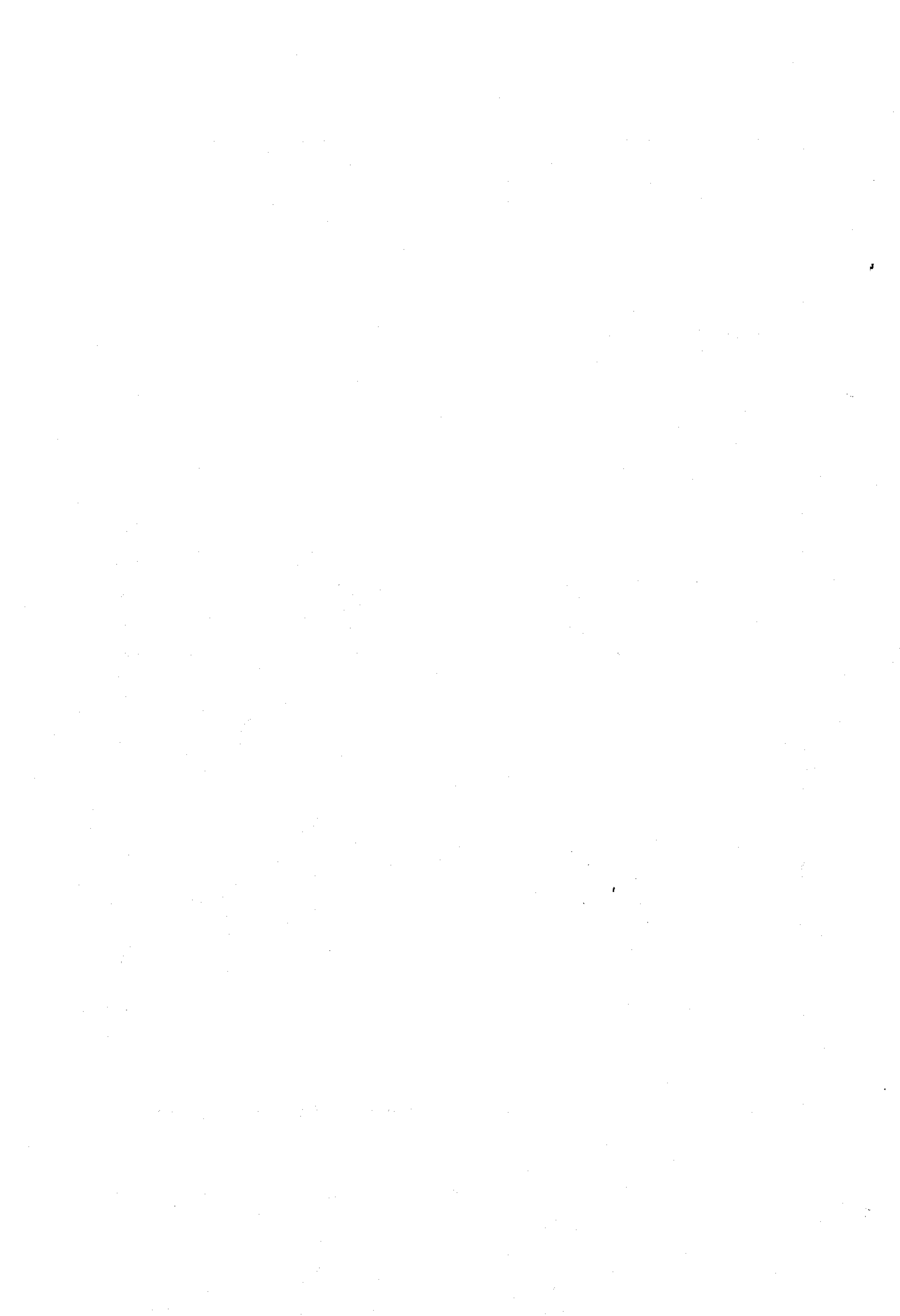
(٢) الحديث رواه البخاري ٧٤ ـ كتاب الأشربة ٢٨ باب آنية الفضة ٥٦٣٤ ـ حدثني مالك بن أنس عن نافع عن زيد بن عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن أم سلمة زوج النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه ابن ماجه في كتاب الأشربة ١٧ باب الشرب في آنية الفضة بسنده عن أم سلمة زوج النبي ـ ﷺ ـ وذكره ، ورواه الامام مالك في كتاب صفة النبي ﷺ ـ ٧ باب النهي عن الشرب في آنية الفضة والنفخ في الشراب ١١ بالسند السابق ، ومسلم في ٣٧ كتاب اللباس والزينة ١ باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة ، حديث (١) .





تفسير سورة آل عمران

١ ـ فصل في معنى قوله : شهد الله
٢ ـ فصل في قوله : قائماً بالقسط .



وقال شيخ الاسلام

أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدّس الله روحه ونوّر ضريحه

فصل

في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلاّ هُوَ ،وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمَاً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسلام ﴾[1] :

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ ﴿ **شهد** ﴾ فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة : أي حكم وقضى . وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج : أي بيّن. وقالت طائفة : أي أعلم . وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الإخبار والإعلام ، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار ، وعن ابن عباس أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر فقال ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة ؛ وذلك أن الشهادة [2] تتضمن كلام الشاهد

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ ـ ١٩ .

(٢) الشهادة قول صادر عن علم بمشاهدة بصر أو بصيرة وقوله تعالى ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ يعني بمشاهدة البصيرة ثم قال ﴿ **ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ تنبيهاً أن الشهادة تكون عن شهود . وشهدت يقال على ضربين أحدهما جار مجرى العلم وبلفظه تقام الشهادة ، يقال : أشهد بكذا ولا يرضى منه الشاهد أن يقال : أعلم بل يحتاج أن يقول أشهد والثاني يجري مجرى القسم فيقول : أشهد بالله أن زيداً منطلق .

وقوله وخبره عما شهد به ، وهذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره ، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه ، فهذه أول مراتب الشهادة .

ثم قد يخبره ويعلمه بذلك ، فتكون الشهادة إعلاماً لغيره وإخباراً له ، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به ، سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾[2] الآية. ففي كلا الموضعين إنما أخبروا خبراً مجرداً ، وقد قال : ﴿ وَاْجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [3]

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » [4] قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية وإنما في الآية : ﴿ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [5] وهذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان ، وعلى أي صفة وجد ، فلا يقوله العبد ولا يحضره ولا يسمعه من قول غيره . و﴿ الزور ﴾ هو الباطل الذي قد أزور عن الحق والاستقامة أي تحول ، وقد سماه النبي ﷺ شهادة الزور ، وقد قال في المظاهرين من نسائهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِنَ

---

(١) سور الزخرف آية رقم ١٩ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٨١ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) الحديث عند ابن ماجه في كتاب الأحكام ٣٢ باب شهادة الزور ٢٣٧٢ حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا سفيان العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي ، عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى النبي ـ ﷺ ـ الصبح فلما انصرف قام قائماً . فقال : وذكره . وأخرجه أبو داود في الأقضية ١٥ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ :١٧٨ ـ ٢٢٣، (حلبي) .

(٥) سورة الحج آية رقم ٣٠ وجاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت بدون (الواو) .

الْقَوْلِ وَزُوراً ﴾ (١) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : « شهد عندي رجال مرضيون - وأرضاهم عندي عمر - أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، وهؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك ؛ ولم يقولوا : نشهد عندك ، فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ في التحديث ، وإن كان أحدهم قد ينطق به ، ومنه قولهم في ماعز (٢) ، فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبي ﷺ ، ولفظه كان إقراراً ولم يقل : أشهد . ومنه قوله تعالى :

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٣) وشهادة المرء على نفسه هي إقراره ، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء ، وإنما تنازعوا في الشهادة عند الحكام هل يشترط فيها لفظ أشهد ؟ على قولين في مذهب أحمد ، وكلام أحمد يقتضي أنه لا يعتبر ذلك ، وكذلك مذهب مالك ، و« الثاني » يشترط ذلك كما يحكى عن مذهب أبي حنيفة والشافعي .

و« المقصود هنا » الآية ، فالشهادة تضمنت مرتبتين :

« إحداهما » تكلم الشاهد وقوله وذكره لما شهد في نفسه به .

و« الثاني » إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به ؛ فمن قال : حكم وقضى فهذا من باب اللازم ، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر .

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢ .

(٢) أخرج الامام مسلم وأبو داود عن بريدة - رضي الله عنه قال : إن ماعز بن مالك الأسلمي أتى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله : إني ظلمت نفسي و زنيت وإني أريد أن تطهرني فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني زنيت فرده الثانية . الخ [راجع صحيح الامام مسلم ١٦٩٤ في الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا ، وأبو داود رقم ٤٤٣٢ ، ٤٤٣٣ في الحدود باب رجم ماعز بن مالك] .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .

ولا ريب أن الله ألـزم الخلق التـوحيـد وأمـرهم بـه وقضى بـه وحكـم ، فقال : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [1] وقال : ﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [2] وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [3] الآية . وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [4] وقال :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [5] ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [6] .

وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيـده ، ويحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم وقضى : أنه لا إله إلا هو .

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ؛ وذلـك أنـه إذا شهـد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد ، وأنـه وحده الإله الذي يستحق العبـادة ، وهذا يتضمن الأمـر بعبادتـه والنهي عن عبادة مـا سواه ، فإن النفي والإثبات في مثل هـذا يتضمن الأمر والنهي كمـا إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل :

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٢ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال ﴿ فاعبدون ﴾ بدلاً من﴿ فاتقون ﴾ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٥١ .

(٥) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

(٦) سورة البينة آية رقم ٥ .

هـذا ليس بمفت ، هذا هـو المفتي ، ففيه نهي عن استفتاء الأول وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني .

وكذلك إذا تحـاكم إلى غير حـاكم ، أو طلب شيئاً من غيـر ولي الأمر ، فقيـل له : ليس هـذا حاكمـاً ولا هذا سلطانـاً ؛ هـذا هـو الحـاكم وهـذا هـو السلطان ، فهذا النفي والإثبات يتضمن الأمـر والنهي ، وذلك أن الـطالب إنما يطلب من عنده مراده ومقصوده ، فإذا ظنه شخصاً فقيل له : ليس مرادك عنـده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده عند هذا دون ذاك .

والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إلـه يستحق العبادة فـإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس بإله إنما الإلـه هو الله وحـده كان هـذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمراً بعبادته .

و« أيضاً » فلو لـم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضي أنه يستحق العبـادة ، فإذ أخبـر أنه هـو المستحق للعبادة دون مـا سواه كـان ذلك أمـراً بما يستحقه .

وليس المراد هنا « بالإله » من عبده عابد بلا استحقاق ، فإن هذه الآلهة كثيـرة [1] ؛ ولكن تسميتهم آلهة والخبـر عنهم بذلـك واتخاذهم معبـودين أمـر باطل ، كما قال تعالى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُـوهَـا أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ مَـا أَنْـزَلَ الله بِهَـا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [2] وقال :

---

(١) لقد عبد العرب الكواكب وألهوا النجوم وسجدوا للأصنام والأوثان وعبدوا الملائكة والجن وغير ذلك كثير والمتصفح لكتاب الله تعالى يجد أن البشرية تردت في أشياء كثيرة وعبدت غيـر الاله الحق . وكان كل نبي أو رسول يأتي إليهم يدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد .
قال تعالى : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [1] فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ، لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن شيئاً من ذلك .

ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم »[2] . فإن بعض الناس قد ألّه ذلك محبة وذلاً وتعظيماً ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه .

و« أيضاً » فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، فيقال : للجمل الخبرية قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبته ونفي ما نفاه حكماً خبرياً ، قد يتضمن حكماً طلبياً .

---

(1) سورة الحج آية رقم ٦٢ .

(2) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ٧٠ وكتاب الرقاق ١٠ باب ما يتقى من فتنة المال ، وقول الله تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ٦٤٣٥ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه بزيادة [والقطيفة والخميصة إن أعطى رضي وإن لم يعط لم يرض . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٨ باب في المكثرين ٤١٣٥ حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره وفي لفظ « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » .

فصل
(في معنى شهادة الرب)

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .

فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده كما قال : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [1] إلى غير ذلك من الآيات وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه ؛ وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه ولهذا قال تعالى :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ [2] .

وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله ، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد ، فإن الدليل (يبين] المدلول عليه ويظهره فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به ، كما قيل : سل الأرض من فجر أنهارها وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلها ، وأوضح نهارها ؛ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٢ .
(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٤ .

وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه ؛ فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو ، وهو سبحانه الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو ، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة . قال ابن كيسان [1] : ﴿ **شهد الله** ﴾ بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو .

---

(١) هناك صالح بن كيسان المدني مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وكان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه وهو أحد الثقات في رواية الحديث قال ابن ناصر الدين : عاش أكثر من مئة سنة وتوفي عام ١٤٠هـ ولعلّ هذا هو الذي يعنيه الامام ابن تيمية .
وهناك محمد بن أحمد بن ابراهيم أبو الحسن المعروف بابن كيسان عالم بالعربية من أهل بغداد من كتبه « تلقيب القوافي والمهذب في النحو ، وغريب الحديث ، ومعاني القرآن وتوفي عام ٢٩٩ هـ » [راجع ارشاد الأريب ٦ : ٢٨٠ وطبقات النحويين واللغويين ١٧٠] .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾

وقوله : ﴿ قائِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ [1] هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :

قيل : هو حال من ﴿ شهد ﴾ أي شهد قائماً بالقسط .

وقيل : من ﴿ هو ﴾ أي لا إله إلا هو قائماً بالقسط ، كما يقال :

لا إله إلا هو وحده ، وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ يجوز أن يعمل فيه كلا العاملين على مذهب الكوفيين ، في أن المعمول الواحد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا في قوله : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [2] و ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ [3] و ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [4] ونحو ذلك . وسيبويه وأصحابه يجعلون لكل عامل معمولاً ، ويقولون حذف معمول أحدهما لدلالة الآخر عليه ، وقول الكوفيين أرجح ، كما قد بسطته في غير هذا الموضع .

وعلى المذهبين فقوله : ﴿ بالقسط ﴾ يخرج على هذا ، إما كونه يشهد قائماً بالقسط ؛ فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما في قوله :

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) سورة الحاقة آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٩٦ .

(٤) سورة ق آية رقم ١٧ وصدر الآية ﴿ إذ يتلقى الملتقيان ﴾

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ [1] فالقيام بالقسط يكون في القول ، وهو القول العدل . ويكون في الفعل ، فإذا قيل : شهد ﴿ قائماً بالقسط ﴾ : أي : متكلماً بالعدل مخبراً به آمراً به : كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك ، فذكر ابن السائب [2] : أن حَبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة ، فقالا : أنت محمد ؟ قال نعم ، قالا : وأحمد ؟ قال نعم ، قالا : نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنا بك . فقال : سلاني . فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله ، فنزلت هذه الآية [3] .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٣٥ وعجز الآية **﴿ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقير فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾** .

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، أبو النضر نسابة ، راوية ، عالم بالتفسير ، والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة مولده بالكوفة ووفاته بها عام ١٤٦ هـ قال ابن النديم : حكى أن سليمان بن علي العباس والي البصرة استقدمه إليها وأجلسه في داره فجعل يملي على الناس تفسير آيات من القرآن ، حتى إذا بلغ إلى آية في سورة « براءة » ففسرها على خلاف المعروف فقالوا لا نكتب هذا التفسير ، فقال محمد : والله لا أمليت حرفاً حتى يكتب تفسير هذه الآية على ما أنزل الله . فرفع ذلك الى سليمان بن علي فقال : اكتبوا ما يقول ودعوا ما سوى ذلك . وصنف كتاباً في « تفسير القرآن » وهو ضعيف الحديث : قال النسائي : حدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير ، وأما في الحديث ففيه مناكير . وقيل كان سبئياً من أصحاب عبد الله بن سبأ . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣] .

(٣) يقول ابن الجوزي في تفسيره في سبب نزولها قولان ، أحدهما : أن فقيراً وغنياً اختصما إلى

ولفظ « القيام بالقسط » كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ؛ فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً ، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لا يستحق العبادة وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ تنبيهاً على جزاء المخلصين والمشركين ، كما في قوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (1)

قال طائفة من المفسرين منهم البغوي (2) نظم الآية :

﴿ شَهِدَ اللهُ قَائِماً بِالْقِسطِ ﴾ ومعنى قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ أي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان أي يدبره ويتعاهد أسبابه وقائم بحق فلان أي مجاز له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .

وإذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى : ﴿ لا إله إلا هو قائماً بالقسط ﴾ أي هو وحده الإله قائماً بالقسط، فيكون وحده مستحقاً للعبادة مع كونه قائماً بالقسط ، كما يقال : أشهد ألا إله إلا الله إلهاً واحداً أحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ؛ فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، مع أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط .

= النبي - ﷺ - فكان ميله مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني فنزلت هذه الآية ، هذا قول السدي (رواه الواحدي في أسباب النزول) ص ١٦١ والثاني أنها متعلقة بقصة ابن أبيرق فهي خطاب للذين جادلوا عنه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي [راجع ابن جرير ٩ : ٤٠٣] .

(1) سورة الرعد آية رقم ٣٣ .

(2) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي ، حافظ للحديث من العلماء أصله من « بغشور » بين هراة ومرو النسبة اليها بغوي ولد عام ٢١٣ هـ ببغداد وتوفي بها عام ٣١٧ هـ له « معالم التنزيل في التفسير » ومعجم الصحابة . [راجع ميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١] .

و« الوجه الأول » لا يدل على هذا ؛ ولأن كونه قائماً بـالقسط كما شهـد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ويعمل بالعدل ، كما قال : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً** ﴾ [1] وقال هود : ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [2] فأخبـر أن الله على صراط مستقيم وهـو العدل الذي لا عوج فيه .

وقـال : ﴿ **هَـلْ يَسْتَـوِي هُـوَ وَمَنْ يَـأْمُـرُ بالـعَدْلِ وَهُـوَ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [3] وهو مَثَل ضـربه الله لنفسـه ولما يشـرك به من الأوثـان كما ذكـر ذلك في قوله :

﴿ **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْـدِي لِلْحَقِّ** ﴾ [4] الآيـة وقـال : ﴿ **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ؟!** ﴾ الآيـات إلى قـولـه ﴿ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾[5] فأخبر أنه خالق منعم عالم ، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً ولا تنعم بشيء ، ولا تعلم شيئاً ، وأخبـر أنها ميتـة ، فهل يستـوي هذا وهذا ؟ فكيف يعبـدونها من دون الله مـع هذا الفـرق الذي لا فـرق أعظم منه ؟ ولهذا كان هذا أعظم الظلم والإفك .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

﴿ **قُـلِ الْحَمْـدُ للهِ وَسَـلاَمٌ عَلَى عِبَـادِهِ الَّـذِينَ اصْـطَفَى اللهُ خَيْـرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [6] ؟ فقوله تعالى :

﴿ **ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً**

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .
(٢) سورة هود آية رقم ٥٦ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٧٦ .
(٤) سورة يونس آية رقم ٣٥ .
(٥) سورة النحل الآيات من ١٧ إلى ٢١ .
(٦) سورة النمل آية رقم ٥٩ .

حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴾ (١)

كلاهما مثل بين الله فيه أنه لا يستوي هو وما يشركون به ، كما ذكر نظير ذلك في غير موضع ، وإن كان هذا الفرق معلوماً بالضرورة لكل أحد ؛ لكن المشركون مع اعترافهم بأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها في المجنة والدعاء والعبادة ونحو ذلك .

و« المقصود هنا » أن الرب سبحانه على صراط مستقيم ، وذلك بمنزلة قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ، والصراط (٢) المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٧٥ ـ ٧٦ .

(٢) أصل الصراط في كلام العرب : الطريق ، قال عامر بن الطفيل :

شحنا أرضهم بالخيل ،حتى تركناهم أذل من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم قال ابن عطية : وهذا ضعيف جداً وقرىء : السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كان الطريق يسترط من يسلكه .

فصل
في تفسير قوله تعالى :
﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)

ذكر عن جعفر بن محمد (٢) أنه قال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم ، أي قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها ، فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولوا العلم ، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي ، فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو .

فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه بشهادته لنفسه ، وهذه خبر عن الله بالتوحيد . وختمها بقوله : ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ والعزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة . تقول العرب : عز يعَز بفتح العين إذا صلب وعز يعِز

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) هو جعفر بن محمد بن المعتز أبو العباس فقيه من رجال الحديث كان خطيب نسف (من بلاد ما وراء النهر) وتوفي بها عام ٤٣٢ هـ له الدعوات في الحديث « وفضائل القرآن » والشمائل والدلائل ، والمسلسلات في الحديث ، ورجال الحديث يأخذون عليه رواية الموضوعات من غير تبين » . [راجع الفوائد البهية ٥٧ والرسالة المستطرفة ٣٩ ، والجواهر المضيئة ١ : ١٨٠] .

بكسرها إذا امتنع ، وعز يعُز بضمها إذا غلب . فهو سبحانه في نفسه قوي متين ، وهو منيع لا ينال ، وهو غالب لا يغلب .

والحكيم [1] يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله ، فإذا أمر بأمر كان حسناً ، وإذا أخبر بخبر كان صادقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم في إراداته وأفعاله وأقواله .

---

(١) لفظ الحكيم ورد في القرآن على خمسة أوجه :
الأول : بمعنى الأمور المقضية على وجه الحكمة قال تعالى ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ سورة الدخان آية ٤ .
الثاني : بمعنى اللوح المحفوظ قال تعالى : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [سورة الزخرف آية رقم ٤] الثالث : بمعنى الكتاب المشتمل على قبول المصالح ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾[أول سورة يونس] الرابع : بمعنى القرآن العظيم المبين لأحكام الشريعة ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ الخامس : المخصوص بصفة الله عز وجل تارة مقروناً بالعلّو والعظمة ﴿ إنه عليٌّ حكيم ﴾ وتارة مقروناً بالعلم والدراية ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ [يوسف آية ٨٣] وتارة مقروناً بكمال الخبرة ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ [أول سورة هود] وتارة مقروناً بكمال العزة قال تعالى ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ [سورة النساء آية رقم ١٥٨] .

فصل

في نظم هذه الآية : ﴿ للتوحيد والعدل والحكمة والقدرة ﴾

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم ؛ فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك ، وتضمنت عدله المنافي للظلم ، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه ، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ، ففيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة والمعتزلة قد تحتج بها على ما يدعونه من التوحيد والعدل والحكمة ولا حجة فيها لهم ؛ لكن فيها حجة عليهم ، وعلى خصومهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان ؛ الذين يقولون : كل ما يمكن فعله فهو عدل ، وينفون الحكمة ، فيقولون : يفعل لا لحكمة فلا حجة فيها لهم ؛ فإنه أخبر أنه لا إله إلا هو ، وليس في ذلك نفي الصفات ، وهم يسمون نفي الصفات توحيداً ؛ بل الإله هو المستحق للعبادة ، والعبادة لا تكون إلا مع محبة المعبود .

والمشركون جعلوا لله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، فدل ذلك على أن المؤمنين يحبون الله أعظم من محبة المشركين لأندادهم ؛ فعلم أن الله محبوب لذاته ، ومن لم يقل بذلك لم يشهد في الحقيقة أن لا إله إلا هو .

والجهمية والمعتزلة يقولون : إن ذاته لا تحب ، فهم في الحقيقة منكرون إلهيته ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وقيامه بالقسط مقرون بأنه لا إله إلا هو ؛ فذكر ذلك على أنه لا يماثله أحد في شيء من أموره ، والمعتزلة تجعل القسط منه مثل القسط من المخلوقين فما كان عدلاً من المخلوقين كان عدلاً من الخالق ، وهذا تسوية منهم بين الخالق والمخلوق ؛ وذلك قدح في أنه لا إله إلاّ هو.

والجهمية عندهم أي شيء أمكن وقوعه كان قسطاً ، فيكون قوله : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ كلاماً لا فائدة فيه ولا مدح ؛ فإنه إذا كان كل مقدور قسطاً كان المعنى أنه قائم بما يفعله ، والمعنى أنه فاعل لما يفعله ، وليس في هذا مدح ، ولا هو المفهوم من كونه قائماً بالقسط ؛ بل المفهوم منه أنه يقوم بالقسط لا بالظلم مع قدرته عليه ، لكنه سبحانه مقدس منزله أن يظلم أحداً ، كما قال : ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَاً** ﴾ (١) وقد أمر عباده أن يكونوا قوامين بالقسط ، وقال : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ (٢) فهو يقوم عليها بكسبها لا بكسب غيرها ، وهذا من قيامه بالقسط . وقال ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً** ﴾ (٣) الآية .

وأيضاً فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفس بما كسبت أنه لا يظلم مثقال ذرة ، كما قال : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ** ﴾ (٤) إلى آخرها.

والمعتزلة تحبط الحسنات العظيمة الكثيرة بكبيرة واحدة وتحبط ايمانه وتوحيده بما هو دون ذلك من الذنوب ، وهذا مما تفردوا به من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه ، فهم ينسبون الله إلى الظلم لا إلى العدل ، والله أعلم .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٣ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة الزلزلة آية رقم ٧ .

فصل

في تفسير قوله تعالى :
﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ وفيه الرد على الجبرية والقدرية

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إثبات لعزته وحكمته ، وفيها رد على الطائفتين الجبرية والقدرية : فإن الجبرية - أتباع جهم - ليس له عندهم في الحقيقة حكمة ولهذا لما أرادت الأشعرية أن تفسر حكمته فسروها إما بالقدرة ، وإما بالعلم وإما بالإرادة [1] .

ومعلوم أنه ليس في شيء من ذلك إثبات لحكمته ، فإن القادر والعالم والمريد قد يكون حكيماً وقد لا يكون ، والحكمة أمر زائد على ذلك وهم يقولون : إن الله لا يفعل لحكمة ، ويقولون أيضاً الفعل لغرض إنما يكون ممن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ؛ وذلك ينفي عن الله . والمعتزلة أثبتوا أنه يفعل لحكمة ، وسموا ذلك غرضاً : هم وطائفة من المثبتة ؛ لكن قالوا : الحكمة أمر منفصل عنه لا يقوم به ، كما قالوا في كلامه وإرادته ؛ فاستطال عليهم المجبرة بذلك ، فقالوا : الحكيم من يفعل لحكمة تعود إلى نفسه ، فإن لم تعد إلى نفسه لم يكن حكيماً بل كان سفيهاً .

فيقال للمجبرة : ما نفيتم به الحكمة هو بعينه حجة من نفي الإرادة من

---

(١) يراجع ما كتبه الأشعري في كتابه (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع) باب الكلام في الإرادة وأنها تعم سائر المحدثات ص ٤٧ ط جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر .

المتفلسفة ونحوهم ، قالوا : الإرادة لا تكـون إلا لمن ينتفع ويتضـرر ، ويتألم ويلتـذ ، وإثبات إرادة بـدون هذا لا يعقل ، وأنتم تقـولـون : نحن مـوافقـون للسلف وسـائر أهـل السنة على إثبـات الإرادة ، فما كـان جوابـاً لكم عن هذا السؤال فهو جواب سائر أهل السنة لكم حيث أثبتم إرادة بلا حكمة يراد الفعل لها ، وقد بسط هـذا في غير هـذا الوضـع ، وبين ما في لفظ هـذه الحجة من الكلمات المجملة والله أعلم .

فصل
في أن شهادة أولى العلم تتضمن الشهادة بالوحدانية

وإثبات شهادة أولى العلم يتضمن أن الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين ، الملائكة والبشر ، وهذا متفق عليه يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويشهدون بما شهد به لنفسه [١] .

وزعم طائفة من الاتحادية أنه لا يُوحِّد أحد الله وأنشدوا :

ما وحد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد [٢]

وهؤلاء حقيقة قولهم من جنس قول النصارى في المسيح [٣] ، يدعون أن حقيقة التوحيد أن يكون الموحد هو الموحد فيكون الحق هو الناطق على لسان العبد والله الموحد لنفسه لا العبد ، وهذا في زعمهم هو السر الذي كان الحلاج [٤] يعتقده ، وهو بزعمهم قول خواص العارفين ؛ لكن لا يصرحون

---

(١) قال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) هذا البيت لمحيي الدين بن عربي صاحب كتاب « الفتوحات المكية » وقد تكلمنا عنه في غير هذا الموضع بما يغني عن إعادته .

(٣) قالت النصارى : اللاهوت اتحد بالناسوت . أي أن جسد عيسى عليه السلام اتحد بخالقه في صورة واحدة . ﴿ **قاتلهم الله أنا يؤفكون** ﴾ ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾ .

(٤) هو الحسين بن منصور الحلاج ، أبو مغيث يعده البعض في زمرة الملحدين أصله من بيضاء

به . وحقيقة قولهم : أنهم اعتقدوا في عموم الصالحين ما اعتقدته النصارى في المسيح ؛ لكن لم يمكنهم إظهاره ، فإن دين الإسلام يناقض ذلك مناقضة ظاهرة ، فصاروا يشيرون إليه ، ويقولون : إنه من السر المكتوم ومن علم الأسرار الغيبية فلا يمكن أن يباح به ، وإنما هو قول ملحد وهو شر من قول النصارى ، فإن النصارى إنما قالوا ذلك في المسيح لم يقولوه في جميع الصالحين .

وقد بسط الكلام على ذلك في غير موضع ، إذ المقصود التنبيه على ما في هذه الآية من أصول الإيمان ، والتوحيد وإبطال قول المبتدعين .

= فارس ونشأ بواسط العراق ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ كان يظهر مذهب الشيعة للملوك (العباسيين) ومذهب الصوفية للعامة ، وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الالهية فيه . أمر المقتدر العباس بالقبض عليه فسجن وعذب وضرب قال ابن خلكان: وقطعت أطرافه الأربعة ثم حز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في نهر دجلة ، ونصب الرأس على جسر بغداد .

وقال ابن النديم : كان محتالاً يتعاطى مذاهب الصوفية ويدعى كل علم ، جسور على السلاطين مرتكباً للعظائم ، يروم إقلاب الدول ويقوم بالحلول : [راجع الفهرست ١ : ١٩٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٣٢ ولسان الميزان ٢ : ٣١٤] .

فصل

« يتضمن تعريف العباد أن خالقهم قد شهد »

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد به لنفسه ، فلا بدّ أن يعرفهم أنه شهد ، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن العلم بها لم ينتفع بذلك ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة .

ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ** ﴾ [1] أي عنده شهادة من الله وكتمها ، وهو العلم الذي بينه الله ، فإنه خير من الله وشهادة منه بمَا فيه .

وقد ذمّ من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لإبراهيم وأهل بيته ، وكتموا إسلامهم ، وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ ، وبصفته وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ** ﴾ [2] . وقال تعالى :

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٥٩ وقد نزلت في علماء أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر محمد - =

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه ، لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ؛ ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ؛ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَالله أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال : « البَيِّعان بالخيار ما لَمْ يتفرَّقا فإن صدقا وبيّنا بُورك لهما في بَيْعهما وإن كَذَبَا وكتما مُحِقتْ بركةُ بيعهما » (٣) .

= ﷺ (راجع تفسير الطبري ٣ : ٣٥٠ والدرر المنثور ١ : ١٦١)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ وقد نزلت في مؤمني أهل الكتاب : عبد الله بن سلام وأصحابه .
قال عبد الله بن سلام : لأنا كنت أشد معرفة برسول الله - ﷺ مني بابني فقال له عمر بن الخطاب ، وكيف ذاك يا بن سلام ؟ قال : لأني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً وأنا لا أشهد بذلك على ابني ، لأني لا أدري ما أحدث النساء فقال عمر : وفقك الله يا بن سلام [راجع الحديث مفصلاً في الدرر المنثور ١ : ١٤٧] .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب البيوع ١٠ باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين ٤٣ (١٥٣١) حدثنا يحيى بن يحيى . قال : قرأت على مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال وذكره . وأخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات ١٧ باب البيعان بالخيار ما لم يفترقا ٢١٨١ حدثنا محمد بن رمح المصري ، أنبأنا الليث بن سعد عن نافع عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله - ﷺ - وذكره ، وأخرجه الامام أحمد في المسند ٢ : ٤ ، ٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ ، ١٢٥ (حلبي) وأخرجه البخاري في البيوع ١٩ ، ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ وصاحب الموطأ في البيوع ٧٩

فصل
يتضمن أن شهادة الله للعباد تكون بالسمع والبصر

وإذا كان لا بد من بيان شهادته لِلْعباد ؛ ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين : بالسمع والبصر ، فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يُعاين آياته المخلوقة الفعلية ؛ وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك ، وذلك حاصل بآياته ، فإن آياته هي دلالته وبراهينه التي بها يعرف العباد خبره وشهادته ، كما عرفهم بها أمره ونهيه ، وهو عليم حكيم ؛ فخبره يتضمن أمره ونهيه ، وفعله يبين حكمته . فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولا بدَّ أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه ؛ وذلك قد عرفه بآياته التي أيّد بها الأنبياء ودلّ بها على صدقهم ، فإنه لم يبعث نبياً إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (١) أي بالآيات البينات ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢) بِالبَيِّنَاتِ ، وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٥ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٤٣ .

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) . وقال ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٣) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (٤) .

فالآيات والبراهين التي أرسل الله بها الرسل دلالات الله على صدقهم دل بها العباد ، وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به ؛ ولهذا قال بعض النظار : إن المعجزة تصديق الرسول ، وهي تجري مجرى المرسل ، صدقت فهي تصديق بالفعل ، تجري مجرى التصديق بالقول : إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه وتصديقه إخبار بصدقه ، وشهادة له بالصدق ، وشهادة له بأنه أرسله ، وشهادة له بأن كلما يبلغه عنه كلامه .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٨٤ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن (١) باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ٤٩٨١ ـ حدثنا الليث ، حدثنا سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ـ ﷺ وذكره . وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٧٠ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ـ ﷺ ـ الى جميع الناس ونسخ الملل الأخرى ٢٣٩ (١٥٢) بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال وذكره . وأخرجه الامام أحمد في المسند ٢ : ٢٤١ ، ٤٥١ (حلبي) .

وهو سبحانه اسمه المؤمن ، وهو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه .

وأما الطريق الثاني فهو أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق ؛ كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾ (١) .

أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً وإن لم ير المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التي دل بها على صدق الرسول فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة ، التي تدل على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى . وكلامه .

وكذلك ذكر الكتاب المنزل ، فقال ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ إِلَّا الظَّالِمُوْنَ ﴾ (٢) .

فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به . وقوله : ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (٣) سواء أريد به أنه بين في

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٤٩ .

صدورهم أو أنه محفوظ في صدورهم ، أو أريد به الأمران وهو الصواب ، فإنه محفوظ في صدور العلماء ، بين في صدورهم ، يعلمون أنه حق ، كما قال : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (١) وقال : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (٢) ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٤) . فيها بيان ما يوجب السعادة للمؤمنين وينجيهم من العذاب .

ثم قال : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٥) فإنه إذا كان عالماً بالأشياء ، كانت شهادته بعلم ، وقد بين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول ، ومنها القرآن . والله أعلم .

---

(١) سورة سبأ آية رقم ٦ .
(٢) سورة الرعد آية رقم ١٩ .
(٣) سورة الحج آية رقم ٥٤ .
(٤) سورة العنكبوت الآيات من ٥٠ إلى ٥٢ .
(٥) سورة العنكبوت الآيات ٥٢..

فصل
« صدق الله معلوم بالفطرة لكل مخلوق »

وأما كونه سبحانه صادقاً فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد [1] ؛ فإن الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم ، فهو سبحانه منزه عن ذلك ، وكل إنسان محمود يتنزه عن ذلك ؛ فإن كل أحد يذم الكذب فهو وصف ذم على الإطلاق .

وأما عدم علم الإنسان ببعض الأشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علماً بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب ؛ فلهذا يبين الرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثاً من كل أحد ، وأحسن حكماً وأصدق قيلاً ؛ لأنه سبحانه أحق بصفات الكمال من كل أحد ﴿ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [2] وهو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته .

و ﴿ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾ [3] وهم أهل الكتاب فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ؛ فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أوتي به كالأمر

---

(١) قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ سورة النساء آية رقم ٨٧ .
وقال تعالى : ﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ﴾ سورة النساء آية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

بعبادة الله وحده [1] ، والنهي عن الشرك ، والإخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية ، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته ، وكتابه ، وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي ﷺ ، وهي الآيات والبراهين الدالة على صدقه أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه له بالنبوة .

فذكر هذين النوعين بقوله : ﴿ **قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابْ** ﴾[2] فتلك يعلم بها صدقة بالنظر العقلي في آياته وبراهينه ، وهذه يعلم بها صدقة بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله : ﴿ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةَ ؟ قُلِ : الله شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [3] فقوله : ﴿ **قُلِ الله** ﴾ [4] فيها وجهان :

قيل : هو جواب السائل ، وقوله (شهيد) خبر مبتدأ : أي هو شهيدٌ وقيل : هو مبتدأ ، وقوله : ﴿ **شهيداً** ﴾ خبره فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام ، و« الأول » على قراءة من يقف على قوله ﴿ **قل الله** ﴾ و« الثاني » على قراءة من لا يقف ، وكلاهما صحيح ؛ لكن الثاني أحسن وهو أتم .

وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة** ﴾ علم أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقيل له : ﴿ **قل : الله شهيد**

---

(١) قال تعالى : ﴿ **والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله هود آية ٥٠** ﴾
﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ هود آية ٦١
﴿ **والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ هود آية ٨٤ .
﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله** ﴾ النحل آية ٣٦ .
﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ المؤمنون آية ٢٣ .
﴿ **وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله** ﴾ العنكبوت آية ١٦ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

بيني وبينكم ﴾ ولما قال : ﴿ **الله شهيد بيني وبينكم** ﴾ كان في هذا ما يغني عن قوله : إن الله أكبر شهادة . وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله ﴿**أكبر شهادة**﴾ بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم ؛ فإن هذا مما يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه ؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بين أنه رسول صادق .

ولهذا أعقبه بقوله : ﴿ **وأُوحِي إليَّ هَـذَا القرآنُ لِأُنـذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** ﴾ [1] فإن هذا القرآن فيه الإنذار ، وهو آية شهد بها أنه صادق وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

وقوله في هذه الآية : ﴿ **قُلِ الله شهيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [2] وكذلك قوله : ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [3] وكذلك قوله : ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بالله بيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً** ﴾ [4] وكذلك قوله :

﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُون فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [5] فذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم ولم يقل شاهد علينا ولا شاهد لي لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم ، والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة ؛ فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة ، وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه والمبطل بما يستحقه .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٤٣ والاسراء آية رقم ٩٦ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٥٢ .

(٥) سورة الأحقاف آية رقم ٨ .

وهكذا شهادة الله بيد الرسول ومتبعيه ، وبين مكذبيه ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة ، ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى :

﴿ هُوَ الذي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (١) فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ، ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ، ويكون منصوراً كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبينات وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكتابَ والميزانَ لِيقُوم الناسُ بِالْقِسْطِ وأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فيه بأسٌ شَديدٌ ﴾ (٢) فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله : ﴿ شهد الله ﴾ قال مجاهد والفراء وأبو عبيده (٣) ﴿ شهد الله ﴾ أي حكم وقضى ، لكن الحكم في قوله ﴿ بيني وبينكم ﴾ أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر : فلان شاهد بيني وبينك ، أي يتحمل الشهادة بما بينا ، فالله يشهد بما أنزله ويقوله وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ، ولكن المكذبون ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد يتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن والله أعلم .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٥ .

(٣) هو معمر بن المثنى البصري أبو عبيدة النحوي ، من أئمة العلم بالأدب واللغة ، مولده ووفاته في البصرة ، استقدمه هارون الرشيد الى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه . قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه وكان أبا ضيا شعوبياً من حفاظ الحديث . قال ابن قتيبة كان يبغض العرب وصنف في مثالهم كتباً له مؤلفات كثيرة منها « نقائض جرير والفرزدق » و« مجاز القرآن » و« معاني القرآن » وطبقات الشعراء . توفي عام ٢٠٩ هـ [راجع وفيات ٢ : ١٠٥ وتذكرة ١ : ٣٣٨] .

فصل

« شهادة الله تعالى بما أنزله على رسله »

وكذلك قوله : ﴿ لَكِنِ الله يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنـزَلَهُ بِعِلْمِـهِ وَالمَلاَئِكَـةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بالله شَهِيداً ﴾ [1] فإن شهادته بمـا أنزل إليـه هي شهادتـه بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه ، فما فيه من الخبـر هو خبر عن علم الله ليس خبراً عمن دونه ، وهذا كقوله :

﴿ فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَـا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ [2] وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له ، فـإن جميع الأشيـاء معلومة لـه ، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق ؛ لكن المعنى أنـزله فيـه علمه ، كمـا يقال فـلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ؛ فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : ﴿ قُلْ أَنـزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [3] ولم يقل تكلم بـه بعلمه ؛ لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض .

فـإذا قال : ﴿ أنـزله بعلمـه ﴾ تضمن أن القرآن المنـزل إلى الأرض فيه علم الله ، كما قال :

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٤ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٦ .

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [1] وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ؛ لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم ـ ونفسه هي ذاته المقدسة ـ إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح عليه السلام :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [2] ، وقالت الملائكة : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [3] وقال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [4] وقال :

﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ ﴾ [5] فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به .

وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من يشاء ، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه ؛ لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به ، بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه وهو سبحانه قال : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [6] فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه ، وأن الرسول صادق . وكذلك قال هود :

﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دون الله إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [7] لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله :

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ١١٦ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٢ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(٥) سورة الجن آية رقم ٢٦ ـ ٢٧ .
(٦) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .
(٧) سورة هود آية رقم ١٣ .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ [1] ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ؛ وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزله بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله وقوله : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [2] لأن فيه [من] الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الأخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله ، فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .

وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير

---

(1) سورة الطور آية رقم ٣٤ .

(2) سورة الفرقان آية رقم ٦ والسر ما يكتم في النفس من الحديث ، وساره أوصاه بأن يسره وتسار القوم وقوله تعالى ﴿ وأسروا الندامة ﴾ أي كتموها ، وقيل معناه أظهروها بدليل قوله تعالى : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب ﴾ وفي الحديث : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته » ومن دعائه : يا عالم السر ، ويا دائم البر ، ويا كاشف الضر ، أصلح سرنا ، وأدم برنا واكشف ضرنا . يا مولانا وقوله : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ فسروه بالصوم والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة قال الشاعر :

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت ... مني الضلوع من الأسرار والخبر
لكنت أول من أنسي سرائره ... إذ كنت من نشرها يوماً على خطر

وقد ورد السر في القرآن على أوجه :

الأول : بمعنى النكاح ﴿ لا تواعدوهن سراً ﴾ أي نكاحاً .

الثاني : بمعنى ضد العلانية ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ ومعناه أن السر ما تكلم به في خفاء وأخفى منه ما أضمر ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ وله نظائر .

جهته ، وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم وإخباره بأمور هي سر عند أصحابها ، كما قال :

﴿ وَإذ أَسَرَّ النَّبِي إلى بعْض أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ إلى قوله : ﴿ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴾ [1] فقوله :

﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [2] استدلال بإخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال هو ﴿ إفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعانَهُ عَلَيْه قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [3] وقوله : ﴿ أَنْزَلَهُ ﴾ استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ؛ ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله.

---

(١) سورة التحريم آية رقم ٣ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٤ .

فصل

« في أن شهادة الله تتضمن مـا يجعله في القلوب من العلم وما تنطق به الألسنة »

ومن شهـادته مـا يجعله في القلوب من العلم ، وما تنـطق به الألسن من ذلـك ، كما في الصحيـح أن النبي ﷺ مر عليـه بجنازة فـأَثْنُوا عَلَيهـا خيـراً ، فقال : « وجبتْ وَجَبَتْ » ومرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً ، فقـال : « وجبتْ وجبتْ » قالوا يا رسول الله ! مـا قولـك : وجبت وجبت ؟ قال : هـذه الجنازة أثنيتم عليهـا خيراً فقلت وجبت لهـا الجنة ، وهـذه الجنـازة أثنيتم عليهـا شـراً فقلت وجبت لهـا النار ، « أنتم شهـداء الله في الأرض » [1] فقولـه : « شهداء الله » أضافهم إلى الله تعالى .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ٨٥ باب ثناء الناس على الميت ١٣٦٧ ـ حـدثنا عبد العزيز بن صهيب ، قال : سمعت أنس بن مالك ـ رضي الله عنه يقول وذكره وأخرجه الترمذي في كتـاب الجنائـز ٦٣ باب مـا جاء في الثنـاء الحسن على الميت ١٠٥٨ ـ حـدثنـا أحمـد بن منيع ، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حميد عن أنس وذكره .

قال الترمذي : حديث أنس حـديث حسن صحيح وفي البـاب عن عمر وكعب بن عجـره وأبي هريرة ، وأخرجه مسلم في ١١ ـ كتاب الجنائز حديث ٦٠ ورواه ابن مـاجه في كتـاب الجنائـز ٢٠ بـاب ما جـاء في الثناء على الميت ١٤٩٢ بسنـده عن أبي هـريـرة ـ رضي الله عنـه ـ وفي الزوائد : رواه النسائي إلا قولـه « في مناقب الخيـر ومناقب الشـر » وأصله في الصحيحين من حديث أنس ، ويوافقه حديث عمـر ، ورواه الترمـذي والنسائي ، وإسنـاد ابن ماجه صحيح ، ورجاله رجال الصحيحين .

والشهادة تضاف تارة إلى من يشهد له . وإلى من يشهد عنده ، فتقبل شهادته كما يقال : شهود القاضي وشهود السلطان ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم ، وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحمله من الشهادة ، ليؤديها عند غيره ، كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاريرهم .

فشهداء الله الذين يشهدون بما جعله وفعله ويؤدون الشهادة عنه، فإنهم إذا رأوا من جعله الله برّاً تقياً يشهدون أن الله جعله كذلك ، ويؤدون عنه الشهادة ، فهم شهداء الله في الأرض ، وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به ، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته وقد قال تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [1] وفسر النبي ﷺ البشرى [2] بالرؤيا الصالحة ، وفسرها بثناء الناس وحمدهم ، والبشرى خبر بما يسر ، والخبر شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى ، والله سبحانه أعلم .

وسُئِلَ رحِمَه الله
عن قوله تعالى ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمناً ﴾ [3]

المراد به: أمّنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان ؟ أم المراد به إذا أحدث حدثاً لا يقتص منه ما دام في الحرم ؟ .

فأجاب التفسير المعروف في أن الله جعل الحرم بلداً آمناً قدراً وشرعاً ،

---

(١) سورة يونس آية رقم ٦٤ .

(٢) عن أبي الدرداء قال : سألت رسول الله ـ ﷺ عن قوله تعالى ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ فقال : ما سألني أحد عنها غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » . أخرجه الترمذي في جامعه وقال الزهري وعطاء وقتادة : هي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .

فكـانوا في الجـاهلية يسفـك بعضهم دمـاء بعض خـارج الحـرم ، فـإذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمته ففي الإسلام كـذلك وأشـد .
لكن لو أصاب الرجل حـداً خارج الحـرم ثم لجأ اليـه فهل يكـون آمنا لا يقـام عليه الحد فيه أم لا ؟ فيه نزاع . وأكثر السلف على أنه يكون آمنـاً ، كما نقـل عن ابن عمـر وابن عباس وغيـرهما وهـو مذهب أبي حنيفـة والإمام أحمـد بن حنبل وغيرهما [1] .

وقد استدلوا بهذه الآية وبقول النبي ﷺ « إن الله حرم مكة يوم خلق الله السموات والأرض ، وأنها لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحلٍ لأحد بعدي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها فإن أحـد ترخّص بقتـال رسول الله ﷺ ، فقولوا : إنما أحلها الله لرسوله ولم يحلها لك » [2] .

---

(١) روي عن الثوري عن منصور عن مجاهد عن ابن عبـاس من أصاب حـداً في الحرم أقيم عليـه فيه ، وإن أصابه في الحل ، ولجأ الى الحرم لم يكلم ولم يبايع حتى يخـرج من الحرم فيقـام عليه الحد .

وهو قول الشعبي ، فهذه حجة الكـوفيين وقد فهم ابن عبـاس ذلك من معنى الآيـة ، وهو حبـر الأمة وعالمها ، والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النعم على كل من كان بها جاهلاً ولها منكـراً من العرب كما قال تعالى : أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم » .

(٢) الحـديث أخـرجـه البخـاري في كتـاب المغـازي ٥١ بـاب ٤٢٩٣ـ ٤٢٩٥ حـدثنـا الليث عن المقبري ، عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهـو يبعث البعوث لمكـة ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ـ ﷺ ـ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، انه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : وذكـره . وأخرجـه ابن ماجـه في كتـاب المناسـك ١٠٣ باب فضـل مكة ٣١٠٩ ـ حـدثنا يـونس بن بكير حـدثنـا محمـد بن اسحاق ، ثنا أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن نياق عن صفيـة بنت شعبة قـالت سمعت رسول الله ـ ﷺ يخطب عام الفتح فقال : وذكره وفيـه زيادة [فقـال العباس إلا الأذخـر ، فإنـه للبيوت والقبور ، فقال رسول الله ـ ﷺ ، إلا الأذخر .

في الزوائد : هذا الحديث وإن كان صريحاً في سماعها من النبي ـ ﷺ ـ لكن في إسناده أبـان ابن صالح وهو ضعيف .

=

ومعلوم أن الرسول إنما أبيح له فيها دم من كان مباحاً في الحل وقد بين أن ذلك أبيح له دون غيره .

والمراد بقوله ﴿ وَمَن دخله ﴾ الحرم كله .

وأما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام ، كما جاء في الحديث « مَن ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ثم لم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » [1] والله أعلم .

وأخرجه الترمذي ٧ ـ كتاب الحج (١) باب ما جاء في حرمة مكة ٨٠٩ بسنده عن أبي شريح العدوي : أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة وذكره .
قال الترمذي : حديث أبي شريح حديث حسن صحيح ، وأبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو ، وهو العدوي وهو الكعبي .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الحج ٣ باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج ٨١٢ ـ حدثنا محمد بن يحيى القطعي البصري ، حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هلال بن عبد الله ، مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي ، حدثنا أبو اسحاق الهمداني عن الحارث، عن علي قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره وفيه زيادة [ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً] .

فصل

في سبب نزول

قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين : كابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، والنخعي ، وأهل اللغة كالفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ، وابن الأنباري ، وعبارة الفراء : يخوفكم بأوليائه ، كما قال : ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ﴾ (٢) ببأس شديد . وقوله : ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (٣) وعبارة الزجاج : يخوفكم من أوليائه . قال ابن الأنباري : والذي نختاره في الآية يخوفكم أولياءه . تقول العرب : أعطيت الأموال أي أعطيت القوم الأموال فيحذفون المفعول الأول ويقتصرون على ذكر الثاني ، وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفاً مطلقاً ، ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة فحذف الأول ليس مقصوداً ، وهذا يسمى حذف اختصار ، كما يقال : فلان يعطي الأموال والدراهم .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥ وراجع ما كتبه القرطبي عند تفسيره لهذه الآية الجزء الرابع ص ٢٨٢ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٢ .

(٣) سورة غافر آية رقم ١٥ .

وقد قال بعض المفسرين : يخوف أولياءه المنافقين ، ونقل هذا عن الحسن والسدي ، وهذا له وجه سنذكره ؛ لكن الأول أظهر ، لأن الآية إنما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، كما قال قبلها :

﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً** ﴾ [1] الآيات . ثم قال :

﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كنتُم مُؤْمِنِينَ** ﴾ [2] فهي إنما نزلت فيمن خوّف المؤمنين من الناس . وقد قال : ﴿ **يخوف أولِيَاءَهُ** ﴾ ثم قال : ﴿ **فلا تخافوهم** ﴾ والضمير عائد إلى أولياء الشيطان الذين قال فيهم ﴿ **فاخشوهم** ﴾ قبلها .

وأما ذلك القول فالذي قاله فسرها من جهة المعنى ، وهو أن الشيطان إنما يخوف أولياءه بالمؤمنين ؛ لأن سلطانه على أوليائه بخوف يدخل عليهم المخاوف دائماً ، فالمخاوف منصبة إليهم محيطة بقولهم ، وإن كانوا ذوي هيئات وعدّد وعُدد فلا تخافوهم .

وأما المؤمنون فمنهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار ، أو أنهم

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥ ولأرباب الإشارات في الخوف مرجعها الى مراقبة الله تعالى . قال الأستاذ أبو علي الدقاق . دخلت على أبي بكر بن فورك رحمه الله عائداً فلما رآني دمعت عيناه ، فقلت له : إن الله يعافيك ويشفيك فقال لي أترى أني أخاف من الموت . . ؟ إنما أخاف مما وراء الموت ، وفي سنن ابن ماجه عن أبي ذرٍّ قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون الى الله ، والله لوددت أني كنت شجرة تعضد ، خرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب ، ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال : « لوددت أني كنت شجرة تعضد » والله أعلم .

أرادوا المفعول الأول : أي يخوف المنافقين أولياءه ، وإلا فهو يخوف الكفار كما يخوف المنافقين ، ولو أنه أريد أن يخوف أولياءه : أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله . ﴿ **فَلَا تَخَافُوهم** ﴾ .

وأيضاً فهذا فيه نظر ؛ فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ** ﴾ [1] وقال تعالى :

﴿ **يَعِدُهُم وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً** ﴾ [2] ولكن الكفار يلقى الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : ﴿ **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ** ﴾ [3] . وقال : ﴿ **إِذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ [4] .

وقال : ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ** ﴾ [5] وفي حديث قرطبة أن جبريل قال : « إني ذاهب إليهم فمزلزل بهم الحصن » . فتخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو من الله نصرة للمؤمنين .

ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام ، فهم يوالون العدو ، فصاروا بذلك منافقين ، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم كما قال تعالى :

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٤٨ .
(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٠ .
(٣) سورة الحشر آية رقم ١٣ .
(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٢ .
(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٥١ .

﴿ ويَحْلِفُونَ بِالله إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ (١) ،وقال تعالى :

﴿ فَإِذا جَاءَ الخَوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ يَودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ في الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ (٢) فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ؛ لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين كما دل عليه سياق الآية ولفظها . والله أعلم .

وإذا جعلهم الشيطان مخوفين فإنما يخافهم من خوّفه الشيطان منهم فجعله خائفاً .

فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم . ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ (٣) بل يجب عليه أن يخاف الله ، فخوف الله أمر به ، وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه .

وقال تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِي ﴾(٤) فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، والذين يبلغون رسالات الله يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . وقال : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٥٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم ١٩ ـ ٢٠ .
(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ١٥٠ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٤٠ .

وبعض الناس يقول : يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، وهـذا كلام ساقط لا يجوز ؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ، ولا يخاف أحداً لا من يخـاف الله ولا من لا يخـاف الله ، فــإن من لا يخـاف الله أَخَسُّ وأَذَل أن يُخَاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف [1] منه قد نهى الله عنه والله أعلم .

(١) الخوف أجل منازل السالكين وأنفعها للقلب ، وهو فرض على كل أحد قال الله تعالى ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ سورة آل عمران آية رقم ١٧٥] وقال ﴿ وإياي فاتقون ﴾ البقرة آية ٤١] ومدح الله تعالى أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال : إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) في مسند الامام أحمد وجامع الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت قلت يا رسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهو الذي يسرق ويشرب الخمر ويزني ..؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

فصل
قال شيخ الإسلام

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في هذه السورة المكية التي أنـزلها في أول الأمر بمكة في السور التي ذكر فيها أصول الدين التي اتفق عليها الأنبياء ثم ذكرها في سورة آل عمران ، وهي من السور المدنية التي يخاطب فيهـا من اتبع الأنبيـا ء من أهل الكتاب والمؤمنين لما قدم عليه نصارى بخران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إنَّ الله اصْطفىٰ آدَمَ وَنُـوحاً وَآل إبْـراهِيمَ وَآل عِمْرانَ[1] عَلَى العَالَمِينَ ذُرِّيةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إذْ قالَتِ امْرَأَةُ عِمْرانَ[2] رَبِّ إنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقبَّلْ مِنِي إنَّـكَ أنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعتْهَا قَالَتْ رَبِّ إنِي وَضَعْتُها أُنْثىٰ والله أعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كـالأُنْثىٰ وإنِّي سَمَّيْتُهَـا مَرْيَمَ وَإنِي أُعِيـذُهَا بِـكَ وذُرِّيَتَها مِنَ الشَّيـطانِ الـرَّجِيمِ ﴾[3] وفي الصحيحـين عن أبي هريـرة عن النبي ﷺ أنه قـال : « مـا مِنْ مَـوْلـودٍ إلا يمسـه

---

(١) المراد بعمران هذا : هو والد مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام.قال محمد بن اسحاق : هو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا بن ابراهيم بـن غرايا بن نـاوش بن أجر بن بهـوا بن نازم بن مقاسط بن إيشا بن إياز بن رخيعم بن سليمان بن داود عليهما السلام ، فعيسى عليه السلام من ذرية ابراهيم عليه السلام .

(٢) امرأة عمران هذه أم مريم عليها السلام وهي حنة بنت فاقوذ .

(٣) سورة آل عمران الآيات من ٣٣ ـ ٣٦ .

الشيطان فيستهل صارخاً من الشيطان إلا مريم وابنها »[1] ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَتَها مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ ﴾[3] .

ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَميعُ الدُّعاءِ . فنادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمةٍ مِنَ اللهِ[4] وَسَيِّداً وَحَصوراً[5] وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ . وَإِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ العَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

---

(١) قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ وذكره أخرجاه من حديث عبد الرزاق ، ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن الزبيدي عن الزهري عن ابي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، ورواه مسلم عن ابي الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٣٧ .

(٤) أي بعيسى بن مريم ، وقال الربيع بن أنس هو أول من صدق بعيسى بن مريم . وقال ابن جريج قال ابن عباس في قوله (مصدقاً بكلمة من الله) قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة وكانت ام يحيى لتقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه له في بطن أمه .

(٥) روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، وأبي الشعثاء ، وعطية العوفي أنهم قالوا : الحصور : الذي لا يأتي النساء .

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ[1] قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَٱتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ[2] نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ . إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) قال محمد بن اسحاق : عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن شرحبيل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج » .

(٢) الحواريون قيل : كانوا قصارين ، وقيل سموا بذلك لبياض ثيابهم وقيل : صيادين ، والصحيح أن الحواري الناصر ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ـ رضي الله عنه ـ فقال النبي ﷺ لكل نبي حواري وحواري الزبير » .

وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجورَهُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلْ لَعنَةَ اللهِ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ[(١)] . قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا آشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي ابْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ ابْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرانِياً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)] .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين :

أحداهما مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ،

---

(١) روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جداً ـ قال البيهقي : حدثنا أبو عبد الله الحافظ أبو سعيد ، ومحمد بن موسى بن الفضل قالا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده ، قال يونس ـ وكان نصرانياً فأسلم ـ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أسقف نجران وأهل نجران وذكره .
ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث اسرائيل عن أبي اسحاق عن صلة عن ابن مسعود بنحوه .

(٢) سورة آل عمران الآيات من ٣٨ ـ ٦٨ .

وهي سورة ﴿ كهيعص ﴾[1] .

والثانية مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلت في « براءة » مجاهدتهم فأخبر في السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل اليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً . فقالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾[2] .

قال أبو وائل : علمت أن المتقى ذو نهية ، أي : تقواه ينهاه عن الفاحشة وأنها خافت من أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : ﴿ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ : أي تتقي الله وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾[3] وفي القراءة الأخرى ﴿ لأهَبَ لَكِ غلاماً ذكياً ﴾ فأخبر هذا الروح الذي تمثّل له بشراً سوياً أنه رسول ربها، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ، ولهذا قال جماهير العلماء : إنه جبريل عليه السلام فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس ، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولاشيئاً من صفاته ابنا ، وهذا أحد ما تبين من ضلال الناصرى وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبياء ، فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم : (عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح

---

(1) سورة مريم آية رقم ١ .

(2) سورة مريم آية رقم ١٨ .

(3) سورة مريم آية رقم ١٩ .

القدس) فيقال لهم : هـذا إذا كان قـد قالـه المسيح ، وليس في لغـة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء وأنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا ابناً ولا روح قـدس ، ولا يسمون كلمتـه ابناً ، ولا يسمـونه نفسـه ابنـاً ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى للكرم ابنـاً ، وهذا موجود في حق المسيـح وغيره كـما يذكـرون أنه قـال تعالى لإسـرائيل : أنت ابني بكـرى : أي بني اسرائيـل ، وروح القدس : يـراد بـه الـروح التي تنـزل عـلى الأنبياء كما نزلت على داود وغيره ، فإن في كتبهم أن روح القـدس كانت في داود وغيـره ، وأن المسيــح قــال لهم : « أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم » فـسمـــاه أبـــاً للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الإبن ، ولا يوجد عنـدهم لفظ الابن إلا اسماً للمصطفى المكرم لا اسما لشيء من صفات الله القديمة حتى يكون الابن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون أنها تولـدت من الله عندهم مـع كونها أزلية ، ولا بروح القـدس حياة الله ، بـل المراد بـالابن ناسـوت المسيح وبـروح القـدس ما أنـزل عليه من الـوحي والملك الذي أُنـزل به ، فيكـون قـد أمـرهم بالإيمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله والملك الـذي نزل بـه وبهذا الـذي نـزل به ، وبهـذا أمرت الأنبيـاء كلهم ، وليس للمسيح خـاصـة استحق بهـا أن يكون فيه شيء من اللاهوت ، لكنه ظهر فيه نور الله ، وكلام الله وروح الله كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسل .

ومعلوله أن غيره أيضاً - فيما ينقلونه عن الأنبياء - يسمى ابناً وروح القدس حلت فيه ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصـود هنا التنبيـه على أن كـلام الأنبياء عليهم السـلام يصدق بعضـه بعضـاً ، وأنه ليس مـع النصارى حجـة سمعية ولا عقليـة توافق مـا ابتدعـوه ، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه ، وعندهم في الإنجيل أنه قال : « إن

الساعة[1] لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الآب وحده فبين أن الابن لا يعلم الساعة ، فعلم أن الإبن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني .

(1) قال تعالى ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ الأحزاب آية رقم ٦٣ وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ .

فصل
موقف الأمم من الرسل

وأما قوله تعالى : ﴿ يا عِيسى إنِّي مُتَوفِّيكَ ورافِعُكَ إليَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذين اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ ﴾(١) فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود ، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة .

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به ، بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمداً ﷺ بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بآبن مريم لأنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي »(٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥ .

اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ إني متوفيك ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : إني متوفيك أي مميتك ، وقال محمد بن إسحاق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال : توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه ، وقال ابن جرير : توفيه هو رفعه . وقال الاكثرون المراد بالوفاة هنا : النوم كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ الله يتوفى الأنس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول : إذا قام من النوم : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا » الحديث .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٤٨ باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب =

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تتفرَّقوا فِيهِ كَبُرَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[2]فكل من كان أتم إيماناً بالله ورسله كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[3] .

وقال في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرسَلين . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾[4] .

(اليَهُودُ كَذَّبوا الرُّسلَ)

واليهود كذَّبوا المسيح ومحمداً ﷺ كما قال الله فيهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ الله مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يشاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾[5] فالغضب الأول تكذيبهم للمسيح ،

= مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ .

٣٤٤٢ ـ حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ وذكره ، ورواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ١٤٣ ـ ١٤٥ وأبو داود في السنة ١٣ ، واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، ٥٤١ (حلبي) .

(١) سورة الشورى آية رقم ١٣ .
(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٥١ ـ ٥٣ .
(٣) سورة غافر آية رقم ٥١ .
(٤) سورة الصافات آية رقم ١٧١ ـ ١٧٣ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٩٠ .

والثاني : محمداً ﷺ . والنصارى لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله ، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٢] .

المسلمون أتباع جميع الرسل

وإذا كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة »[٣] .

وقال أيضاً : « سألت ربي أن لا يُسلِّطَ على أمتي عدوّاً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها »[٤] . الحديث فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم » .

٧٣١١ ـ حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسماعيل عن قيس « عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ وذكره ، وفي التوحيد ٢٩ وفي المناقب ٢٨ ورواه الامام مسلم ـ في إيمان ٢٤٧ وفي إمارة ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ورواه الترمذي في الفتن ٥١ ، وابن ماجه في المقدمة ١ ، والدارمي في الجهاد ٣٨ ، واحمد بن حنبل في المسند ٤ :٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٣١٩ (حلبي) .

(٤) الحديث في المسند ٥ :٢٤٧ (حلبي) .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ الله آنَاءِ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُون بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1] .

فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بالله وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُم المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الفَاسِقُونَ ، لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلَّا أَذىً وَإِنّ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلَّا بِحَبْلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[2] .

ثم قال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ ﴾[3] .

ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرونَ بِآيَاتِ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ ـ ١١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ ـ ١١٢ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ .

الله وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[1] صفة لليهود وكذلك قوله : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ ﴾[2] .

فَقَوله : عقب ذلك : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾[3] لا بدَّ أن يكون متناولاً لليهود ، ثم اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود كفرهم بالمسيح ومحمد ﷺ ، ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ ، والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود والله تعالى إنما أثنى على مَنْ آمن من أهل الكتاب كما قال تعالى : ﴿ وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرونَ بآياتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾[4] .

وقد ذكر أكثر العُلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران ، نزلت في النجاشي ونحوه ممَّن آمن بالنبي ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ ولا العمل بَشرائع الاسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام وقد قيل : إن النبي ﷺ إنَّما صلَّى عليه لما مات لأجل هذا ، فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة ، كما يصلي المسلمون على جنائزهم .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي ﷺ بمنزلة مَن يؤمن بالنبي ﷺ في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ولا يمكنه العمل بشرائع الاسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه كما قال تعالى : ﴿ فَإن كَانَ مِنْ قَومٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث قال ضربت بدون الواو .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٩٩ .

مُؤْمِنَةٍ ﴾[1] ، فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار ، وهو في الباطن مؤمن ، كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ[2] مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ[3] . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ

---

(١) سورة النساء آية رقم ٩٢ .

(٢) المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون قال السدي : كان ابن عم فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان اسرائيلياً لأوشك ان يعاجل بالعقوبة لأنه منهم ، وقال ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ .

(٣) يوم التناد بتشديد الدال من ند البعير إذا تردى وذهب وقيل يوم التناد لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . . ؟ قالوا : نعم ﴾ ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمها على الكافرين ﴾ .

أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمواتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلهِ مُوسَىٰ وإِنِّي لأَظُنُّه كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعونَ إِلَّا فِي تَبَابٍ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يا قوم اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حسابٍ . وَيا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجَاةِ وَتَدعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ . تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ العَزِيزِ الغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَىٰ الله وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ الله إِنَّ الله بَصِيرٌ بِالعِبادِ . فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾[1] فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب وأخبر

---

(1) سورة غافر آية رقم ٢٨ ـ ٤٦ وقد استدل بهذه الآية على عذاب القبر في البرزخ . قال الامام أحمد : ثنا هاشم هو ابن القاسم أبو النضر ، ثنا اسحاق بن سعيد هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص ، ثنا سعيد يعني أباه عن عائشة ـ رضي الله عنها أن يهودية كان تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية وقال الله عذاب القبر . قالت عائشة ـ رضي الله عنها فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ لا من زعم ذلك . . ؟ قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت : وقال الله عذاب القبر قال ﷺ كذبت يهودية ، وهم على الله أكذب ، لا عذاب دون يوم القيامة ، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق ، وهذا اسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه .

أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره ، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون . هؤلاء قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِلَّذِينَ امَنُوا آمْرَأَةَ فِرْعَوْن إِذْ قالَتْ رَبِّ ابنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القومِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

وامرأة الرجل من آله بدليل قوله : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغَابِرِينَ ﴾[2] .

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسول محمد ﷺ ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً ﴿ لَا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[3] وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشي ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر في الباطن : إما يهودي ، وإما مشرك وإما معطل .

كذلك في أهل الكتاب والمشركين ، مَنْ هو في الظاهر منهم ، وهو في الباطن أهل الايمان بمحمد ﷺ يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشي قال النبي ﷺ : (اسْتغفروا لأخيكم) فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج ، يموت بأرض الحبشة . فنزلت : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله

---

(١) سورة التحريم آية رقم ١١ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾[1] ذكر ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم ، وذكر حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسين البصري أن رسول الله ﷺ قال : (استغفروا لأخيكم النجاشي) فذكر مثله .

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا : نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة ، واسمه أصحمه وهو بالعربية : عطية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه « أُخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم . فقالوا : ومن هو؟ قال : النجاشي » فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع وزاد بعضهم : وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات واستغفر له ، وقال لأصحابه « استغفروا له » فقال المنافقون : أبصروا إلى هذا يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه . فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُم أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾[2] .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فآمن به كما نقل ذلك عن عطاء .

وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم .

والقول الأول أجود ، فإن من آمن بمحمد ﷺ وأظهر الإيمان به وهو من

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩٩ .
والحديث موجود في الصحيحين . وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : وذكره . ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن عن النبي ﷺ ورواه ابن جرير من حديث ابي بكر الهذلي عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٩٩ .

أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعمله المسلمون ظاهراً وباطناً فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركاً يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابياً ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام[1] وسلمان الفارسي وغيرهما ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ولا غيرهم ، أن يصلي على واحد منهم ، بخلاف مَنْ هو في الظاهر منهم ، وفي الباطن من المؤمنين وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير ، يكتمون إيمانهم ، إما مطلقاً وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله . . . ﴾ الآية . فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله فيمنعونهم من الإيمان بمحمد ﷺ وأما قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2] .

فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[3] هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ولا فيها مدح لمن كذب محمداً ﷺ .

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الاسرائيلي أبو يوسف صحابي قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب عليه السلام أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . وشهد مع عمر بن الخطاب فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية ، اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها وأقام بالمدينة الى أن مات عام ٤٣ هـ له ٢٥ حديثاً .
راجع خلاصة تهذيب الكمال ٢٠٠ والاصابة برقم ٤٧٢٥ والاستيعاب ٢ : ٣٨٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ ـ ١١٤ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٩ .

وهذا الكلام تفسير سياق الكلام ، فإنه قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾[١] . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُم الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُم الفَاسِقونَ ﴾[٢] فقد جعلهم نوعين نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى : ﴿ منْهُم الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾ يتناول من كان قبل مبعث محمد ﷺ كما يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ـ إلى قوله ـ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ ﴾[٣] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيتِهِمَا النُّبُوَّةِ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقونَ ﴾[٤] وقوله عن ابراهيم الخليل : ﴿ وَبارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[٥] ثم قال : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقونَ ﴾ . قال : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقاتِلوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . ضُرِبتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَما ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ المسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[٦] وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب من الله ـ الآية ـ وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد ﷺ كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ يَا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .
(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٧ .
(٤) سورة الحديد آية رقم ٢٦ .
(٥) سورة الصافات آية رقم ١١٣ .
(٦) سورة آل عمران آية رقم ١١١ ـ ١١٢ .

الَّذي هُوَ أَدنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْـراً فإِنَّ لَكُمْ مَـا سَأَلْتُمْ وَضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الـذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَـةُ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ كَـانُـوا يَكْفُـرونَ بِـآيـاتِ الله وَيَقْتُلونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[1] ـ ثم قـال بعد ذلـك ـ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارىٰ والصَّابِـئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله والْيَـوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] .

فتنـاولت هذه الآيـة من كان مِن أهـل المِلَل متمسكاً بهـا قبل النسـخ بغير تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثـرهم قبل محمد ﷺ من الكفر قال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يتلُونَ آيـاتِ الله آنَاءَ الليْـلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُـونَ بالله وَاليَـوْمِ الآخِـرِ وَيَـأْمُـرُون بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ وَيُسَارعونَ في الخَيْرَاتِ وأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِين ﴾ .

وهـذا يتناول مَنْ كـان متصفاً منهم بهـذا قبل النسـخ ، فإنهم كـانوا عـلى الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال في الأعراف :

﴿ وَمِنْ قَـومِ مُـوسىٰ أُمَّـةٌ يَهْـدُونَ بِـالحَقِّ وَبِـهِ يَعْـدِلُـونَ . ـ إلى قـولـه ـ وَقَطَّعْنَاهُمْ في الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالحَسَناتِ والسَّيئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُـوا الكِتَابَ يَـأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِـم عَرَضٌ مِثْلُهُ يَـأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَـذْ عَلَيْهِمْ مِيثـاقُ الكِتَابِ أَنْ لا يَقُـولُـوا عـلى الله إِلاَّ الحق وَدَرَسُـوا مـا فِيـهِ والـدَّارُ الآخِرةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ . وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحين ﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٦١ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٩ ـ ١٧٠ .

وقد قال تعالى مطلقاً : ﴿ وممَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُون بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون ﴾[1] فهـذا خبر من الله عمن كـان متصفاً بهـذا الوصف قبـل مبعث محمد ﷺ ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً ﷺ فآمن به كان له أجره مرتين .

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٨١ .
جاء في الآثار أن هذه الأمة في الآية هي الأمة المحمدية قال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية بلغنا أن النبي ﷺ كان يقول : إذا قرأ هذه الآية « هذه لكم وقد أعطي القـوم وقد أعـطى اليوم بـين أيديكم مثلها » .
قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال رسول الله ﷺ إن من أمتي قوماً عـلى الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » .
وفي رواية « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

فصل
في أنَّ مَثَلَ عِيسى عند الله كمثل آدم
دعوى النصارى في المسيح

قالوا : وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنـدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَـهُ مِنْ تُرابٍ ﴾[1] فـأعنى بقولـه : ﴿ مَثَـلَ عِيسىٰ ﴾ إشـارة إلى النـاسـوت المـأخوذ من مـريم الطاهـرة لأنه لم يـذكر هنـا اسم المسيح وإنمـا ذكر عيسى فقط .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعـة فكذلـك جسد المسيـح خلق من غير جماع ولا مباضعة .

وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت وقـد يبرهن بقوله أيضاً قائلاً إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل .

وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به ولما تقدم به القـول من الله تعالى على لسـان موسى النبي إذ يقـول : (أليـس هـذا الأب الذي خلقك وبـرأك واقتناك) ، قيـل : وعلى لسان داود النبي : (بكلمـة الله تشددت السموات وبـروح فاه جميـع أفواههن) ، وليس يـدل هذا القول على

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ونطقه ، أي كلمته ، وروحه ، أي حياته .

الرد عليهم
حقيقة القول في عيسى

والجواب من وجوه :

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1] .

كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته .

فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى .

وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى ، كما قال : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[2] وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر .

وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى .

وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم .

وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١ .

﴿ وخلق منها زوجها ﴾ هي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته فأنس إليها وآنست إليه ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن مقاتل ، حدثنا وكيع عن ابي هلال عن قتادة عن ابن عباس قال : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض فاحبسوا نساءكم . وفي الحديث الصحيح . ان المرأة خلقت من ضلع وأن أعوض شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح فإذا كان سبحانه قادراً على أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ؟ لما نفخ فيه من روحه فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له : كن فيكون ، ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتاً وناسوتاً ، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى ، لما قدم على النبي ﷺ نصارى نجران وناظروه في المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء في غلوهم فيه ، وهؤلاء في ذمّهم له .

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيه مِنْ بَعْدِ ما جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُل تعالوا نَدْعُ أبناءَنَا وَأَبنَاءَكُمْ وَنِساءنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنجْعَلَ لَعَنَةَ الله عَلىٰ الكَاذِبينَ . إنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِنْ إلَـهٍ إلاَّ الله وَإنَّ الله لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . فَإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّ الله عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أهلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْننَا وَبيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله فَإنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا آشهَدُوا بأنّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وقد امتثل النبي ﷺ قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ثم كتب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوْا ﴾ إلىٰ آخرها ، وكان أحياناً يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦١ ـ ٦٤ .

بقـوله : ﴿ قُـولُوا آمَنَّا بِالله وَمَـا أُنْزِلَ إِلَيْنَـا وَمَا أُنْـزِلَ إِلىٰ إِبْراهِيمَ وإِسْمـاعِيـلَ وَإِسحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاط وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلمونَ ﴾[١] .

وهـذا كله يبين أن المسيح عبـد ليس بإلـه ، وأنه مخلوق كمـا خلق آدم وقد أمر أن يبـاهل[٢] من قـال إنه إلـه فيدعـو كلٌّ من المتبـاهلين أبناءه ونسـاءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصارى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبـد الله كاذبـاً حقت اللعنة عليـه ، وهذا إنصـاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق والنصـارى لما لم يعلمـوا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة : وقد قال عقب ذلك : ﴿ إِنَّ هَـذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَـا مِنْ إِلَـهٍ إلا الله ﴾ تكذيبـاً للنصارى الـذين يقولـون هـو إلـه حق من إلـه حق ، فكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت وأن هذا هو الناسـوت فقط دون اللاهوت وبهـذا ظهر الجـواب عن قولهم قـال في موضـع آخر : إن مثـل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله : عيسى أشار إلى البشرية المـأخذوة من مرية الطاهرة لأنه لم يذكر الناسـوت ها هنـا اسم المسيح إنمـا ذكر عيسى فقط فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليـل أنه قـال : ﴿ مَا المَسِيـحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُول قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[٣] فأخبر أنـه ليس المسيح إلا رسـولاً ليس

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٢) المبـاهلة : الملاعنـة . نبتهل نـدعو بـاللعنة عـلى الكاذب منـا ، ولقد ذكـر كثير من المؤرخـين ، والمفسرين قصة المباهلة بين الرسول ، والنصارى في أمر المسيح ، ولقد أمر الله رسولـه أن يدعـو النصارى الى المباهلة ليبين لهم حقيقة أمر المسيح ، وأن يتوجه الفـريقان بـاللعنة عـلى الكاذب في ذلك يقول ابن اسحاق ، فلما أتى رسول الله الخبر من الله عنه ، والفصل والقضاء بينـه وبينهم ودعاهم إلى ذلك فقالوا له يا أبا القاسم : دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧٥ .

هو بإله ، وأنه ابن مريم والذي هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً . لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلَا المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾[3] .

الوجهُ الثاني

أن ما ذكره من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد ، وما ذكروه من أنه صُلِب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين ، إن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفي في مقابلتها المنع .

الوجه الثالث

ولكن نقول في الوجه الثالث : إنهم في إتحاد اللاهوت بالناسوت

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٧ .

يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية[1] ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية[2] وغيرهم ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التي في الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التي فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذي ادَّعُوه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

الوجه الرابع

أن هؤلاء الضُّلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً

---

(١) اليعقوبية : أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو وعنهم أخبرنا القرآن الكريم ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ فمنهم من قال : المسيح هو الله ، ومنهم قال : ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو . راجع الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) الملكانية : أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم ، واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية ، قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، وتدرعت بناسوته ، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة ولا يسمون العلم قبل تدرعه به ابنا بل المسيح مع ما تدرع به ابن فقال بعضهم إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن وصرحت الملكانية بان الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا باثبات التثليث واخبر عنهم القرآن ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ وقالت : الملكانية : المسيح ناسوت كلي لا جزئي ، وهو قديم أزلي من قديم أزلي ، ولقد ولدت مريم عليها السلام إلهاً أزلياً ، والقتل والصلب وقع على الناسوت . الخ .

راجع الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ج ٢ ص ٦٢ .

يبشر في جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا في وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين وهو في ذلك يستغيث بالله ويقول : « إلهي إلهي لم تركتني » وهم يقولون الذي كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ، ويقولون هما شخص واحد ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ، وأيضاً فهم يقولون : إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما شخص واحد إما أن يكون مستغيثاً وإما أن يكون مستغاثاً به وإما أن يكون داعياً وإما أن يكون مدعواً ، فإذا قالوا : إن الداعي هو غير المدعو لزم أن يكون اثنين لا واحداً وإذا قالوا : هما واحد فالداعي هو المدعو .

الوجه الخامس

أن يقال لا يخلو الأمر أن يقولوا : إن اللاهوت كان قادراً على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادراً لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، وأن يكون رب العالمين مقهوراً مأسوراً مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين وهذا أعظم من قولهم : إن لله ولداً وإنه بخيل وإنه فقير » ونحو ذلك مما سب به الكفار رب العالمين . وإن قالوا كان قادراً فإن كان ذلك من عدو أن الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال : (إلهي إلهي لماذا تركتني) وإن كان هو قد فعل ذلك مكراً ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب ألا يجزع ولا يهرب لما

في ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جرع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يجعل الصواع[1] في رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله ؟ كما جزع إخوته حيث لم يعلموا ، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح ، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس

قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم ، لأن عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع

قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضاً في موضع آخر قائلاً : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلّت في مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله في القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله

---

(١) الصاع : المطمئن من الأرض . قال المسيب بن علس : مرحت يداها للنجاء كأنما . . تكرُو بكفّى لاعبٍ في صاع والصاعُ : الذي يكال به ، وهو أربعة أمدادٍ والجمع أصوع وان شئت أبدلت من الواو المضمومة همزة .

والصواع : لغة في الصاع ، ويقال هو إناء يشرب فيه .

تعالى قال : ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يا مَرِيمُ إنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ . ويُكَلِّمُ النَّاسَ في المهدِ وَكَهلاً ومِن الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لي وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكونُ ﴾[1] ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى منها أنه قال : ﴿ بكلمة منه ﴾ وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى . ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[2] .

كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسَىٰ عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[3] .

وقال تعالى في سورة كهيعص : ﴿ ذَلِكَ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إذَا قضَىٰ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[4] .

فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه ، وقال اسمه المسيح عيسى بن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيهه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وهذه كلها صفات مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك ، وقالت مريم : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لي وَلَدٌ ﴾ فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم لا ولد الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٤٥ ـ ٤٧ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٧ .
(٣) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .
(٤) سورة مريم آية رقم ٣٤ .

وقال في سورة النساء : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ولا تقولوا عَلَىٰ الله إلَّا الحقَّ إنَّما المَسِيحُ عِيْسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَته أَلْقَاهَا إلَىٰ مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْه فآمِنُوا بالله وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا الله إلهٌ وَاحدٌ سُبْحَانَهُ أنْ يكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِالله وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يَكُونَ عبداً لله وَلَا المَلَائكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعاً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أليماً ولَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾[1] .

فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم ، وأن يقولوا على الله غير الحق وبين أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ، فبين أنه رسوله ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : إنتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[2] فأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ ـ ١٧٣ .
قال الامام احمد : حدثنا هشيم ، قال زعم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن أبي مسعود عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » . ثم رواه هو وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن الزهري كذلك ، ولفظه « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال علي بن المديني : هذا حديث حسن صحيح مسند ، وهكذا رواه البخاري عن الحميدي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به ولفظه « فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٧١ .

شيء من ذاتــه ، ثم قـال : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيــحُ أَنْ يَكُـونَ عَبْــداً لله وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ ﴾[1] أي لن يستنكفوا أن يكونـوا عبيداً لله تبـارك وتعالى ، فمع ذلك البيان الواضح الجلي ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنـه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ المراد أنه حياتـه أو روح متفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه بـ« كُنْ » وفي لغـة العرب التي نـزل بها القـرآن أن يسمى المفعول بـاسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقاً لقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ الله ﴾[2] ويقـال : درهم ضرب الأميـر أي مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة وقدراً والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمةً .

كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً ﴾[3] وقوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[4] .

وقال النبي ﷺ « يقول الله للجنة : أنتِ رحمتي أرحم بك من أشـاء من عبادي ، ويقول للنار : أنتِ عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي »[5] .

وقـال :، إن الله خلق الرحمـة يوم خلقهـا مئة رحمـة » أنزل منهـا رحمـة واحدة فيها تتراحم الخلق ويتعاطفـون ، وأمسك عنـده تسعة وتسعين رحمـة ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٧٢ .

(٢) سورة لقمان آية رقم ١١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٣٨ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١ .

(٥) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٢٥ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ٧٤٤٩ ـ حدثنا عبيد الله بن سعد بن ابراهيم ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة . عن النبي ـ ﷺ قال اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة : يا رب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، وقالت النار يعني أوثرت بالمتكبرين فقال الله تعالى الجنة وذكره .

فـإذا كان يـوم القيامـة جمع هـذه إلى تلك فـرحم بهـا الخلق »[1] ويقـال للمـطر والآيـات هذه قـدرة عظيمـة ، ويقال : غفـر الله لك علمـه فيك ، أي معلومـة فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الامام احمد في كتاب (الرد على الجهمية) وذكره غيـره ـ أن النصـارى الحلولية والجهمية المعـطلة اعتـرضـوا على أهـل السنـة فقـالت النصارى : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقـالت الجهمية : المسيـح كلمة الله وهـو مخلوق ، والقرآن كـلام الله فيكون مخلوقاً وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلاماً ، فـإن المسيح إنسـان وبشر مولود من امرأة وكلام الله ليس بـإنسان ولا بشـر » ولا مـولـود من امرأة .

ولكن المسيح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟ .

وقـد قيل : أكثـر اختلاف العقـلاء من جهة اشتـراك الأسْمـاء ، ومـا من عاقل إذا سمع قوله تعالى في المسيح عليه السلام إنه كلمتـه ألقاهـا إلى مريم ألا يعلم أنه المراد أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ، ثم يقال للنصارى : فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام وليست بخالقـة ، وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجـز أن يكون خالقاً ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمـة ، وخص باسم الكلمـة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره ، بـل خرج عن العـادة

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ١٩ باب الرجاء مع الخوف ٦٤٦٩ حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ وذكره ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ١٨ ـ ٢١ والترمذي في الدعوات ٩٩ ، وابن ماجة في كتاب الزهد ٣٥ واحمد بن حنبل في المسند ٢ :٤٣٣ ـ ٥١٤ ، ٣ :٥٥ ، ٥٦ ، ٥ :٤٣٩ (حلبي) .

فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ لا يوجب ان يكون منفصلاً من ذات الله كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[4] .

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم وهي مخلوقة .

فالمسيح الذي هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً وقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِياً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ﴾[5] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾[6] .

وقال : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنا فِيهَا مِنْ روحنَا وَجَعَلْنَاهَا وَآبْنَهَا

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٥٣ .
(٣) سورة النساء آية رقم ٧٩ .
(٤) سورة البينة آية رقم ١ ـ ٣ .
(٥) سورة مريم آية رقم ١٧ ـ ١٩ .
(٦) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

آيَةً لِلْعَالِمِينَ ﴾[1] فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه وقد بين أنه أرسل إليها روحه ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً ، قَالَ إنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً قال : كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً فَحَمَلَتْهُ ﴾[2] .

فهذا الروح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً مخلوق وهو روح القدس الذي خلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقاً فكيف الفرع الذي حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ خص المسيح بذلك لأنه نفخ في أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأنها حبلت به من نفخ الروح فلهذا سمي روحا منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين روح منه أي رسول منه فسماه باسم الروح (الذي هو) الرسول الذي نفخ فيها ، فكما يسمى « كلمة » يسمى روحاً لأنه كون بالكلمة ، لا كما يخلق الآدميون غيره ويسمى روحاً ، لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها لم تحبل من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمي روحاً بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضي أربعة أشهر . والنصارى يقولون في أمانتهم : (تجسد من مريم ، ومن روح القدس) ولو اقتصروا على هذا ، وفسروا روح القدس بالملك الذي نفخ

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ قال ابن أبي حاتم حدثنا ابي حدثنا عمر بن علي حدثنا أبو عاصم الضحاك ابن مجلز عن شعيب يعني ابن بشير عن عكرمة . عن ابن عباس في قوله : للعالمين » قال : الجن والانس .

(٢) سورة مريم آية رقم ١٧ ـ٢٢ .

فيهـا ، وهو روح الله لكـان هذا مـوافقاً لمـا أخبر الله بـه ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله .

وجعلوه رباً وتناقضوا في ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغي فيه أقنومـان : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

وهم يقولون : ليس فيـه إلا أقنوم الكلمـة ، وكما يسمى المسيـح كلمـة لأنه خلق بالكلمة يسمى « روحاً » لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقـد قال في القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ تَنْزِيْلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾[2] .

وقد قال أئمـة المسلمين وجمهورهم (القـرآن كلام الله غيـر مخلوق منه بدأ) وقال : في المسيح ﴿ ورُوحٌ مِنْه ﴾ قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقاً ، وإن كان صفة مضافـة إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضـافة صفـة ، وكذلـك ما منـه إن كان عيناً قائمة أو صفة قائمة تعيد بغيرها كما في السمـوات والأرض والنعم والروح الذي أرسلها إلى مريم وقال : ﴿ إنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّك ﴾ كان مخلوقاً وإن كـان صفة لا تقوم بنفسهـا ولا يتصف بها المخلوق كـالقرآن لم يكن مخلوقـاً ، فإن ذلك قائم بالله وما يقوم بالله لا يكون مخلوقاً والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم في ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كمـا ليس لهم حجة في سائر كتب الله وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتـركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقـوله : ﴿ هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْكَ الكِتَـابَ مِنْـهُ آيـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشابِهَاتٌ فأمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تَـأْوِيلِهِ ﴾[3] ، والآية نـزلت في النصارى فهم مـرادون من الآية

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .
(2) سورة الزمر آية رقم ١ .
(3) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

قطعاً ثم قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، ويقول ، الراسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ويقول : الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ،وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوانِنَا ﴾[1] أي قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ومعرفة معانيه .

والراسخون في العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصري : لم ينزل الله آية إلا وهو يجب أن تعلم فيها ذا نزلت ، وما عنى بها ، وقد يعني بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر وقت الساعة ، ونزول عيسى ونحو ذلك .

فهذا التأويل لا يعلمه إلا الله وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل في كتاب الله عز وجل ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١٠ .

قال ابن جرير : حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا أبو ثور عن معمر عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ـ حتى بلغ ـ عليم حكيم ﴾ ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴾ الآية ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ـ حتى بلغ ـ للفقراء . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم . والذين جاؤا من بعدهم ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرد حميم نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه » .

يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾[1] .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾[2] وكقوله : ﴿ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[4] وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا في ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّمَا المَسِيحُ عِيْسَىٰ ابْنُ مرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَم ورُوحٌ مِنْهُ ﴾[5] .

والكلمة عندهم في جوهر ، وهي رب لا يخلق بها الخالق بل هي الخالقة لكل شيء كما قالوا في كتابهم : (إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم) والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التي ألقاها ليست خالقة ، إذ الخالق لا يلقيه شيء ، بل هو يلقي غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .

فالكونية : كقوله للشيء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول في غير هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾[6]

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .
(٤) سورة النساء آية رقم ٥٩ .
(٥) سورة النساء آية رقم ١٧١ .
(٦) سورة النساء آية رقم ٩٤ .

وقال تعالى : ﴿ وإذا رَأَىٰ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوا إِلَيْهِمْ القَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ والْقَوْا إِلَىٰ الله يَوْمَئِذٍ السَّلم ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾[2] .

وأما لقيته القول فتلقاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها هي قول ﴿كن﴾ لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت في مريم كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلَّت في سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل منكم فيمن يلقى إلى كلامه .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٨٦ .

(٢) سورة الممتحنة آية رقم ١ .

كان سبب نزول صدور هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعه وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : اللهم عم عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه فبعث في إثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته .

فصل
في الرد على أن في عيسى طبيعتين

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذها من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم كلام النصارى في هذا الباب مضطرب مختلف مناقض ، وليس لهم في ذلك قول اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ، ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية ونقل الأقوال عنهم في ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولاً ، وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور في أمانتهم لم ينطق به شيء من كتب الأنبياء ولا يوجد لا في كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون في فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية والنسطورية واليعقوبية مختلفون في تفسيرها ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم ، وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء

وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كـان فيهم من يخالفهم في ذلك .

وقد يوجـد نقل النـاس لمقالاتهم مختلفـاً وذلك بحسب قـول الطائفـة التي ينقل ذلك الناقل قولها ، والقول الذي يحكيه كثير من نظائر المسلمين يوجد كثـير منهم على خلافـه كما نقلوا عنهم مـا ذكره أبـو المعالـي[1] وصاحبـه أبو القـاسم الأنصـاري وغيرهمـا أن القديم واحـد بالجـوهر ، ثـلاثة بـالأقنـوم وأنهم يعنـون بالأقنوم . الوجود والحياة ، والعلم .

ونقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الـذات موجـودين بـل هما صفتـان نفسيتان للجـوهر ، قـالوا ولـو مثل مـذهبهم بمثـال لقيـل . إن الأقـانيم عنـدهم تنـزل منـزلـة الأحـوال والصفـات النفسيـة عنـد مثبتيهـا من المسلمـين ، فإن سـوادية اللون ولـونيته صفتـان نفسيتان للمـرض ، قـال وربمـا يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالابن المسيـح والكلمة ، وربمـا سموا العلم كلمـة والكلمة علماً ، ويعبـرون عن الحياة بالروح ، قـال : ولا يريـدون بالكلمـة الكلام فـإن الكلام عنـدهم من صفات الفعـل ، ولا يسمون العلم قبـل تدرعـه بالمسيـح واتحاده بـه ابناً ، بـل المسيـح

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ، ركن الدين الملقب بامام الحرمين اعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ولد في جوين عام ٤١٩ هـ من نواحي نيسابور ورحـل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك « المدرسة النـظامية فيهـا وكان يحضـر دروسه أكـابر العلماء لـه مصنفات كثيرة منها غياث الأمم والنيـات الظلم » . والعقيـدة النظاميـة في الأركان الاسـلامية ، والبرهان في أصول الفقه ، ونهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية ، والشامل في أصول الدين ، ونهاية المطلب في دراية المذهب ، والشامل في أصول الدين على مـذهب الاشاعـرة وغير ذلك كثير .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ والفهرس التمهيدي ٢٠٩ و ٥٥١ والسبكي ٣ : ٢٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٠ ثم ٢ : ١٨٨ وتبين كذب المفتري ٢٧٨ ـ ٢٨٥ وفي قرة العين بشرح ورقات امام الحرمين ـخ للحطاب : جاور بمكة والمدينة أربع سنين فلقب بإمام الحرمين ، ويلقب بضياء الدين ، وتوفي بقرية يقال لها ، « بشتغال » من أعمال نيسابور .

عنـدهم مع مـا تدرع بـه ابن ، قالـوا ومن مذهبهم أن الكلمـة اتحدت بـالمسيح وتدرعت بالناسوت ثم اختلفوا في معنى الاتحاد .

فمنهم من فسـره بـالاختـلاط والامتـزاج ، وهــذا مـذهب طــوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قـالوا : إن الكلمـة خالـطت جسد المسيـح ، ومازجته كما مازج الخمـر الماء أو اللبن ، قالوا : وهـذا مذهب الـروم ومعظمهم الملكانية . قالوا : فمازجت الكلمة جسد المسيح فصـارت شيئاً واحـداً وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طـائفة من اليعـاقبـة إلى أن الكلمـة انقلبت لحـماً ودمـاً وقـالـوا : وصـارت شرذمـة من كل صنف إلى أن المـراد بـالاتحـاد ظهـور الـلاهـوت عـلى الناسوت كظهور الصورة في المرآة ، والنقش في الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله عـلى العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من الطوائف إلى أن المراد بالاتحاد الحلول .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1] .

يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غير ممن لم يأتهم بما جاء به .

فيقال لهم من فسر مراد متكلم أي متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه ، وإن كاد المكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا ، فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم هذا ضرورياً أنه أراد العموم فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ ديناً ﴾ صيغة عامة وصيغة ﴿مَنْ ﴾ الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[2] .

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم . فإن هذا في

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

(2) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبي ﷺ وفد نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً وفيهم السيد والأيهم والعاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها . وقد قال قبل هذا الكلام بذم دين النصارى الذين ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق وباطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغير المعنى ، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ الله ولَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُون . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أن تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] . فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] . ثم قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَإِذ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[3] .

قال ابن عباس وغيره من السلف : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨١ .

لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ـ يتناول جميع النبيين ـ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾[1] وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم ، واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم كقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾[2] . ومن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[3] وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾[4] .

وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾[6] .

ومنه قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[7] .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٨١ .
(٢) سورة الحشر آية رقم ١٢ .
(٣) سورة التوبة آية رقم ٧٥ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ .
(٥) سورة النور آية رقم ٥٣ .
(٦) سورة فاطر آية رقم ٤٢ .
(٧) سورة لقمان آية رقم ٢٥ .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[6]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾[7]

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾[8] وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾[9] .

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام (ـ والله ـ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ـ والله ـ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل للذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ولا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم وقوله : ﴿ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٩ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٦٠ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٨٦ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٧٣ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٣٢ .

(٧) سورة الروم آية رقم ٥٨ .

(٨) سورة العنكبوت آية رقم ١٠ .

(٩) سورة هود آية رقم ٨ .

وحِكْمَـةٍ ﴾[1] هي مـا الشـرطيـة والتقـديـر ، أي : شيء أعـطيتكم من كتـاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لَتُؤْمِنُنَّ به وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، ولا تكتفـوا بما عنـدكم عما جـاء به ولا يحملنكم مـا آتيتكم من كتاب وحكمـة على أن تتـركـوا متابعته ، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه ، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنُوا بما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله .

فـدل ذلك عـلى أن من أدرك محمـداً من الأنبيـاء وأتبـاعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قـال : ﴿ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَـابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتؤمِنُنَّ بِـهِ وَلَتَنْصُرُنَّـهُ ﴾[2] وقد أقـر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى : ﴿ أأقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُم عَـلَىٰ ذَلِكُمْ إصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَـا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِـدِينَ ﴾[3] ثم قال تعالى : ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فأولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾[4] .

ثم قـال تعـالى : ﴿ أَفَغَـيْرَ دِينِ الله يَبْغُـونَ وَلَـهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّمَـوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرهاً وَإلَيْهِ يُرجَعُونَ ﴾[5] .

ثم قـال تعالى : ﴿ قُـلْ آمَنَّا بِـالله وَمَا أُنْـزِلَ عَلَيْنا وَمَـا أُنْزِلَ عَـلَىٰ إبْرَاهِيمَ

---

(١) سـورة آل عمران آيـة رقم ٨١ تكملة الآيـة ﴿ ثم جاءكم رسـول الله مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصـرنه قـال أأقررتم وأخـذتم على ذلكم إصري قـالوا أقـررنا قـال فاشهـدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ .
قال الحافظ أبو يعلى حدثنا اسحاق ، حدثنا حماد عن الشعبي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تصدقوا ببـاطل وإمـا أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني »وفي بعض الأحاديث « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي » .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨١ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٨٢ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ٨٣ .

وإسمَاعِيلَ وَإسحَـاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَـاطِ وَمَا أُوتيَ مُـوسَىٰ وَعِيسَىٰ والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفرِّقُ بيْنَ أَحَـدٍ مِنهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُـونَ ﴾[1] ثم قال تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غيْرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[2] .

قالت طائفة من السلف : لما أنـزل الله هذه الآيـة قال من قـال من اليهود والنصارى : نحن مسلمون ، فقـال تعالى : ﴿ ولله عَـلَىٰ النَّاسِ حِـجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[3] فقالوا لا نحج ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾[4] .

فكـل مَنْ لم ير حـج البيت واجباً عليـه مع الاستـطاعة فهـو كافـر باتفـاق المسلمين كما دلَّ عليـه القرآن ، واليهـود والنصارى لا يـرونه واجبـاً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع الى النبي ﷺ « مَنْ مَلَكَ زَاداً وَرَاحِلَةً تبلغُهُ إلى بَيْتِ الله وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إنْ شاءَ الله يَهُودِيّاً وإنْ شَاءَ نَصْرانياً »[5] .

وهو محفوظ من قـول عمر بن الخـطاب ، وقد اتفق المسلمـون على أن مَنْ جَحَدَ وجوب مباني الاسلام الخمس : الشهـادتين ، والصلوات الخمس والـزكاة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فهو كافر .

وأيضاً فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إلَـهَ إلاَّ هُوَ والمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بالقِسْطِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْـدِ مَا جَـاءَهُمُ العِلْمُ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٨٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المناسك ٦ بـاب ما يـوجب الحج ٢٨٩٦ بسنـده عن ابن عمر وذكره . بلفظ : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة وبلفظ يعني ﴿ من استطاع اليه سبيلاً ﴾ ورواه الترمذي في الحج ٤ وفي التفسيـر سورة ٣ .

بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ ﴾[1] .

فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ** ﴾ أن يقول أسلمتُ وَجْهِي لله وَمَنْ اتَّبَعَنِ . وأن يقول للذين أُوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى والأميين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلمتُمْ فالعَرَبُ الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس .

وأما مَنْ سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبنية أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وإِنْ تولَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ** ﴾[2] .

فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : ﴿ **إِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ** ﴾ أي تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم ، فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين وفي الصحيحين عن النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ ـ ٢٠ .

قال الامام احمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثني جبير بن عمرو القرشي ، حدثنا أبو سعيد الأنصاري عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال : سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب ، وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر . فقال : حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن المتوكل العسقلاني حدثنا عمر ابن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصاري ، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عن الزبير قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية ﴿ **شهد الله لا إله إلا هو والملائكة** ﴾ قال : وأنا أشهد أي رب » .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

إلى هرقل ملك النصارى : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتَّبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك برعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » ﴿ يا أهلَ الكِتَابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْننا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرباباً مِنْ دُونِ الله فإن تولَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُون ﴾[1] .

الإسلام دين جميع الأنبياء

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الاسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2] . وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلا الأرض : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أمرَكُمْ وشُركَاءَكُمْ ثمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُون . فَإنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى الله وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾[3] .

فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته ، وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

قال النبي ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه الامام مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام .

(٣) سورة يونس آية رقم ٧١ ـ ٧٢ .

وأما الخليل فقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ من البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقبَّل مِنّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . ربَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ العَالَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا إبراهيمُ بنيهِ وَيعقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ الله اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[2] .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن ابراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتُنَّ إلاّ وهم مُسلمون .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرانِياً ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال : ﴿ ربِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأرضِ أَنْتَ وَلِيِّ في الدُّنْيا والآخِرَةِ توفَّني مُسْلِماً وأَلحِقْني بالصَّالِحِينَ ﴾[4] .

وقد قال تعالى عن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يا قَوْمِ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢٧ - ١٢٨ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ - ١٣٢ .
(٣) سورة آل عمران آية رقم ٦٧ - ٦٨ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .
(٥) سورة يونس آية رقم ٨٤ .

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قَالُوا لاَ ضَيْرَ إنّا إلىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِر لَنا ربُّنا خَطَايَانَا أَنْ كُنّا أَوَّلَ المُؤْمِنينَ ﴾[1] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أن آمنَّا بآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنَا رَبَّنَا أفرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وتوفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[2] .

قال تعالى في قصة سليمان : ﴿ إنَّه مِن سُلَيمان وإنَّه بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ألاَّ تَعْلوا عَلَيَّ وأتُوني مُسْلِمينَ ﴾[3] .

و ﴿ قال يا أيُّها الملأُ أيُّكُمْ يأْتِيني بِعَرْشِهَا قَبل أن يأتوني مُسْلِمِينَ ﴾[4]

وقال تعالى : ﴿ وأُوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[5] .

وقال تعالى عن بلقيس التي آمنت بسليمان : ﴿ رَبِّ إنِّي ظلمتُ نفسِي وأسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَان لله رَبِّ العالَمِينَ ﴾[6] .

وقال عن أنبياء بني اسرائيل : ﴿ إنَّا أنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدى ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾[7] .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وَإذْ أَوْحَيْت إلىٰ الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾[8] .

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٢٦ .
(٣) سورة النمل آية رقم ٣٠ ـ ٣١ .
(٤) سورة النمل آية رقم ٣٨ .
(٥) سورة النمل آية رقم ٤٢ .
(٦) سورة النمل آية رقم ٤٤ .
(٧) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .
(٨) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ واتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1] .

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ إنَّ الدِّين عِنْدَ الله الإسلامُ ﴾[3] .

لا يختص بمن بعث إليه محمد ﷺ ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله إبْراهِيمَ خليلاً ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نصَارى تِلْكَ أمانِيُّهُمْ قِلِ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[5] .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٩ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١١١ ـ ١١٢ .

﴿ وهو محسن ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة فإن كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل .

تفسير سورة النساء

فصل في ما يتعلق بشهوات الآدميين

وقال شيخ الاسلام

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** ﴾ [1] فذكر ما يتعلق بشهوات الآدميين من سائر ما تشتهيه أنفسهم حتى النساء والمردان ، وقال : العبد يجب عليه إذا وقع في شيء من ذلك أن يجاهد نفسه وهواه وتكون مجاهدته لله تعالى وحده .

ثم قال : وميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم ، وقد يبتلي كثير منهم بالميل إلى الذكران كالمردان ، وإن لم يكن بفعل الفاحشة الكبرى كان بما هو دون ذلك من المباشرة ، وإن لم تكن كان بالنظر ، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهذا الجهاد ، وليس هو أمراً حرمه على نفسه فيكون في طاعة نفسه وهواه ؛ بل هو حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ، فتكون المجاهدة للنفس في طاعة الله ورسوله . وفي حديث أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٧ .

« من عشق فعفّ وكتم وصبر ثم مات فهو شهيد »[1] وأبو يحيى في حديثه نظر ؛ لكن المعنى الذي ذكر فيه دلّ عليه الكتاب والسنة ، فإن الله أمره بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعفَّ عن كل ما حرم الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد أو رجل . والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله فإن هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

« أحدهما » أن يكتم بثَّه وألمه ، ولا يشكو إلى غير الله ، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانيين ؛ لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد ؛ بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين .

فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتي ، وهذا حسن ، وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ، ولا الاستعانة على معصية ، فهذا ينقص صبره ، لكن لا يأثم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم

---

(١) قال صاحب كشف الخفا : رواه الخطيب في ترجمة محمد بن داود الأصبهاني عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ فهو شهيد ، ورواه جعفر السراج في مصارع العشاق عن سويد بلفظ « من عشق فظفر فعف مات شهيداً » ورواه ابن المرزبان عن أبي بكر الأزرق عن سويد موقوفاً ، وقال ابن شيخه حدثه به مرفوعاً فعاتبه فيه فأسقط الرفع ثم صار بعد يرويه موقوفاً ، وقد رواه الزبير بن بكار عن مجاهد مرفوعاً بسند صحيح وذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج فقال :

فإن أهلك هوى أهلك شهيداً   وإن تمنن بقيت قرير عين
روى هذا لنا قوم ثقات   نأوا بالصدق عن كذب ومين

وقال في الدرر حديث : من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد له طرق عن ابن عباس ، وأخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور ، والخطيب في تاريخ بغداد وابن عساكر في تاريخ دمشق ، والديلمي بلا سند عن أبي سعيد رفعه : العشق من غير ريبة كفارة للذنوب ، قال : وله طرق عند البيهقي .

كالمصاب الذي يتسخط .

و« الثاني » أن يكتم ذلك فلا يتحدث بـه مع النـاس ؛ لما في ذلـك من إظهـار السوء والفـاحشة ، فـإن النفوس إذا سمعت مثـل هذا تحـركت وتشهت وتمنت وتتيّمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كـان ذلـك داعياً لـه إلى الفعل ، والنسـاء متى رأين البهائم تنزوا الذكور منهـا على الإنـاث مِلْن إلى الباءة ؛ والمجـامعة والـرجل إذا سمـع من يفعل مـع المردان والنسـاء أو رأى ذلـك أو تخيله في نفسـه دعـاه ذلـك إلى الفعـل ، وإذا ذكـر الإنسان طعاماً اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غير ذلك مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بـالوطن حنَّ إليه .

فكلما كان في نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبـة والطلب إلى ذلك المحبوب المطلوب ، إما إلى وصفه وإما إلى مشـاهدتـه ، وكلاهمـا يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بـالسماع والـرؤ ية أو التفكـر في بعض الأمور المتعلقة به ؛ فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى تخيلة أخـرى فتحركت داعيـة المحبة ، سـواء كـانت المحبـة محمـودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس إلى الحج إذا ذكر الحجاز ، وتتحرك بذكـر الأبرق والأجـرع والعلي ونحـو ذلـك ؛ لأنـه رأى تلك المنـازل لمـا كـان ذاهبـاً إلى المحبوب فصار ذكرها يذكر المحبوب ، وكذلك إذا ذكر رسـول الله ﷺ تذكـر به وتحركت محبته .

فالمبتلي بالفاحشة والعشق . إذا ذكـر ما بـه لغيره تحـركت النفوس إلى جنس ذلـك ؛ لأن النفوس مجبـولة على حب الصـور الجميلة ؛ فإذا تصـورت جنس ذلك تحركت إلى المحبوب ، ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة [1] .

---

(١) قـال تعالى : ﴿ إن الـذين يحبون أن تشيـع الفاحشـة في الذين آمنـوا لهم عذاب أليم في الـدنيـا =

فصل

في تفسير معنى النشوز في الآية

وسُئل الشيخ رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي تخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَ وَاْهْجُـرُوهُنَّ في المضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ [1] .

وقـوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُـزُوا فانْشُـزُوا ﴾ [2] إلى قولـه تعـالى : ﴿ وَاللهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ بين لنـا شيخنا هـذا النشوز من ذاك ؟ فـأجـاب :

الحمد لله رب العالمين « النشوز » في قوله تعالى :

﴿ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ في المضَاجِعِ ﴾

هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه ، بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش أو تخـرج من منزلـه بغير إذنـه ، ونحو ذلـك مما فيـه امتناع عمـا يجب عليها من طاعته .

وأمـا النشوز في قـوله : ﴿ إذا قِيـل انْشُزوا فـانشـزوا ﴾ فهـو النهـوض

= والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . سورة النور آية رقم ١٩ .

والفاحشة : الفعل القبيح المفرط القبح ، وقيل الفاحشة في هذه الآية القول السيء .

(١) سورة النساء آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

والقيام والارتفاع ، وأصـل هذه المـادة هو الارتفـاع [1] والغلظ ومنه النشـز من الأرض وهو المكان المرتفع الغليظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَانْـظُرْ إلى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِـزُهَا** ﴾ [2] أي نـرفع بعضهـا إلى بعض ، ومن قرأ ﴿ **ننشـزها** ﴾ أراد نحييها ، فسمى المرأة العاصية ناشزاً لمـا فيها من الغلظ والارتفـاع عن طاعـة زوجها ، وسمى النهوض نشوزاً ، لأن القاعد يرتفع عن الأرض . والله أعلم .

---

(١) النشز بالفتح ، والنشز بالتحريك المكان المرتفع وجمع النشز في القلة أنشز مثال فَلْس وأفلس قـال منظور بن حبة :

كـأنـه في الـرمـل لمـا حـلّزا ... أمـارَ مـسـحـاة يـشـق الأنـشـزا

وجمع الكثرة نشـوز ، وأما النشـاز بالفتـح فهو المكـان المرتفـع . وإنشـاز عـظام الميت رفعهـا إلى مواضعها وتركيب بعضها على بعض ومنه قوله تعالى ﴿ كيف ننشزهـا ﴾ قال ثعلب : وهـذه هي القراءة المختارة .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٩ .

فصل في تفسير قوله تعالى
﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ، الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ (١) في النساء ، وفي الحديد ﴿ والله لا يُحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ (٢) .

قد تؤولت في البخل بالمال والمنع ، والبخل بالعلم ونحوه ، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك ، كما تأولوا قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٣) النفقة من المال ، والنفقة من العلم ، وقال معاذ (٤) في العلم : تعلمه لمن لا يعلمه صدقة . وقال أبو الدرداء (٥) :

---

(١) سورة النساء آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣ ، ٢٤ وهي محرفة في المطبوعة وصحتها « والله لا يحب . . . » وإن كان يقصد سورة النساء ٣٧ فهي « ان الله لا يحب . . . » .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٤) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، أبو عبد الرحمن صحابي جليل ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي - ﷺ - وشهد العقبة مع الأنصار السبعين ، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - بعثه رسول الله قاضياً ومرشداً لأهل اليمن توفي عام ١٨ هـ [راجع ابن سعد ٣ : ١٣٠ والإصابة ت ٨٠٣٩ وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦] .

ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون وقد نفعهم الله بها . أو كما قال . وفي الأثر نعمة العطية ونعمت الهدية الكلمة من الخبر يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له ، أو كما قال : وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء؛ ولهذا كان الله ، وملائكته وحيتان البحر ، وطير الهواء ، يصلون على معلم الناس الخير ، كما أن كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون ، وبسط هذا كثير في فضل بيان العلم وذم ضده والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به ، فالبخيل به الذي منعه ، والمختال إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله ، وإما أنِ يختال على بعض الناس فلا يبذله ، وهذا كثيراً ما يقع عند بعض الناس إنه يبخل بما عنده من العلم ، ويختال به ، وأنه يختال عن أن يتعدى من غيره ، وضد ذلك التواضع في طلبه ، وبذله ، والتكرم بذلك .

(٥) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً بالمدينة ثم انقطع للعبادة ولما ظهر الاسلام اشتهر بالشجاعة والنسك وفي الحديث عويمر حكيم أمتي » و« نعم الفارس عويمر » توفي عام ٣٢ هـ . [راجع الإصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨] .

فصل
سر الجمع بين الخيلاء والبخل في موضع وبين العطاء والتقوى في موضع

قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل ، كما في قوله :

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ، الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ (١) في النساء والحديد وضد ذلك الإعطاء والتقوى المتض..نة للتواضع ، كما قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (٣) وهذا الأصلان هما جماع الدين العام ، كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع ، وذلك أصل التقوى والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم ، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له ، والتواضع له ، والذل له وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر . والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم ، وذلك مضاد للبخل .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .
(٢) سورة الليل آية رقم ٥ .
(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

ولهذا وغيره كثر في القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة في آيات من كتاب الله .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة [1] بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاءً له ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق ، وهذا المعنى ـ وهو دعاء الله أي قصده والتوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع ـ هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة كصلاة القائم والقاعد والمضطجع . والقارىء والأمي والناطق والأخرس وإن تنوعت حركاتها وألفاظها ، فإن إطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطىء المنافي للاشتراك والمجاز ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ، ومنهم من ادعى المجاز ، بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي ، أو مزيدة ، أو على غير ذلك ، وليس الأمر كذلك ؛ بل اسم الجنس العام المتواطىء المطلق إذا دل على نوع أو عين ، كقولك هذا الإنسان وهذا الحيوان ، أو قولك : هات الحيوان الذي

---

(١) الصلاة الدعاء ، والرحمة والاستغفار ، وحسن الثناء من الله تعالى على رسوله ، وعبادة فيها ركوع وسجود ، وصلاة الله للمسلمين هي في التحقيق تزكيته لهم ، وهي من الملائكة والناس : الدعاء والاستغفار، والصلاة : من العبادات التي لم تنفك شريعة منها ، وإن اختلفت صورها بحسب شرعٍ وشرعٍ ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .
وقال بعضهم : أصل الصلاة من الصلى ، ومعنى صلّى الرجل أزال عن نفسه بهذه العبادة الصلى الذي هو نار الله الموقدة ، ويسمى موضع العبادة الصلاة ، ولذلك سميت الكنائس : صلوات قال تعالى : ﴿ لهدمت صوامع وبيع وصلوات ﴾ .
وقد وردت الصلاة في القرآن على وجوه .
الأول : بمعنى الدعاء : ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ .
الثاني : بمعنى الاستغفار : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ .
الثالث : بمعنى الرحمة : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ .
الرابع : بمعنى الخوف : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾
الخامس : بمعنى صلاة العيد : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾

عنـدك وهي غنم ، فهنا اللفظ قـد دل على شيئين : على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد ، وعلى ما يختص به هذا النوع أو العين . فاللفظ المشترك الموجود في جميع التصاريف على القدر المشترك ، وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلاً أو غيرها دل على الخصوص والتعيين ، وكما أن المعنى الكلي المطلق لا وجود لـه في الخارج فكـذلك لا يـوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة .

فإن الكلام إنما يفيد بعد العقد والتركيب ، وذلك تقييد وتخصيص كقولك أكرم الإنسان ، أو الإنسان خير من الفرس . ومثله قوله : ﴿ أَقِمِ الصَّلاة ﴾ [1] ونحو ذلك ومن هنا غلط كثير من الناس في المعاني الكلية ، حيث ظنوا وجودها في الخارج مجردة عند القيود وفي اللفظ المتواطىء حيث ظنوا تجرده في الاستعمال عن القيود والتحقيق : أنه لا يوجد المعنى الكلي المطلق في الخارج إلا معيناً مقيداً ، ولا يوجد اللفظ الدال عليه في الإستعمال إلا مقيداً مخصصاً ، وإذا قدر المعنى مجرداً كان محله الذهن ، وحينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود في الإستعمال مجرداً .

و« المقصود هنا » ان اسم الصلاة فيه عموم وإطلاق ، ولكن لا يستعمل إلا مقروناً بقيد إنما يختص ببعض موارده كصلواتنا ، وصلاة الملائكة والصلاة من الله سبحانه وتعالى ، وإنما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هـذا الصنف مثل صلاة هذا ، مع علمهم بأن هـذا ليس مثل هـذا ، فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته وإن كان بينهما قدر متشابه ، كما قد حققنا هذا في الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم .

ومن هذا الباب أسماء الله وصفاته التي يسمى ويوصف العباد بما يشبهها

---

(١) قال تعالى : ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . سورة لقمان آية ١٧ .
وقال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ﴾ سورة الاسراء آية رقم ٧٨ .

كالحي والعليم والقدير ونحو ذلك .

وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : كل معروف صدقة [1] ، ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « على كل مسلم صدقة » [2] .

وأما الزكاة المالية المفروضة فإنما تجب على بعض المسلمين في بعض الأوقات والزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة ، كما قال النبي ﷺ ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدقه » قالوا : فإن لم يستطع ؟ قال : « يكف نفسه عن الشر » [3]. وأما قوله في الحديث الصحيح حديث أبي ذر وغيره :« كل سُلَامى [4] من الناس عليه صدقة

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٣٣ باب كل معروف صدقه ٦٠٢١ حدثنا أبو غسان ، قال : حدثني محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ٤٥ باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر ١٩٧٠ - بسنده عن جابر بن عبد الله وذكره وفيها زيادة [وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » وفي الباب عن أبي ذر قال الترمذي : هذا حديث حسن ، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ١٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٥٢ (١٠٠٥) بسنده عن حذيفة في حديث قتيبة قال : قال نبيكم - ﷺ - وقال ابن أبي شيبة وذكره . وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٤٤ ، ٣٦٠، ٤: ٢٠٧ (حلبي) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب ٣٣ باب كل معروف صدقه ٦٠٢٢ حدثنا شعبة ، حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وفيه زيادة[قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل . .؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يفعل . . ؟ قال : فليأمر بالخير أو قال بالمعروف قال : فإن لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر فإنه له صدقه] . وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ١٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ، ٥٥ (١٠٠٨) بسنده عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي - ﷺ - بالزيادة السابقة عند البخاري . وعند الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٩٥ (حلبي) .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الزكاة ١٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع =

كل يوم تطلع فيه الشمس » قال : تعدل بين الإثنين صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة » فهذا ـ إن شاء الله ـ كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق ، فإنه بمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى ، فيكون ذلك من الصدقة على الخلق ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة وجنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقة ، ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة وصدقة ؟ وكذلك كل دعاء للغير واستغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضاً ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكَّل الله به مَلَكاً ، كلما دعا له بدعوة قال المَلكُ الموكَّل به : آمين ولك بمثل »[1] .

= من المعروف ٥٦ (١٠٠٩) حدثنا عبد الرزاق بن همام ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد ـ رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر أحاديث منها وقال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٣ باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ٨٦ (٢٧٣٢) حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا أبي عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره وأخرجه أبو داود في كتاب الوتر ٢٩ .

فصل
في قول الناس : الآدمي جبار ضعيف

قول الناس : الآدمي جبار ضعيف ، أو فلان جبار ضعيف ، فإن ضعفه يعود إلى ضعف قواه ، من قوة العلم والقدرة ، وأما تجبره فإنه يعود إلى اعتقاداته وإراداته ، أما اعتقاده فأنه يتوهم في نفسه أنه أمر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك ، وهذا هو الاختيال والخيلاء [1] والمخيلة ، وهو أن يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له ، ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظماً ونثراً وطلبه للمدح الباطل ، فإنه يورث هذا الاختيال .

وأما الإرادة فإرادة أن يتعظم ويعظم ، وهو إرادة العلو في الأرض والفخر على الناس ، وهو أن يريد من العلو ما لا يصلح له أن يريده ، وهو الرئاسة والسلطان ، حتى يبلغ به الأمر إلى مزاحمة الربوبية كفرعون [2] ، ومزاحمة النبوة ، وهذا موجود في جنس العلماء والعباد والأمراء وغيرهم .

وكل واحد من الاعتقاد والإرادة يستلزم جنس الآخر ؛ فإن من تخيل أنه عظيم أراد ما يليق بذلك الاختيال ، ومن أراد العلو في الأرض فلا بد أن

---

(١) الخيلاء : التكبر عن تخيل فضيلة تراءى للانسان من نفسه وفي الحديث : قال النبي - ﷺ - لأبي بكر - رضي الله عنه « إنك لست تصنع ذلك خيلاء » .

(٢) قال تعالى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ . سورة القصص آية رقم ٣٨ .

يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره ، حتى يطلب ذلك .

ففي الإرادة يتخيله مقصوداً ، وفي الاعتقاد يتخيله موجوداً ، ويطلب توابعه من الإرادات .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [1] وقال النبي ﷺ « الكبر بطر الحق وغمط الناس » [2] فالفخر يشبه غمط الناس، فإن كلاهما تكبر على الناس ، وأما بطر الحق ـ وهو جحده ودفعه ـ فيشبه الاختيال الباطل ، فإنه تخيل أن الحق باطل بجحده ودفعه .

ثم هنا وجهان :

« أحدهما » أن يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات وهو أن يجعل الحق باطلا والباطل حقاً فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها ، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها ، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوها ، ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الإرادات ، فإن الفاخر يريد أن يرفع نفسه ويضع غيره وكذلك غامط الناس .

يؤ يد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال : « أنه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » [3] فبين أن التواضع المأمور به ضد البغي

---

(١) سورة لقمان آية رقم ١٨ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ٦١ باب ما جاء في الكبر ١٩٩٩ ـ حدثنا محمد بن المثنى ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا شعبة عن أبان بن تغلب عن فضيل بن عمرو عن ابراهيم عن علقمة ، عن عبد الله عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وأخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند١ : ٤٢٧ (حلبي) .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ١٦ باب الصفات التي يعرف =

والفخر . وقال في الخيلاء التي يبغضها الله : « الاختيال في الفخر والبغي » فكان في ذلك ما دل على أن الاستطالة على الناس ، إن كانت بغير حق فهي بغي » ، إذ البغي مجاوزة الحد . وإن كانت بحق فهي الفخر ؛ لكن يقال على هذا : البغي يتعلق بالإرادة فلا يجوز أن يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمه من باب الإرادة ، بل البغي كله في الأعمال والفخر في الأقوال ، أو يقال : البغي بطر الحق والفخر غمط الناس .

« الوجه الثاني » أن يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والإرادة ، لكن الخيلاء غمط الحق يعود إلى الحق في نفسه ، الذي هو حق الله وإن لم يتعلق به حق آدمي ، والفخر وغمط الناس يعود إلى حق الآدميين ؛ فيكون التنويع لتمييز حق الآدميين مما هو حق الله لا يتعلق الآدميين ؛ بخلاف الشهوة في حال الزنا ، وأكل مال الغير ، فلما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ، الَّذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُون النَّاسَ بِالبُخْلِ ﴾ (١)

والبخل منع النافع : قيد هذا بهذا ، وقد كتبت فيما قبل هذا من التعاليق : الكلام في التواضع والإحسان والكلام في التكبر والبخل .

= بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٦٤ حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين ، عن مطر ، حدثني قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار أخي بني مجاشع قال : قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم خطيباً فقال : « إن الله أمرني » وساق الحديث بمثل حديث هشام عن قتادة وزاد فيه وذكره .

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٢٣ باب البغي بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

في الزوائد : هذا إسناد حسن لاختلاف في اسم سنان بن سعد أو سعد بن سنان .

وأخرجة أبو داود في الأدب ٤٠ .

(١) سورة النساء آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .

فصل

في تفسير قوله تعالى :

﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾

قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ﴾ (١) الآية بعد قوله : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله ﴾ (٢) لو اقتصر على الجمع أعرض العاصي عن ذم نفسه والتوبة من الذنب ، والاستعاذة من شره ، وقام بقلبه حجة إبليس ، فلم تزده إلا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالاً حين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا ﴾ (٣) ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والإيمان بالقدر ، واللجاء إلى الله في الهداية ، كما في خطبته ﷺ : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره » فيشكره ويستعينه على طاعته ويستغفره من معصيته ، ويحمده على إحسانه . ثم قال : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » (٤) إلى آخره . لما استغفر من

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٨ وتكملتها ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح ١٩ باب خطبة النكاح ١٨٩٢ - حدثنا عيسى بن يونس ، حدثني أبي عن جدي أبي اسحاق عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : أوتي رسول الله ﷺ - جوامع الخير ، وخواتمه أو قال : فواتح الخير فعلمنا خطبة الصلاة وخطبة الحاجة وذكره . وذكره الترمذي في كتاب النكاح ١٧ باب ما جاء في خطبة النكاح ١١٠٥ - حدثنا قتيبة ، حدثنا عبثر بن القاسم عن الأعمش ، عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : وذكره .

قال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن رواه الأعمش عن أبي اسحاق عن ابي الأحوص =

المعاصي استعاذه من الذنوب التي لم تقع . ثم قال : « ومن سيئات أعمالنا » أي ومن عقوباتها . ثم قال : ﴿مَنْ يَهد الله فلا مضلّ له﴾ الخ . شهادة بأنه المتصرف في خلقه ، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد ، هذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين ، فإنما يتحققان بحمد الله وإعانته ، واستغفاره واللجاء إليه ، والإيمان بأقداره ، فهذه الخطبة عقد نظام الإسلام والإيمان .

الحسنات من الله تعالى

وقال كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه :

« الأول » أن النعم تقع بلا كسب » .

« الثاني » أن عمل الحسنات من إحسان الله إلى عبده ، فخلق الحياة وأرسل الرسل وحبب إليهم الإيمان ، وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك ، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تبت فزال .

« الثالث » أن الحسنة تضاعف .

« الرابع » أن الحسنة يحبها ويرضاها ، فيحب أن ينعم ويحب أن يطاع ؛ ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم إليه والشر إلى محله ، كما قال إمام الحنفاء : ﴿ الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [1] « الخامس » أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها بكل اعتبار ، وأما السيئة فما قدرها إلا لحكمة .

« السادس » أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة لأنها إما فعل مأمور أو ترك محظور ، والترك أمر وجودي ، فتركه لما عرف أنه ذنب

= عن عبد الله ـ عن النبي ـ ﷺ ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ٣٩٢ ، ٤٢٣ (حلبي) ورواه النسائي في الجمعة ٢٤ ، وفي النكاح ٣٩ .

(١) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ ـ ٨٠ .

وكراهته لـه ومنع نفسـه منه أمـور وجودية ، وإنما يثـاب على الترك على هـذا الوجه .

وقد جعل النبي ﷺ البغض [1] في الله من أوثق عرى الإيمان وهو أصل الترك ، وجعل المنـع لله من كمال الإيمـان وهو أصـل الترك . وكـذلك بـراءة الخليل [2] من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركـاً محضاً ؛ بـل صادراً عن بغض وعداوة . وأما السيئات فمنشؤها من الظلم والجهل . وفي الحقيقة كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها ؛ فإن هذا خاصة العقل ، وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهـوة ، والغفلة ، والشهوة أصـل الشر كمـا قـال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [3] الآية :
« السابع » أن ابتلاءه له بـالذنـوب عقوبـة له على عـدم فعل مـا خلق له وفُطِر عليه .

« الثـامن » أنما يصيبـه من الخير والنعم لا تنحصـر أسبابـه من إنعام الله عليه ؛ فيرجع في ذلك إلى الله ، ولا يرجو إلا هـو ، فهو يستحق الشكـر التام الذي لا يستحقه غيره ، وإنما يستحق من الشكـر جزاء على مـا يسره الله على يـديه ؛ ولكن لا يبلغ أن يشكـر بمعصية الله ، فـإنه المنعم بمـا لا يقـدر عليـه مخلوق ، ونعم المخلوق منه أيضاً ، وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحـد على مثله .

---

(١) روى الامام أحمد في المسند بسنده عن عمرو بن الجموح أنـه سمع رسـول الله - ﷺ - يقول : لا يحق العبـد حق صـريـح الايمـان حتى يحب لله تعـالى ويبغض لله ، فـإذا أحب لله تبـارك وتعـالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقـد استحق الولاء من الله وأن أوليـائي من عبادي وأحبـائي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم » .

(٢) قال تعالى : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ . الأنعام آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

فإذا عرف أن ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ (١) .

صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده ، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له ، والشر انحصر سببه في النفس ؛ فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله ، كما قال بعض السلف : لا يرجُوَنَّ عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه وقد تقدم قول السلف ابن عباس وغيره : إنما أصابهم يوم أحد مطلقا كان بذنوبهم لم يستثن أحد ، وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ؛ لئلا يظن أنه عام مخصوص .

« التاسع » أن السيئة إذا كانت من النفس والسيئة خبيثة : كما قال تعالى ﴿ الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ (٣) وقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (٤) والأقوال والأفعال صفات للقائل الفاعل ، فإذا اتصفت النفس بالخبث فمحلها ما يناسبها ، فمن أراد أن يجعل الحيات يعاشرن الناس كالسنانير لم يصلح ؛ بل إذا كان في النفس خبث طهرت حتى تصلح للجنة ، كما في حديث أبي سعيد الذي في الصحيح وفيه : « حتى إذا هُذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » (٥) .

---

(١) سورة فاطر آية رقم ٢ .
(٢) سورة النور آية رقم ٢٦ .
(٣) سورة إبراهيم آية رقم ٢٦ .
(٤) سورة فاطر آية رقم ١٠ .
(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم (١) وفي كتاب الرقاق ٤٨ باب القصاص يوم القيامة ، وهي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور ، ٦٥٣٥ - حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا وذكره .
ورواه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٢ ، ٦٢ ، ٧٤ (حلبي)

فإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [1] ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [2] الخ .

وعلم أن الرب عليم حكيم ، رحيم عدل ، وأفعاله على قانون العدل والإحسان ، كما في الصحيح « يمين الله ملآى »[3] . إلى قوله : والقسط بيده الأخرى » وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل .

إلى أن قال : ومن سلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر والنهي أن يقول ـ كما نقل عن الشاذلي ـ [4] يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية تستلزم

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣ فيما أنكرت الجهمية ١٩٧ ـ حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا محمد بن اسحاق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال : يمين الله ملأى لا يغيضها شيء سحاء الليل والنهار وبيده الأخرى الميزان يرفع القسط ويخفض قال : أرأيت ما أنفق منذ خلق الله السموات والأرض . . ؟ فإنه لم ينقص مما في يديه شيئاً .

وأخرجه الترمذي في تفسير سورة (٥) ٣ ـ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ / ٣١٣ ، ٥٠٠ (حلبي) .

(٤) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي أبو الحسن ، رأس الطائفة الشاذلية « من المتصوفة » وصاحب الأوراد المسماة (حزب الشاذلي) ولد في غمارة من قرى أفريقية عام ٥٩١ هـ وتفقه وتصوف بتونس ، وسكن (شاذلة) فنسب إليها وسكن الاسكندرية وتوفي بصحراء (عيذاب) في طريقه إلى الحج عام ٦٥٦ هـ ينتسب إلى الأدارسة أصحاب المغرب .

قال الذهبي نسب مجهول لا يصح ولا يثبت كان أولى به تركه . [راجع نكت الهميان ٢١٣ وطبقات الشعراني ٢ : ٤] .

تعطيل الأمر والنهي ، مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الـذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء كما في حزب الشاذلي . وآخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر وكافر ، ويقولون : هذه موهبة ، ويظنونها من الكرامات وهي من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِن عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ** ﴾ إلى قـوله ﴿ **هَـارُوتَ وَمَارُوتَ** ﴾ [1] ، وصح قوله : « لَتتبعُنَّ سُنن من كان قبلكم »[2] .

فعـدل كثيـر من المنتسبين إلى الإسـلام إلى أن نبـذ القـرآن وراء ظهـره واتبع ما تتلو الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ونهيه ، ولا يوالي من أمر القـرآن بمـوالاته ، ولا يعـادي من أمر القـرآن بمعاداتـه ؛ بـل يعـظم من يـأتي ببعض الخوارق .

ثم مِنهم من يعرف أنه من الشياطين ؛ لكن يعظمه لهواه ، ويفضله على طريقة القران ، وهؤلاء كفار ، قال الله تعالى فيهم :

﴿ **أَلَمْ تَـرَ إلى الَّـذِينَ أُوتُـوا نَصِيبـاً مِنَ الكِتَـابِ ، يُؤْمِنُـونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ** ﴾ [3] الخ .

قال : وفي قوله تعالى : ﴿ **مِنْ نَفْسِك** ﴾ من الفوائد : إن العبد لا يطمئن إلى نفسه ، ولا يشتغل بملام الناس وذمهم ؛ بل يسأل الله أن يعينه على طاعته ؛

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤ باب قـول النبي ـ ﷺ « لتتبعن سنن من كـان قبلكم » ٧٣٢٠ ـ حدثنـا أبو عمـر الصنعـاني من اليمن عن زيـد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيـد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ وذكـره وأخرجـه الامام مسلم في كتـاب العلم ٣ بـاب اتباع سنن اليهـود والنصارى ٦ ـ (٢٦٦٩) حـدثني سويـد بن سعيـد ، حـدثنـا حفص بن ميسرة حدثني بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيـد الخدري قـال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥١ .

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة ، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة ، ويدخل فيه من أنواع الحاجات ما لا يمكن حصره ، ويبينه أن الله سبحانه لم يقص علينا قصة في القرآن إلا لنعتبر ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ؛ فلولا أن في النفوس ما في نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ؛ ولكن الأمر كما قال تعالى :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾(١) وقوله : ﴿أَتَوَاصَوْا ﴾(٢) وقوله : ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(٣) ؛ ولهذا في الحديث « لتسلكن سنن من كان قبلكم »(٤) .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به ، وطلب أن يكون شريكاً له ، وكلا هذين وقع .

وقال بعضهم ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسداً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى ؛ ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون .

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١١٨ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث عند الامام البخاري والامام مسلم ـ وذكره ابن ماجه في كتاب الفتن ١٧ باب افتراق الامم ـ ٣٩٩٤ ـ حدثنا يزيد بن هارون عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ولفظه : لتتبعن سنة من كان قبلكم باعا بباع ، وذراعاً بذراع ، وشبراً بشبر ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه » .
قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذا ؟ »
في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

وقال الشيخ الامام العالم العلّامة

شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحْرّاني ، تغمده الله تعالى برحمته .

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

فصل
في توضيح أقوال العلماء ورجال الفرق والرد عليهم

في قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (١) وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة .

هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه ، قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ﴾ (٢) الآيات .

إلى أن ذكر صلاة الخوف ، وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول . والتحاكم إلى الله وإلى الرسول ، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول . فكانت تلك الآيات : تبيينا للإيمان بالله وبالرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (٣) وهذا جهاد عما جاء به الرسول ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٦٥ .

وشجر معناه اختلف واختلط ، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه ويقال لعصى الهودج : شجار لتداخل بعضها في بعض قال الشاعر :

نفس فداؤك والرماح شواجر ... والقوم ضنك للقاء قيام =

وقد قال تعالى ﴿ إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ (١) وقال تعالى :

﴿ قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الذينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ ﴾ (٣) ـ الآية .

وقال تعالى :

﴿ يَا أيها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

وقال طرفة

وهم الحكام أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر الشجر

وقالت طائفة : نزلت في الزبير مع الأنصاري ، وكانت الخصومة في سقي البستان فقال عليه السلام : اسق أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك . فقال الخصم : أراك تحابي ابن عمتك ، فتلون وجه الرسول ـ ﷺ ـ وقال للزبير اسق ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدر : والحديث رواه البخاري عن علي بن عبد الله بن محمد بن جعفر عن معمر ، ورواه مسلم عن قتيبة عن الزهري . [راجع تفسير القرطبي ٥ : ٢٦٧ وتفسير الطبري وأسباب النزول للواحدي رقم ٦٥] .

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٤ .

(٣) سورة التوبة الآيات رقم ١٩ ـ ٢١ .

تؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١) .

وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونهيه عن ضد ذلك ، وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه وعصمته من إضلال الناس له وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وذم من شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين ، وتعظيم أمر الشرك وشديد خطره وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء ـ إلى أن بين أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التي شرعها لا بالبدع والأهواء وهل أهل ملة ابراهيم ، الذين اتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (٢) فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة ابراهيم ، وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبين أن ترك الجهاد : لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا في بروج مشيدة ، فلا ينالون بترك الجهاد منفعة ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة ، فقال تعالى :

---

(١) سورة الصف آية رقم ١٠ ـ ١٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْـدِيكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّـلَاةَ ، وَآتُوا الـزَّكَاةَ ، فَلَمَّـا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّـاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (١) .

وهـذا الفريق قـد قيل : إنهم منـافقون وقيـل : نافقـوا لمـا كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جُبن وفشل . فكان في قلوبهم مرض كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْـهِ مِنَ الْمَوْتِ فَـأَوْلَى لَهُمْ ، طَاعَـةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ ـ الآية (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ مَا وَعَـدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٣) .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَـوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّـدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُـولُوا هَـذِهِ مِنْ عِنْـدِكَ قُـلْ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ اللهِ ، فَـمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَـوْمِ لَا يَكَـادُونَ يَفْقَهُـونَ حَدِيثاً ؟ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٧ .
« قل متاع الدنيا قليل » والمتاع منفعة الدنيـا والاستمتاع بلذاتهـا وسماه قليـلاً لأنه لا بقـاء له . وقال النبي ـ ﷺ ـ « مثلي ومثل الدنيا كراكب قال قيلولة تحت شجرة ثم راح وتركها » .

(٢) سورة محمد آية رقم ٢٠ ـ ٢١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ١٢ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٨ :
قال الامام القرطبي بعد أن وضح أقوال العلماء في معنى البروج وفي لسان العرب وقـول عامـر =

فالضمير في قوله ﴿ وإن تصبهم ﴾ يعود إلى من ذكر ، وهم الـذين **﴿ يخشون الناس ﴾** أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما في مواضع كثيرة وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود ، وقيل : كانـوا منافقين وقيـل : بل كـانوا من هؤلاء وهؤلاء ، والمعنى يعم كـل من كان كـذلك ، ولكن تنـاوله لمن أظهـر الإسلام وأمر بالجهاد : أولى . ثم إذا تناول الذم هؤلاء : فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى .

والذي عليه عامة المفسـرين : أن **﴿ الحسنة ﴾** و**﴿ السيئـة ﴾** يراد بهمـا النعم والمصائب . ليس المراد : مجرد ما يفعله الإنسان باختيـاره باعتبـاره من الحسنات أو السيئات .

= ابن الطفيل للنبي - ﷺ - هل لك في حصن حصين ومنعة . . ؟
قال : هذه الآية ترد على القدرية في الآجال لقوله تعالى **﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾** .
فعرفهم بذلك أن الآجال متى انقضت فـلا بد من مفـارقة الـروح الجسد ، كـان ذلك بقتـل أو موت أو غير ذلك مما أجرى الله العادة بزهوقها به .
وقالت المعتزلة : إن المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش . . ؟؟

فصل

« حقيقة الحسنات والسيئات في كتاب الله » .

ولفظ ﴿ الحسنات ﴾ و ﴿ السيئات ﴾ في كتاب الله : يتناول هذا وهذا قال الله تعالى عن المنافقين ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا : قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٤) .

وقال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ (٥) ذكر هذا بعد قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٤٨ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ١٣١ .

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١)

وأما الأعمال المأمور بها والمنهي عنها : ففي مثل قوله تعالى :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلا مثلها (٢) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٤) .

وهنا قال ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ (٥) ولم يقل : وما فعلت وما كسبت كما قال :

﴿ وَما أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٦)

وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (٧)

وقال تعالى : ﴿ قُل هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ ﴾ (٨)

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ (٩)

وقال تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ (١٠) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ المَوْتِ ﴾ (١١) .

وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١٢) .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٠ .
(٢) سورة القصص آية رقم ٨٤
(٣) سورة هود آية رقم ١١٤ .
(٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٠ .
(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ .
(٦) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .
(٧) سورة المائدة آية رقم ٤٩ .
(٨) سورة التوبة آية رقم ٥٢ .
(٩) سورة التوبة آية رقم ٥٢ .
(١٠) سورة الرعد آية رقم ٣١ .
(١١) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .
(١٢) سورة البقرة آية رقم ١٥٥ ـ ١٥٦ .

فلهذا كان قول ﴿ **ما أصابك من حسنة** ﴾ و ﴿ **من سيئة** ﴾ متناول لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .

تفسير السلف لهذه الآية

فالآية متناولة لهذا قطعاً ، وكذلك قال عامة المفسرين قال أبو العالية [1] : ﴿ **إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِن عِندِ الله** ﴾ قال : هذه في السراء ﴿ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ** ﴾ [2] قال : وهذه في الضراء .

وقال السدي : ﴿ **إن تصبهم حسنة** ﴾ قالوا والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤ هم الغلمان ﴿ **قالوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة** ﴾ قالوا - والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشاؤماً بمحمد - قالوا : ﴿ **هذه من عندك** ﴾ يقولون : بتركنا ديننا ، وأتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ الحسنة والسيئة ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟** ﴾ [3] قال : القرآن .

وقال الوالبي [4] عن ابن عباس ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ الله** ﴾ [5] قال : ما فتح الله عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبي أيضاً عن ابن عباس ﴿ **من حسنة** ﴾ قال : ما أصابك من الغنيمة والفتح فمن الله . قال : « والسيئة » ما أصابه يوم أحد . إذ شج في وجهه ، وكسرت رباعيته .

---

(١) سبق الترجمة لهذا العالم الجليل في الجزء الأول في كلمة وافية فليرجع إليها .

(٢) سورة النساء آيه رقم ٧٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

(٤) لم نعثر على ترجمة له على كثرة تفتيشنا وبحثنا عنه في كتب التراجم والطبقات ولعل الله سبحانه وتعالى يقيض لنا بعض الباحثين ليدلنا عليه .

(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وقال : أما « الحسنة » فأنعم الله بها عليك ، وأما « السيئة » فابتلاك الله بها .

وروي أيضاً عن حجاج عن عطية [1] عن ابن عباس ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾ قال : هذا يوم بدر ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ قال : هذا يوم أحد ، يقول : ما كان من نكبة فمن ذنبك وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة [2] عن اسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح ﴿ **فمن نفسك** ﴾ قال : فبذنبك وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروي أيضاً عن مطرف بن عبد الله بن الشخير [3] . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء .

---

(١) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي القيسي الكوفي أبو الحسن روى عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وابن عباس وابن عمر ، وزيد بن أرقم ، وعكرمة ، وعدي بن ثابت ، وعبد الرحمن بن جندب وغيرهم وروى عنه ابناء الحسن وعمرو والأعمش والحجاج بن أرطاة وعمرو بن قيس وغيرهم . قال البخاري قال لي علي عن يحيى عطية وأبو هارون وبشر بن حرب عندي سواء ، وقال مسلم بن الحجاج قال أحمد وذكر عطية العوفي فقال : هو ضعيف الحديث ، ثم قال بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي ويسأله عن التفسير . وقال أبو حاتم ضعيف ، وقال النسائي ضعيف له ترجمة في التهذيب ٧ : ٢٢٤ .

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي أبو محمد ، محدث الحرم المكي من الموالي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ كان حافظاً ثقة ، واسع العلم ، كبير القدر قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وحج سبعين سنة له « الجامع » في الحديث ، وكتاب في التفسير » [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠] .

(٣) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري ، أبو عبد الله : زاهد من كبار التابعين ، له كلمات في الحكمة مأثورة ، وأخبار ثقة فيما رواه من الحديث . ولد في حياة النبي ـ ﷺ ـ ثم كانت إقامته بالبصرة ووفاته بها عام ٨٧ هـ [راجع حلية الأولياء ٢ : ١٩٨ ـ ٢١٢ والتهذيب ١٠ : ١٧٣ وفيه الخلاف في تاريخ وفاته وفي وفيات الأعيان ٢ : ٩٧ مات سنة ٨٧ هـ] .

﴿ **إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك** ﴾ أي من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر . وقد أمروا به . وإليه يصيرون . وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس ﴿ **إن تصبهم حسنة** ﴾ الخصب والمطر ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ الجدب والبلاء .

وقال ابن قتيبة [1] ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ قال : الحسنة النعمة ، والسيئة البلية . وقد ذكر أبو الفرج [2] في قوله « ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أن « الحسنة » ما فتح الله عليهم يوم بدر . و« السيئة » ما أصابهم يوم أُحُد . قال : رواه ابن أبي طلحة ـ وهو الوالبي ـ عن ابن عباس .

قال : والثاني « الحسنة » الطاعة . و« السيئة » المعصية . قاله أبو العالية .

والثالث « الحسنة » النعمة . و« السيئة » البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبي العالية نحوه . وهو أصح .

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد ، من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد عام ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ثم ولى القضاء مدة توفي ببغداد عام ٢٧٦ هـ من كتبه « تأويل مختلف الحديث » ومشكل القرآن ، والمشتبه من الحديث والقرآن وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧] .

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج علامة عصره في التاريخ والحديث كثير التصانيف له نحو ثلاث مئة مصنف ولد عام ٥٠٨ هـ وتوفي عام ٥٩٧ هـ من تصانيفه الأذكياء وأخبارهم ، والمدهش ، ودقائق العربية ، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٧] .

« رأي الامام ابن تيمية »

قلت : هذا هو القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الداري عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثاني : فهو لم يذكر إسناده . ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد . وكثير منها ضعيف . بل كذب لا يثبت عمن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية فأما الصنف الأول : فهي تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثاني : فليس مراداً دون الأول قطعاً . ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة في حقه من الله أصابته . وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التي عملت السيئة . وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذي أوجب الجزاء : أولى أن يكون من نفسه .

فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه . مع أن الجميع مُقدر كما تقدم ، وقد روي عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ ﴿ **فيمن نفسك** ﴾ ، وأنا قدرتها عليك .

فصل
عوامل ارتكاب العبد للمعصية
الثانية

والمعصية الثانية : قد تكـون عقوبـة الأولى ، فتكون من سيئـات الجزاء مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي ﷺ - في الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضي الله عنـه ، عن النبي ﷺ « عليكم بالصـدق ، فإن الصـدق يهـدي إلى البـر ، والبر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (١) .

---

(١) الحـديث أخرجـه ابن ماجـه في المقدمـة ٧ باب اجتنـاب البدع والجـدل ٤٦ - بسنده عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود مطولاً مـع اختلاف في لفـظه [وأنه يقـال للصادق صـدق وبر ويقال للكاذب كذب وفجر] .

وأخرجه الإمـام مسلم في كتاب البـر والصلة والآداب ٢٩ بـاب قبـح الكـذب وحسن الصـدق وفضله ١٠٣ (٢٦٠٧) بسنـده عن أبي وائل عن عبـد الله بن مسعود ، وفيـه عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله بـن مسعود .

وأخرجه الترمذي في كتـاب البر والصلة ٤٦ بـاب ما جـاء في الصدق والكـذب ١٩٧١ - بسنده عن عبد الله بـن مسعود أيضاً وذكره قال : وفي الباب عن أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعبد الله بن الشخير وابن عمر .

وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وأخـرجه البخـاري في الأدب ٦٩ ، وأبو داود في =

« الحسنة ثواب على حسنة سابقة »

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تثبيتاً ، وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ، وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٦) .

وقال تعالى ؛ ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾(٧) .

= الأدب ٨٠ والدارمي في الرقاق ٧ وصاحب الموطأ في الكلام ١٦ .
والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ٣٨٤ ، ٤٠٥ ، ٢٣٢ (حلبي) .

(١) سورة النساء آية رقم ٦٦ ـ ٦٨ .
(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٦٩ .
(٣) سورة محمد آية رقم ٤ ـ ٦ .
(٤) سورة الروم آية رقم ١٠ .
(٥) سورة المائدة آية رقم ١٥ ـ ١٦ .
(٦) سورة الحديد آية رقم ٢٨ .
(٧) سورة الأعراف آية رقم ١٥٤ .

وقال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1)

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾ (2)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ (3)

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (4)

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (5)

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (6)

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ـ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ـ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (7)

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (8)

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .
(2) سورة فصلت آية رقم ٤٤ .
(3) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(4) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .
(5) سورة يوسف آية رقم ٢٢ .
(6) سورة القصص آية رقم ١٤ .
(7) سورة محمد آية رقم ١ ـ ٣ .
(8) سورة الأحزاب آية رقم ٧٠ ، ٧١ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

قال أبو عثمان النيسابوري (٢) : من أمر السنة على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالحكمة . ومن أمر الهوى على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (٣) قلت: وقد قال في آخر السورة ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ، أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ـ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة النور آية رقم ٥٤ .
(٢) سبق الترجمة له في الجزء الأول .
(٣) سورة النور آية رقم ٥٤ .
(٤) سورة النور آية رقم ٦٣ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٥٥ .
(٧) سورة الصف آية رقم ٥ ـ ٧ .
(٨) سورة البقرة آية رقم ٨٨ .

وقال تعالى أيضاً ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلَّا قَلِيلاً ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٣) .

وقال تعالى في النوعين :

﴿ إذْ يُوحي رَبُّكَ إلَى الْمَلائِكَةِ : إنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ، وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٢٥ ـ ٢٦ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٢ ـ ١٣ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٥١ .

الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٣) ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى : الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ (٥)

وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

---

(١) سورة الحشر آية رقم ٢ ـ ٤ .

(٢) سورة آل عمران الآيات رقم ١١١ ـ ١١٢ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٨٠ ـ ٨١ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٨٢ .

(٥) سورة محمد آية رقم ٢٢ ـ ٢٦ .

مِنَ الصَّـالِحِينَ . فَلَمَّا آتَـاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ، وَتَـوَلَّوْا وَهُمْ مُعْـرِضُـونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا الله مَـا وَعَدُوهُ وَبِمَـا كَانُـوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ الله إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُـوكَ لِلْخُرُوجِ . فَقُـلْ لَنْ تَخْرُجُـوا مَعِي أَبَداً ، وَلَنْ تُقَـاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً . إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِـالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : في ضد هـذا ﴿ وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ . وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ـ ـ إلى قـوله ـ وَلَـوْ قَاتَلَكُمُ الَّـذِينَ كَفَرُوا لَـوَلَّوُا الأَدْبَـارَ ، ثُمَّ لاَ يَجِـدُونَ وَلِيّـاً وَلاَ نَصِيـراً . سُنَّـةَ الله الَّتِي قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ (٣)

وتوليهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم وهـذا باب واسع .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٧٥ ـ ٧٧ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٨٣ .

(٣) سورة الفتح آية رقم ٢٠ ـ ٢٢ .

فصل
الذنوب التي يعملها العبد من نفسه
وإن كانت مقدرة عليه

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت ـ وهي مضرة ـ جاز أن يقال هي مما أصابه من السيئات وهي بذنوب تقدمت . وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه ، وإن كانت مقدرة عليه ، فإنه إذا كان الجزاء الذي هو مسبب عنها من نفسه فعمله الذي هو ذلك الجزاء : من نفسه بطريق الأولى ، وكان النبي ﷺ يقول في خطبته « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » [1] وقال له أبو بكر رضي الله عنه : علمني دعاء . فقال : « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه . أشهد ألا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم . قُلْه إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » [2] .

فقد تبين أن قوله ﴿ فَمِن نفسك ﴾ يتناول العقوبات على الأعمال ويتناول الأعمال . مع أن الكل بقدر الله .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ٩٥ باب ٣٥٢٩ ـ حدثنا اسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد عن أبي راشد الحيراني . قال أتيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت له =

فصل
ضلال القدرية في فهمهم للآية

وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد ـ حسنة كان ، أو سيئة ـ هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات . لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات . وليس واحد منهما من احداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر ، لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات ، بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة ما يكون جزاءاً ، كما يقوله أهل السنة .

= حدثنا مما سمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ فالقى إلي صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله ـ ﷺ ـ قال فنظرت فيها فإذا فيها وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٩٨ ، ١٠١ والدارمي في الاستئذان ٥٤ وأحمد بن حنبل في المسند ١ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ٢ : ١٩٦ ، ٢٩٧ (حلبي) .

لكن على هـذا : فليست عندهم كـل الحسنـات من الله ، ولا كـل السيئات بل بعض هذا وبعض هذا .

الثاني : أنه قـال ﴿ كل من عنـد الله ﴾ فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بـذلك في الأعمـال ، بل في الجزاء . وقولـه ـ بعد هـذا ـ ﴿ ما أصـابك من حسنـة ﴾ و ﴿ من سيئة ﴾ مثـل قوله ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ .

الثـالث : أن الآية أريـد بهـا : النعم ، والمصـائب ، كمـا تقـدم وليس للقـدرية المجبـرة أن تحتج بهـذه الآية على نفي أعمـالهم التي استحقـوا بهـا العقاب . فإن قوله ﴿ كل من عند الله ﴾ هو النعم والمصائب ، ولأن قوله ﴿ ما أصـابـك من حسنـة فمن الله ومـا أصـابـك من سيئـة فمن نفسـك ﴾ . حجـة عليهم . وبيان أن الإنسان هو فاعل السيئات . وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليهِ بالحسنات ـ عملها وجزائها ـ فإنه إذا كان ما أصـابهم من حسنة فهـو من الله : فالنعم من الله . سواء كانت ابتداءً أو كانت جزاءاً وإذا كـانت جزاء ـ وهي من الله ـ فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضاً من الله . أنعم بها الله على العبد . وإلا فلو كان هـو من نفسه كمـا كانت السيئـات من نفسه ـ لكـان كل ذلك من نفسه . والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنـة . كما في الحـديث الصحيـح الإلهي : عن الله « يـا عبـادي ، إنمـا هي أعمـالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلـك ، فلا يلومَن إلا نفسـه »[1] وقال تعـالى : ﴿ أَولَمَّا أَصَـابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَـدْ

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) حدثنا مروان (يعني ابن محمد الدمشقي) حـدثنا سعيـد بن عبد العـزيز عن ربيعة بن زيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر ، عن النبي ـ ﷺ ـ فيما روى عن الله تبـارك وتعالى أنـه قال وذكـره . وفيه [يـا عبادي كلكم ضـال إلا من هـديتـه فـاستهـدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته . . الخ] قال سعيد : كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبته .

أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (1)

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (2)

وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (5)

وقال تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ومِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (6)

وقال تعالى للمؤمنين ﴿ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ . أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (7)

وقد أمروا أن يقولوا في الصلاة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(2) سورة الروم آية رقم ٣٦ .

(3) سورة الروم آية رقم ٤١ .

(4) سورة هود آية رقم ١٠١ .

(5) سورة الزخرف آية رقم ٧٦ .

(6) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(7) سورة الحجرات آية رقم ٧ .

فصل
ليس في كلام الله تعالى ضلال أو إشكال

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالاً ، أو تناقضاً في الظاهر ، حيث قال : ﴿ كلٌّ من عند الله ﴾ ثم فرق بين الحسنات والسيئات . فقال ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية . وليس في الآية تناقض ، لا في ظاهرها ، ولا في باطنها ، لا في لفظها ومعناها ، فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، الناكصين عن الجهاد ، ما ذكره بقوله :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ،وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِن عِندِ الله ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [1] هذا يقولونه لرسول الله ﷺ ، أي بسبب ما أمرتنا به من دينك ، والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هـذه السيئات . لأنـك أمرتنـا بما أوجبهـا . فالسيئات هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها

وقولهم ﴿ من عندك ﴾ . تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة لأنه أمرهم بالجهاد . وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطير . أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك ، كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

وكما قال أهل القرية للمرسلين ﴿ إنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ (1) وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ ﴾ (2) فكانوا يقولون عما يصيبهم - من الحرب ، والزلزال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو - هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السمائية إنها منك . أي بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ (3) فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث به مسبباً لشر أصابه : إما من السماء . وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا ﴿ هذه من عندك ﴾ بمعنى : أنك أنت الذي أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئاً من ذلك ولم يكن قولهم ﴿ من عندك ﴾ خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول ﷺ .

ومن فهم هذا تبين له أن قوله ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ لا يناقض قوله ﴿ كل من عند الله ﴾ بل هو محقق له . لأنهم - هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة - يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمل به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

---

(1) سورة يس آية رقم ١٨ .

(2) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

(3) سورة الحج آية رقم ١١ .

والفتنة والبلاء يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً وقوله تعالى : ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام ﴾ إشارة إلى ما قاله الله تعالى ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ البقرة آية ١٥٥ .

وقد ورد في القرآن على وجوه كثيرة . =

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل ، لكن يقدحون في القضية المعينة فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول ، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول [1] يوم أحد ـ إذ كان رأيه مع رأي النبي ﷺ أن لا يخرجوا من المدينة ـ فسأله ﷺ ممن كان له رغبة في الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لأمته [2] . فلما لبس لأمته ندموا وقالوا للنبي ﷺ أنت أعلم ، فإن شئت أن لا نخرج فلا نخرج ، فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » [3] يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج ، لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج .

= (١) بمعنى العذاب : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾
(٢) بمعنى الشرك : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ .
(٣) بمعنى الكفر : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة ﴾ ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ أي كفرتم .
(٤) بمعنى الاثم : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ أي إثم .
(٥) بمعنى البلاء والمحنة ﴿ أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ إلى غير ذلك .

(١) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي المشهور بابن سلول ، وسلول جدته لأبيه ، من خزاعة رأس المنافقين في الإسلام . من أهل المدينة أظهر الاسلام بعد وقعة بدر تقية ولما تهيأ النبي ـ ﷺ ـ لغزوة أحد انخزل أبي ومعه ثلاثمائة رجل وله في ذلك أخبار كثيرة توفي عام ٩ هـ [راجع تاريخ الخميس ٢ : ١٤٠] .

(٢) لأمته بسكون الهمزة هي الدرع ، وقيل الأداة بفتح الهمزة وتخفيف الدال وهي الآلة من درع وبيضة وغيرهما من السلاح والجمع لأم بسكون الهمزة مثل تمرة وتمر ، وقد تسهل وتجمع أيضاً لؤم بضم ثم فتح على غير قياس ، واستلأم للقتال إذا لبس سلاحه كاملاً .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٨ باب قول الله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وشاورهم في الأمر .
قال : وأن المشاورة قبل العزم والتبين لقوله تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ فإذا عزم الرسول ـ ﷺ ـ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله . وشاور النبي ـ ﷺ ـ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج فرأوا له الخروج فلما لبس لأمته وعزم قالوا : أقم . فلم يمل إليهم بعد العزم وذكره . وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٥١ (حلبي) .

فصل
أقوال العلماء في تفسيرهم للآية

والمفسرون ذكروا في قوله ﴿ **وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك** ﴾ هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدي ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا تشاؤما بدينه .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم [1] . قال : بسوء تدبيرك - يعني : كما قاله عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد - وهم كالذين ﴿ **قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ [2] .

فبكل حال : قولهم ﴿ **من عندك** ﴾ هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان والجهاد . وجعل ذلك : هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أحد ، وتارة تصيب عدوهم فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ، كما قال أصحاب القرية للمرسلين ﴿ **إنا تطيرنا بكم** ﴾ وكما قال

---

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي ، روى عن أبيه وابن المنكدر وصفوان بن سليم وغيرهم . وعنه ابن وهب ، وعبد الرزاق ووكيع والوليد بن مسلم وغيرهم .
قال أبو طالب عن أحمد ضعيف ، وقال أبو حاتم سألت أحمد عن أولاد زيد أيهم أحب إليك قال أسامة . قلت وعبد الرحمن . قال كذا ليس مثله وضعف أمره قليلاً وقال البخاري وأبو حاتم ضعفه علي بن المديني . له ترجمة في التهذيب ٦ : ١٧٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٨ .

تعالى عن آل فرعون ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَعَهُ ، أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وقال تعالى عن قوم صالح ﴿ قَالُوا : أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ . قَالَ : طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ . بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (2)

ولما قال أهل القرية ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِن لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ . أَئِن ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ (3) .

قال الضحاك : في قوله ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابكم من أمر فمن الله ، بما كسبت أيديكم .

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس « معايبكم »

وقال قتادة : « عملكم عند الله » .

وفي رواية غير علي : « عملكم عند الله ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (4) أي تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبي حاتم وغيره . وعن ابن اسحاق قال : قالت الرسل ﴿ طائركم معكم ﴾ : أي أعمالكم . فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها ، لأنهم كانوا يقولون :

إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم . فبين الله سبحانه : أن طائرهم ـ وهو الأعمال وجزاؤها ـ هو عند الله وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ١٣١ .

(2) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

(3) سورة يس آية رقم ١٨ ، ١٩ .

(4) سورة النمل آية رقم ٤٧ .

أَلْـزَمْنَاهُ طَـائِرَهُ فِي عُنُقِـهِ ﴾ [1] وهو من الله ؛ لأن الله تعـالى قدر تلك المصـائب جزاءاً على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفي هذا يقال إنهم : إنما يجزوْن بأعمالهم ، لا بأعمال غيـرهم . ولذلـك قال في هذه الآيـة ـ لما كـان المنافقـون والكفار ومن في قلبـه مرض يقـول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا بين سبحـانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا ردٌّ على من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لئلا تصيبـه تلك المصائب . وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعـلى من أصابته مع كفره بالرسول ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٣ .

فصل
ما يصيب المسلم ليس بسبب وحي الرسول ولكن بذنوبه

والمقصود : أن ما جاء به الرسول ﷺ سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبته ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة ، ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم . لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ [1] .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى في شأن هذه الغزوة ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ .
والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه قال : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾
وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ، ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها .
وفي الوقت نفسه يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾
لقد كان قدر الله وراء أفعال البشر ، فلما أن ضعفوا أو تنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ، ولكن مدبراً من الله ليبتليهم .
وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها بلا تعارض بين هذا وذاك فكل حادث سبب ووراء كل سبب تدبير من اللطيف الخبير .

إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا بـه كما يفتن الـذهب بالنـار ، ليتميز طيبـه من خبيثه والنفـوس فيهـا شـر . والامتحـان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمنـوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُـهَـدَاءَ ، وَالله لاَ يُحِبُّ الـظَّالِمِـينَ ، ولِـيُمَـحِّصَ الله الَّـذِينَ آمَـنُـوا وَيَمْحَـقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1]

وقـال تعـالى : ﴿ وَلِيَبْتَـلِيَ الله مـا في صُـدُورِكُـمْ وَلِيُـمَحِّصَ مَـا في قُلُوبِكُمْ ﴾ [2] ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه ﴿ طَائِرُكُمْ عِنْدَ الله . بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [3] ولهذا كانت المصائب تكفر سيئـات المؤمنين ، وبـالصبر عليهـا ترتفع درجاتهم وما أصـابهم في الجهاد من مصـائب بأيـدي العدو ، فـإنه يعـظم أجرهم بالصبر عليها .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : « ما من غازية يغزون في سبيـل الله ، فيسلمـون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجـرهم ، وإن أصيبـوا وأخفقـوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فـذاك يكتب لهم به عمـل صالح ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ في سَبِيلِ الله ، وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُـونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْـلاً إلاَّ كُـتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ الله لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [4] .

وشواهد هذا كثيرة .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٠ ـ ١٤١ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٥٤ .
(٣) سورة النمل آية رقم ٤٧ .
(٤) سورة التوبة آية رقم ١٢٠ .

فصل
في تفنيد أقوال الأدعياء والكافرين

والمقصود : أن قوله ﴿ **إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله** ﴾

فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب [١] بسبب ما جاءهم به الرسول وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد ، أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله لا من عند محمد ، محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا ﴿**فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾ [٢] ؟ قال السدي وغيره : هو القرآن . فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه : تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل والصدق والتوحيد ، لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب . فإنهم إذا فهموا ما في القرآن علموا : أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

---

(١) يقول الرسول ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يصيب منه » أي من أراد به خيراً ابتلاه بالمصائب ليثيبه عليها ، يقال : مصيبة ومصابة وقد أجمعت العرب على همز المصائب وأصلها الواو كأنهم شبهوا الأصل بالزائد ، ويجمع أيضاً على مصاوب على الأصل ، وقال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ الشورى آية ٢٠ .
وأصاب جاء في الخير والشر قال تعالى : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة** ﴾ سورة التوبة آية ٥٠ وقال بعضهم الإصابة في الخير اعتباراً بالصوب ، أي المطر ، وفي الشر اعتباراً باصابة السهم .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٨ .

وهـذا مما يبـين أن ما أمـر الله به : يعلمِ بـالأمر بـه حسنه ونفعـه ، وأنـه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يـأمر الله العبـاد بما لا مصلحـة لهم فيه إذا فعلوه . بل فيه مضرة لهم .

فإنه لـو كان كذلك لكان قد يصدقـه المتطيـرون بالـرسل وأتبـاعهم . ومما يوضح ذلك : أنه لما قال ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابـك من سيئة فمن نفسك ﴾ . قال بعدها ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [1] فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهـد الله له كفى به شهيداً ، ولم يضره جُحد هؤلاء لرسالة بمـا ذكروه من الشبـه التي هي عليهم لا لهم بمـا أرادوا أن يجعلوا سيئـاتهم وعقـوبـاتهم حجـة عـلى إبـطال رسالته ، والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولاً . فكان ختم الكـلام بهذا إبطالاً لقولهم : إن المصائب من عند الرسول ، ولهذا قال بعد هذا :

﴿ مَنْ يُـطِعِ الـرَّسُـولَ فَقَـدْ أَطَـاعَ الله ، وَمَنْ تَـوَلَّى فَـمَا أَرْسَلْنَـاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ [2] .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ الرسول : تارة يقال للقول المتحمل كقول نفيلة الأشجعي :

الا أبـلغ أبـا حـفص رسـولاً   فـدى لـك مـن أخـي ثـقـة إزاري

والـرسول يقـال للواحد والجمـع قال تعـالى : ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ وقـال ﴿ إنا رسـول رب العالمين ﴾ ولم يقل (رسل) .

والرسول يذكر ويراد به الرسالة قال كثير :

لقـد كـذب الـواشـون مـا بحت عنـدهم   بـلـيـلي ولا أرسـلـتـهـم بـرسـول

أي برسالة ، وأما الرسول بمعنى الرسل فكقول أبي ذؤ يب

ألـكـني إلـيـهـا وخـير الـرسـول   أعـلـمـهـم بـنـواحـي الخـبـر

أي وخير الرسل .

والمراسيل : الابل الخفاف التي تعطيك ما عندها عفواً الواحدة رسلة قال كعب بن زهير :

أمـسـت سـعـاد بـأرض لا تـبـلغـهـا   إلا الـعـتـاق الـنـجـيـبـات المـراسـيـل

وقوله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ أي الرياح وقيل : الملائكة ، وقيل : الخيل .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٠ .

فصل

إبطال قول الجهمية في تصورهم للثواب والعقاب

وكان فيما ذكره أبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب ، وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر . فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها وهي حجة على الفريقين .

فإن قال نفاة القدر : إنما قال في الحسنة ﴿ هي من الله ﴾ وفي السيئة ﴿ هي من نفسك ﴾ لأنه يأمر بهذا وينهى عن هذا باتفاق المسلمين . قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر ، فما أمر به فقد شاءه وما لم يأمر به لم يشأه ، فكانت مشيئته وأمره حاضة على الطاعة دون المعصية ، فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا : الحسنة من الله ، والسيئة من عندك» أرادوا من عندك يا محمد، أي بسبب دينك فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب. وهذا غير مسألة القدر. وإذا كان قد أريد: أن الطاعة والمعصية[1] ـ مما قد قيل ـ كان قوله ﴿كلٌّ من عند الله﴾ حجة عليكم كما تقدم.

---

(١) يقول الامام القرطبي : إنما تكون الحسنة الطاعة والسيئة المعصية في نحو قوله : « من جاء =

وقوله بعد هذا ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ لا ينافي ذلك ، بل « الحسنة » أنعم الله بها وبثوابها ، و« السيئة » هي من نفس الإنسان ناشئة وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى ﴿ **مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ [1] فمن المخلوقات ما له شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من أحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها ؟ وهذا مخالف للقرآن .

= بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » .

وأما في هذه الآية فهي من الخصب والجدب والرخاء والشدة على نحو ما جاء في آية الأعراف ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من التمرات لعلهم يذكرون** ﴾ . بالسنين بالجدب سنة بعد سنة ، حبس المطر عنهم فنقصت ثمارهم وغلت أسعارهم « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » أي يتشاءمون ويقولون هذا من أجل اتباعنا لك وطاعتنا إياك فرد الله عليهم بقوله : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ يعني أن طائر البركة والشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق [تفسير القرطبي ٥ : ٢٨٦ - ٢٨٧] .

(١) سورة الفلق آية رقم ٢ .

فصل

نعم الله على عباده بلا سبب وعقابه لا يكون إلا بذنب

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة ، فلم فرق بين الحسنات ، التي هي النعم [1] ، والسيئات التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟. قيل : لفروق بينهما :

« الفرق الأول » أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب أصلاً ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشىء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً ، ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل . وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

« الفرق الثاني » أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة ﴿ الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ [2] .

---

(١) وضح الامام القرطبي هذه القضية توضيحاً لا مزيد بعده لمتزيد ورد على القدرية في تصوراتهم عن هذه الآية .

وأشار في نهاية كلمته الى أنه نص على هذه المقالة الإمام أبو الحسن شبيب بن ابراهيم بن محمد ابن حيدرة في كتابه المسمى « بحر الغلاصم في إفحام المخاصم » .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٤٣ .

وفي الحديث الصحيح « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلُومَنَّ إلا نفسه » (١)

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة : هو من نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به : هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه : وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين : هو من نعمته ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكم الايمانَ وَزَيَّنَه في قُلُوبِكُم وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الراشِدُون فَضْلاً مِنَ الله ونعمة** ﴾ (٢)

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً ، ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به ، وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء فقوله ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾ حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » (٣) فلا تكون إلا بذنب العبد ، وذنبه من نفسه وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث وقلنا إنه جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) بسنده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ - فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . . الخ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٧ ـ ٨ .

(٣) السيئة : الفعلة القبيحة ، وهي ضد الحسنة ، وأصلها سيوئة فقلبت الواو ياء ثم أدغمت فقيل سيء ، وأفعال سيئة ، وفلان يخبط الحسنى بالسوءى ، وقد ساء عمله .

فصل
على العبد أن يشكر إذا أنعم عليه ويتوب إذا أخطأ

فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله فشكر الله فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه .

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه : استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته « الحمد لله »[1] فيشكر الله . ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ومن عقوبة عمله ، فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ بالله من شر النفس : أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله . فاستعانه على الطاعة وأسبابها واستعاذ به من المعصية وعقابها .

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه وقد أخرجه الترمذي في كتاب النكاح ١٧ باب ما جاء في خطبة النكاح ١١٠٥ ـ حدثنا قتيبة ، حدثنا عبثر بن القاسم عن الأعمش ، عن أبي اسحاق ، عن ابي الأحوص عن عبد الله وذكره .

والذي ذكره الترمذي (إن الحمد لله) وفي نهايته ويقرأ ثلاث آيات .

قال عبثر : ففسره لنا سفيان الثوري : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ ﴿ اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله ﴿ قل كل من عند الله ﴾ .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في ﴿ من عند الله ﴾ .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير : من نعمة الله فاشكروه يزدكم ، وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (1)

وقال تعالى : ﴿ آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (2)

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ، كآدم وغيره . وإذا أصرّ ، واحتج بالقدر : فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر: أن

---

(1) سورة الأنفال آية رقم ٣٣ .

والغفر : الستر . اللهم غفراً ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه النار أو العذاب .

ومن دعاء الأعراب : اللهم أسألك الغفيرة ، والناقة الغزيرة ، والعز في العشيرة قال :

كل الذنوب فإن الله يغفرها ... إن شيع المرء إخلاص وإيمان

وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران

(2) سورة هود آية رقم ١ ـ ٣ .

الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم »[1] فيستغفر مما مضى ، ويستعيذ مما يستقبل فيكون من حزب السعداء . وإذا علم أن الحسنة من الله ـ الجزاء والعمل ـ سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله ﴿ إِيَّاكَ نعبد وإياك نستعين ﴾ وبقوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقوله ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[2] ونحو ذلك . وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق فإنه يحصل من هذا التسوية . فأعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه أن يحتج على الله بالقدر ، وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه ، بل تزيده عذاباً وشقاءاً ، كما زادت إبليس لما قال ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] وقال ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4] .

وكالذين يقولون يوم القيامة ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[5] وكالذين قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾[6]

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٣٩ .

(٥) سورة الزمر آية رقم ٥٧ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

وشرك الإنسان في الدين ضربان : أحدهما : الشرك العظيم ، وهو إثبات شريك الله تعالى الله عن ذلك يقال : أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر والثاني : شرك صغير ، وهو مراعاة غير الله =

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع .

= معه في بعض الأمور وذلك كالرياء والنفاق المشار إليه بقوله : جعلا له شركاء فيما آتاهما « [سورة الأعراف آية ١٩٠] وقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [سورة يوسف آية ١٠٦] أي واقعون في شرك الدنيا أي حبالتها قال ومن هذا قول رسول الله ـ ﷺ ـ [الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا]

فصل

الحسنة يضاعفها الله وينميها والسيئة لا يضاعفها

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويثيب على الهم بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهم بها [1] ، فيعطي صاحب الحسنة : من الحسنات فوق ما عمل ، وصاحب السيئة : لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [2] .

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحس بها من كل وجه كما تقدم ، فما من وجه من وجوهها : إلا وهو يقتضي الإضافة إليه وأما السيئة : فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه . فإن الرب لا يفعل شيئاً قط . بل فعله كله حسن وحسنات وفعله كله خير .

---

(1) أخرج الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٩ باب إذ هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ، ٢٠٤ ، بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ،وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم اكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » .

وكذلك الترمذي في تفسير سورة ٦ ، ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٢٧ ، ٢٤٢ (حلبي) .

(2) سورة الأنعام آية رقم ١٦٠ .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح « والخير بيديك. والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً. بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس وهو شر جزئي إضافي . فأما شر كلي ، أو شر مطلق : فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس إليه .

وأما الشر الجزئي الإضافي : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١) .

وإما أن يضاف إلى السبب كقوله ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (٢) .

وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن ﴿ وأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ (٣) ؟

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل فرقة كذَّبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ، لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .

وفرقة : لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت : إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة . وما ثم فعل تنزه عنه . بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله .

وجوَّزوا أن يأمر بكل كفر ومعصية وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذِّب الأنبياء ، وينعم الفراعنة والمشركين وغير ذلك ، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٢ .

(٢) سورة الفلق آية رقم ٢ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١٠ .

وهـذا منكر من القـول وزور ، كالأول . قـال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّـذِينَ اجْتَـرَحُوا [١] السَّيِّئَـاتِ : أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ سَـواءً مَحْيَـاهُمْ وَمَمَـاتُهُمْ ؟ سَـاءَ مَـا يَحْكُمُـونَ ؟ ﴾ [٢] وقـال تعـالى : ﴿ أَفَنَجْعَـلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [٣] وقال تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَـلُ الَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ كَـالمُفْسِـدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِين كَالفُجَّارِ ﴾ [٤] ؟ ونحـو ذلك ممـا يوجب أنـه يفرق بين الحسنـات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء وأن من جـوز عليه التسـوية بينهمـا : فقـد أتى بقـول منكر وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى بـه بعض الحيوان : لا يكـون فيه حكمـة . بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة : يكون شراً كلياً عاماً . بـل الأمور العامة الكلية ؛ لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهـذا مما يقتضي : أنـه لا يجوز أن يؤ يـد الله كذابـاً عليه بـالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين . فإن هذا شـر عام للنـاس يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هـذا كالملك الـظالم ، والعدو . فـإن الملك الظالم : لا بـد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه : فذاك ضـرر في الدين ، كـالمصائب تكـون كفارة

---

(١) الاجتراح : اكتساب الإثم ، وأصله من الجـراحة ، كمـا أن الاقتراف من قـرف القرحـة : أي أخذ قشرتها .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ٢١ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٥ ـ ٣٦ .

(٤) سورة ص آية رقم ٢٨ .

لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول ـ أي يدعي ـ أنه نبي [١] فلو أيده الله تأييد الصادق : للزم أن يسوي بينه وبين الصادق فيستوي الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا مما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي ﷺ : بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج [٢] . وأمر بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبئون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾[٣] وقال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ، فَإِن يَشَأ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[٤] فأخبر : أنه ـ بتقدير الافتراء ـ لا بد أن يعاقب من افترى عليه .

---

(١) أدعياء النبوة في كل عصر ومصر أكثر من أن يحصيهم العد والحصر منهم : بيان بن سمعان التميمي صلبه وأحرقه خالد بن عبد الله القسري ومنهم : منصور العجلي الملقب بالكسف . ومنهم : بزيغ الحائك ومعمر بائع الحنطة ، وعمير التبان بالكوفة وعمار الملقب بخداش قتله أسد بن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسري . [راجع ما كتبه ابن حزم في هذا الموضوع عند حديثه عن شنع الفرق ص ١٨٤ وما بعدها جـ ٤ من كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل] .

(٢) راجع كلمة عن الخوارج وشنعهم في كتاب الفصل لابن حزم فقد تكلم عنهم بما فيه الكفاية جـ ٤ : ١٨٨ ـ ١٩٢ .

(٣) سورة الحاقة آية رقم ٤٤ ـ ٤٦ . والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٢٤ .

فصل
مناقشة النافين لحكمة الله تعالى والأسباب التي بها يفعل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلّت القدرية النفاة [1] والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره : جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام وبين الشر الإضافي والشر المطلق ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال ، فأنا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو يفعل ما يفعل بالخبر ، خبر الأنبياء عنه ، وإلا فهما قدر ؛ جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله ، ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضي التخصيص

---

(١) القدرية النفاة في رأي الإمام ابن تيمية هم المعتزلة ولهم أراء وتهويمات في قضية العدل الالهي والحكمة الإلهية .

ببعض الأفعال دون بعض ، بل ليس إلا مشيئة نسبتها إلى جميع الحوادث سواء ، ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم ؛ فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز ، فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق ، فيلزم ـ مع الكفر بالأنبياء ـ أن لا يعلم الفرق ، لا يسمع ولا يعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها ، بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار ، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفتين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الجبر ـ ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التي بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها ـ هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم الصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة ؛ مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل
الشر لا يضاف الى الله إلا على وجوه ثلاث

والمقصود هنا الكلام على قوله ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ وأن هذا يقتضي ، أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة . هو سبحانه : الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » (١) وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه (٢) وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته **٥٩٩٩** - حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه قال : قدم على النبي - ﷺ : سبى فإذا امرأة تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي - ﷺ - وذكره .
وأخرجه مسلم في كتاب التوبة ٤ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٢٢ (٢٧٥٤ بسنده عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة بسنده عن ابن عمر بلفظ ﴿ **أوليس الله بأرحم بعباده من الأم بولدها** ﴾ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٥٥ باب قول الله تعالى ﴿ **بل هو قرآن مجيد في** =

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [1] .

وقد قال سبحانه ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [2] ثم قال : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [3] وقال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [4] فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه ، فهي من موجب نفسه المقدسة ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة . فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده ولا يأتيه الشر إلا من نفسه ، فما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه .

وقوله ﴿ وما أصابك ﴾ إما أن تكون كاف الخطاب له ﷺ ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ [5] .

= لوح محفوظ ﴾ ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ ٧٥٥٤ ـ حدثنا محمد بن اسماعيل حدثنا معتمر ، سمعت أبي يقول ، حدثنا قتادة أن أبا رافع حدثه أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ يقول: إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق وذكره .

وأخرجه مسلم في كتاب التوبة ٤ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ١٤ (٢٧٥١) بسنده عن أبي هريرة وذكره .

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٥ بسنده عن أبي هريرة بلفظ « إن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ﴿ إن رحمتي تغلب غضبي ﴾

وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ (حلبي) .

(١) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٩ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٥٠ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وإما أن تكون لكل واحد واحد من الآدميين ، كقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ؟ ﴾ [1] .

لكن هذا ضعيف . فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه ، وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه ، فلو أريد ذكرهم : لقيل (ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة) . لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم [2] ، وإذا كان هذا حكمه : كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى ، كما في مثل قوله ﴿ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ ﴾ [3]

وقوله تعالى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [4] وقوله ﴿ فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [5]

« خطاب القرآن نوعان »

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظ به لكن يتناول غيره بطريق الأولى كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ؟ ﴾ [6] ثم قال ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [7] ونوع : قد يكون خطابه خطاباً به لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين الخطاب له والمراد غيره .

---

(١) سورة الانفطار آية رقم ٦ .

(٢) أخرج ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الشفاعة ٤٣٠٨ حدثنا هشيم أنبانا علي بن زيد ابن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله - ﷺ - أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر » .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ١ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

(٦) سورة التحريم آية رقم ١ .

(٧) سورة التحريم آية رقم ٢ .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك . بل هو المقدم . فالخطاب خطاب لجميع الجنس البشري . وإن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه ، ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمير للأمير : سافر غداً إلى المكان الفلاني . أي أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ الخطاب له ﷺ وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله ﴿ **وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً** ﴾ (١) فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب . كما قال ﷺ « بلغوا عني ولو آية » (٢) وقال : نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » (٣) وقال : « ليبلغ الشاهد الغائب » (٤) وقال : « إن العلماء ورثة

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣٤٦١ حدثنا حسان بن عطية عن أبي كبشة عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : وذكره وفيه زيادة [وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار] . وأخرجه الترمذي في كتاب العلم ١٣ باب ما جاء في الحديث عن بني اسرائيل ٢٦٦٩ - بسنده عن عبد الله بن عمرو .
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ (حلبي) والدارمي في المقدمة ٤٦ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب العلم ٧ باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٢٦٥٧ حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود أنبأنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يحدث عن أبيه قال : قال سمعت رسول الله - ﷺ - وذكره قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد رواه عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله . وأخرجه أبو داود في العلم ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٤٣٧ ، ٥ : ١٨٣ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم ٩ باب قول النبي - ﷺ « رب مبلغ أوعى من سامع » ٦٧ حدثنا ابن عون عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ذكر النبي - ﷺ قعد على بعير وأمسك بخطامه - أو بزمامه - قال : أي يوم هذا . . ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه =

الأنبياء » (١) وقد قال تعالى في القرآن ﴿ **وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** ﴾ (٢) .

والمقصود هنا أن « الحسنة » مضافة إليه سبحانه من كل وجه . و« السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها ، كما خلق « الحسنة » فلهذا قال ﴿ **كل من عند الله** ﴾ . ثم إنه إنما خلقها لحكمة ، ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل . لأن المراد بقوله ﴿ **ما أصابك من حسنة** ﴾ - ﴿ **ومن سيئة** ﴾ النعم والمصائب ، كما تقدم لكن إذا كانت المصيبة من نفسه - لأنه أذنب - فالذنب

= سوى لمسه ، قال : أليس يوم النحر قلنا بلى قال : فأي الشهور هذا . . ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : أليس بذي الحجة . . ؟ قلنا : بلى . قال : **فإن دمائكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا.**

وذكره ثم قال [فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه » وفي الأضاحي ٥ ، والحج ١٣٢ والصيد ٨ ، والفتن ٨ والمغازي ٥١ ، ٧٧ والتوحيد ٢٤ .

وأخرجه مسلم في كتاب القسامة ٢٩ ، ٣٠ ، وأبو داود في التطوع ١٠ والترمذي ٧ - في كتاب الحج عن رسول الله - ﷺ باب ما جاء في حرمة مكة وفيه (وليبلغ الشاهد الغائب)

وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣١ ، ٣٣ ، ٥ : ٤ : ٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٩ (حلبي)

(١) الحديث رواه أحمد والأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم - الحديث . وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما وحسنه حمزة الكتاني ، وضعفه غيرهم لاضطراب سنده ، ولكن له شواهد ، ولذا قال الحافظ له طرق يعرف بها أن للحديث أصلاً ، ورواه الديلمي عن البراء بن عازب بلفظ الترجمة وزيادة (**يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا** . وقال النجم وروى أبو يعلى عن علي : **العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء** .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله ﴿ كل من عند الله ﴾ كما تقدم . لأنها لا تضاف إلى الله مفردة . بل إما في العموم ، كقوله ﴿ كل من عند الله ﴾ . وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع » ، المعطى المانع ، المعزل المذل » أو مقيدة ، كقوله ﴿ إِنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [١] .

وكل ما خلقه مما فيه شر جزئي إضافي ـ ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه . وذلك شر بالإضافة إليهم لكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون ـ ما هو خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضربه . كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً للآخرِينَ ﴾ [٢] وقال تعالى بعد ذكر قصته ﴿ إِنَّ في ذلك لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ [٣] .

وكذلك محمد ﷺ : شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب . وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه . ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

---

(١) سورة السجدة آية رقم ٢٢ .
(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ ـ ٥٦ .
(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٦ .
العبرة بالفتح : الدمعة ، ومنه عابر سبيل ، وعبر القوم : ماتوا كأنهم عبروا قنطرة الدنيا ، وأما العبارة فمختصة بالكلام العابر الهواء من لسان المتكلم الى سمع السامع ، والاعتبار والعبرة بالكسر : الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد ، والتعبير : مختص بتفسير الرؤ يا ، وهو العابر من ظاهرها الى باطنها ، وهو أخص من التأويل والتأويل يقال فيه وفي غيره ، وقد عبر الرؤ يا يعبرها عبْراً وعبارة . قال تعالى : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ [سورة يوسف آية ٤٣] .

ولذلك من شقي به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ . فأهلك الله بالجهاد طائفة واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله وهم دائماً يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد . فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي ، لما في ذلك من الخير والحكمة أيضاً . إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلاً ، بل هو شر بالإضافة .

فصل
الثواب على فعل الحسنة حباً لها وعلى ترك السيئة كرهاً لها

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية ، أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ، ليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودي . وكل موجود وحادث فالله هو الذي يحدثه . وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه ، والترك : أمر وجودي . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات ـ كالعدل والصدق ـ حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محباً لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الأَيْمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الراشِدُونَ ﴾ [1]

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ٧ .

وقال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٢)

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال :

« ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومَن كان يَحبُّ المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى في النار » (٣) وفي السنن عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ« أوثق عرى الإيمان :الحب في الله ،والبغض في الله » (٤).

وفيها عن أبي إمامة عن النبي ﷺ « مَن أَحَبَّ لله وأَبْغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » (٥) وفي الصحيح عن أبي سعيد

---

(١) سورة النازعات آية رقم ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الايمان ١٥ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ٦٧ ـ حدثنا عبد الوهاب عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس عن النبي ـ ﷺ ـ قال وذكره ، وأخرجه البخاري في كتاب الايمان ٩ باب حلاوة الايمان ١٦ ـ بسنده عن أنس عن النبي ـ ﷺ ـ

(٤) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٢٨٦ بسنده عن البراء بن عازب قال : كنا جلوساً عند النبي ـ ﷺ . فقال : أي عرى الاسلام أوسط . . .؟ قالوا : الصلاة قال : حسنة وما هي بها قالوا : الزكاة قال : حسنة وما هي بها . قالوا صيام رمضان قال : حسن وما هو به قالوا : الحج قال حسن وما هو به . قالوا الجهاد : قال حسن وما هو به . قال : إن أوسط عرى الايمان أن تحب في الله وتبغض في الله » .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ٦٠ باب ٢٥٢١ حدثنا عبد الله بن يزيد ، =

الخدري عن النبي ﷺ قال : « من رأى منكم مُنكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [1]

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، لما ذكر الخلوف - قال « من جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [2] وقد قال تعالى ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في ابْراهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَءآؤُا مِنْكُمْ وِممَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إلاَّ قَوْلَ ابْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [3] . وقال على لسان الخليل ﴿ **إنَّني**

= حدثنا سعيد بن أبي أيوب عن أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه وذكره قال الترمذي : هذا حديث حسن .
وأخرجه أبو داود في كتاب البنة ١٥ .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، ٧٨ - ٤٩ عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، وهذا حديث أبي بكر قال أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال الصلاة قبل الخطبة فقال : قد تُرك ما هنالك فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وذكره .
وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١١ باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو اللسان أو بالقلب ٢١٧٢ بسنده عن طارق بن شهاب .
وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي في إيمان ١٧ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠ ، ٤٩ (حلبي)

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٨٠ (٥٠) بسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره » ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون وذكره .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

بُرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾[1] وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ؟ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلَّا رَبَّ العَالَمِينَ ﴾[3] وقال : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ، قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾[3] فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه : أمور موجودة في القلب وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول ﴿ لا إلا الله ﴾ وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلاً صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته . فلا يعبد إلا الله . ويحب أن يعبده ويبغض عبادة غيره ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه ويبغض التوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب . وهي الحسنات التي يثيب الله عليها وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحبها ولا يبغضها ـ فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات . ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها . فكأنه لم يفعلها فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون[4] والبهيمة لا ثواب ولا عقاب . ولكن إذا قامت عليه

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ ـ ٧٧ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) روى ابن ماجه بسنده في كتاب الطلاق ١٥ باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ٢٠٤١ عن الأسود عن عائشة . أن رسول الله ﷺ قال :

« رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق

قال أبو بكر : في حديثه « وعن المبتلي حتى يبرأ » .

الحجة بعلمه تحريمها . فإن لم يعتقد تحـريمها ويكـرهها ، وإلا عـوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل
التنازع في الترك هل وجودي أو عدمي . . ؟

وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة ـ كأبي هاشم بن الجبائي [1] ـ إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه ويسمون « المذمية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي . فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه وهو أن يأمره الرسول ﷺ بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي . ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره فيعاقب على ذلك .

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أن يكون عابداً لغيره يعبد غيره فيكون مشركاً ، وليس في بني آدم قسم ثالث ، بل إما مُوحد ، أو مشرك

(١) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان ، عالم بالكلام من كبار المعتزلة ، له أراء انفرد بها وتبعته فرقة سميت « البهشمية » نسبة الى كنيته ، وله مصنفات في الاعتزال كما لأبيه من قبله ولد عام ٢٤٧ هـ وتوفي عام ٣٢١ هـ [راجع المقريزي ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٧٦ وميزان الاعتدال ٢ : ١٣٢] .

أو من خلط هذا كالمبدلين من أهل الملل : النصارى ومن أشبههم من الضلال ، المنتسبين إلى الإسلام . قال الله تعالى :

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1] .

وقد قال تعالى : **﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾** [2] لما قال إبليس **﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ولأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾** [3] .

قال تعالى : **﴿ إِنَّ عِبادي ليس لك عليهم سُلطانٌ [4] إلا مَنِ اتَّبَعَكَ من الغاوين ﴾** .

فأبليس لا يغوي المخلصين ، ولا سلطان له عليهم . إنما سلطانه على الغاوين وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله **﴿ الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾** صفتان لموصوف واحد فكل مَن تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه . قال تعالى **﴿ أَلَم**

---

(١) سورة النحل آية رقم ٩٨ ـ ١٠٠ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) السلاطة : التمكن من القهر ، سلطته فتسلط قال تعالى **﴿ ولو شاء الله لسلطهم ﴾** [سورة النساء آية ٩٠] ومنه سمي السلطان ، قيل : هو جمع سليط وفي الحديث [السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم » وقال : « من اقترب من أبواب السلطان افتتن » وقال الشاعر :

دع السلطان فالسلطان ليث ... ولا تتعرضنّ له فتضرس
وكن في مجلس السلطان أعمى ... وكن عن مجلس السلطان أخرس

أعْهـد إليكم يـا بني آدم : أن لا تعبـدوا الشيـطان إنــه لكم عـدُوٌّ مبين . وَأَنِ اعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١) .

وكـل من عَبد غيـر الله فإنمـا يعبد الشيـطان ، وإن كان يـظن أنـه يعبـد المـلائكـة والأنبيـاء . وقـال تعـالى ﴿ وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً ، ثُمَّ يَقُـولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّـاكُمْ كَانُـوا يَعْبُدُونَ ؟ قَـالُوا : سُبْحَانَكَ ! أَنْتَ وَلِيُّنَـا مِن دُونِهِم . بَـلْ كَانُـوا يَعْبُـدُونَ الجِنَّ أَكْثَـرُهُم بِهِم مُؤْمِنُـونَ ﴾ (٢) ولهـذا تتمثـل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم فيظنون أن الذي خـاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي ، وإنمـا هـو شيطان ، جَعـل نفسـه مَلَكـاً من الملائكة ، كمـا يصيب عباد الكـواكب وأصحاب العـزائم والطلسمـات (٣) ، يسمون أسماء ، يقولون : هي أسماء الملائكـة مثل منـطرون وغيره ، وإنمـا هي أسمـاء الجن . وكذلـك الـذين يـدعـون المخلوقين من الأنبيـاء والأوليـاء والمـلائكة قـد يتمثل لأحـدهم من يخاطبـه ، فيظنـه النبي ، أو الصالـح الذي دعاه . وإنما هو شيطان تصور في صورته ، أو قال : أنـا هو ، لمن لم يعـرف صورة ذلك المدعو .

---

(١) سورة يس آية رقم ٦٠ ، ٦١ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٤٠ ، ٤١ .

(٣) كان علم الطلاسم يشتغل به المصريون القدماء والبابليون والكلدانيون والسريانيون ، وكان له عندهم المؤلفات الكثيرة .

قال ابن خلدون في مقدمته « ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليـل مثل الفـلاحة النبـطية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هـذا العلم وتفننوا فيـه ، ووضعت بعد ذلـك الأوضاع مثـل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب « طمطم » الهندي في صور الدرج والكـواكب وغيرهم . ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان فاستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف وأكثـر الكلام فيهـا وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها ثم جـاء مسلمة بن أحمـد المجريـطي إمام أهـل الأندلس في التعاليم والسحريـات فلخص جميع تلك الكتب وهـذبها وجمـع طرقهـا في كتابـه الذي سمـاه « غـايـة الحكيم » ولم يكتب أحـد في هـذه العلم بعـده انتهى [راجـع دائـرة معـارف القـرن العشرين ٥ : ٧٧٠]

وهذا كثير يجري لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ، ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم ، فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث في صورة آدمي إما راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المستغيث : إنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره أو روحانيته ، أو رقيقته أو المعنى تشكل ، أو يقول : إنه ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودَعا غيره : الميت فمن دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك ، فظن أنه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك ، وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته ، وإنما هو الشيطان ، ليزيده غُلُوًّا في كفره وضلاله فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بدَّ أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو في الحقيقة عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن ، وإما عابد للشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضُ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ حَتَّى إذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ إذ ظَلَمْتُمْ أنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينِ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ ـ ٣٩

(٢) المجوس : هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصلين نور وظلمة قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن وقيل المجوس في الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأيم والأين .

وَالمَجُوسَ [1] وَالَّذِينَ أَشْركُوا إنَّ الله يَفصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيـامَةِ إنَّ الله عَلَىٰ كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

فبنوا آدم منحصرون في الأصناف الستة ، وبسط هذا له موضوع آخر .

---

(1) الحج آية رقم ١٧ .

فصل
الثواب والعقاب يكون على أمر وجودي

والمقصود هنا أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك أمر وجودي ، وفعل السيئات، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله أمر وجودي ، قال تعالى :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإنْ أَسَأْتُم فَلَهَا ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ! وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ ﴾ (٤)

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ - إلى قوله - أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة القصص آية رقم ٨٤ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٤٦ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٢٦ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٢٧ .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ ، أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ . وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [1] .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب . وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملاً ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات ، ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها ، مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف ـ حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه ـ فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع ذلك ، فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم [2] فأعتقده : أثيب على اعتقاده، وإذا ترك ذلك ـ مع دعاء النفس إليه ـ أثيب ثواباً آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها . والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها ، فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغال بالطاعات التي هي ضدها. فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

---

(١) سورة الروم آية رقم ١٠ .

(٢) الحرم بوزن القفل الإحرام قالت عائشة ـ رضي الله عنها « كنت أطيب رسول الله ـ ﷺ ـ لحله وحُرْمه » أي عند إحرامه ، والحُرمة : ما لا يحل انتهاكه وكذا : المحرمة بضم الراء وفتحها . ومن الشهور : أربعة حرم أيضاً وهي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ثلاثة سرْد وواحد فرد وكانت العرب لا تستحل فيها القتال . والحرام: ضد الحلال والحِرمة بالكسر : الغلمة ، وفي الحديث : الذين تدركهم الساعة تبعث عليهم الحرمة ويسلبون الحياة » ومكة : حرم الله ، والحرمان : مكة والمدينة ، والتحريم ضد التحليل وحريم البر وغيرها ما حولها من مرافقها وحقوقها ، وأحرم بالحج والعمرة : لأنه يحرم عليه ما كان حلالاً . والإحرام أيضاً بمعنى التحريم وقوله تعالى : للسائل والمحروم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنه هو : المحارف .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك وكرهته من السيئات فهو الذي حبب الإيمان إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل
منشأ ارتكاب السيئات الجهل والظلم

وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم . فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها . وفي الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل . وإلا فلو كان عالماً علماً ناقصاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ولم يفعله ، فإن هذا خاصيةالعاقل ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضرراً راجحاً كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أن هذا يضره - كالصبي والمجنون ، والساهي والغافل - فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره - مع علمه بما فيه من الضرر - فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح ، فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن وإما في المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح . فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن . وكذلك الذنوب : إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق وكذلك الزاني : إذا جزم بأنه يرجم ، ولم يزن والشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربعين

وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة بل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحاديث [1] كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته . بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولاوعيداً فيبقى غافلاً غير مستحضر للتحريم ؛ والغفلة من أضداد العلم .

---

(١) أخرج الترمذي في كتاب الحدود ١٥ باب ما جاء من شرب الخمر فأجلدوه ومن عاد في الرابعة فاقتلوه .
١٤٤٤ ـ حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن معاوية قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ من شرب الخمر فأجلدوه ، فإن عاد في الرابعة فاقتلوه » .
قال : وفي الباب : عن أبي هريرة ، والشريد ، وشرحبيل بن أوس وجرير وأبي الرمد البلوي وعبد الله بن عمرو .
قال الترمذي : ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ بعد ذلك برجل قد شرب الخمر في الرابعة فضربه ولم يقتله ، وكذلك روى الزهري عن قبيصة بن ذؤيب عن النبي ﷺ نحو هذا. قال: فرفع القتل وكانت رخصة ، والعمل على هذا الحديث عند عامة أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافاً في ذلك في القديم والحديث ومما يقوي هذا ما روي عن النبي ـ ﷺ ـ من أوجه كثيرة أنه قال : لا يحل دم امرىء مسلم ـ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه » .

فصل
عوامل الشر: الغفلة والشهوة

فالغفلة [1] والشهوة أصل الشر . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [2] والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نُهىً ، وذو حجىً .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار كما فعل إبليس بآدم وحواء فقال :

---

(١) الغفلة : سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ ، غفل عنه غفولاً وأغفلة ، والتغافل ، والتغفل : تعمد الغفلة ، والمغفل : من لا فطنة له ، والغُفل : بالضم من لا يرجى خيره ، ولا يخشى شره والغفول : العظيم الغفلة : قال الشاعر :

تيقظ من منامك يا غفول ... فنومك بين رمسك قد يطول
تأهب للمنية حين تغدو ... عسى تمس وقد نزل الرسول

(٢) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ (١)

وقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢) .

ولهذا قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

وقوله ﴿ زَيَّنَّا لكل أمة عملهم ﴾ هو بتوسيط تزيين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير ، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ، وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ (٦)

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً ، ولهذا قال : الصحابة رضي

---

(١) سورة طه آية رقم ١٢٠ ـ ١٢١ .
(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠ .
(٣) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .
(٤) سورة فاطر آية رقم ٨ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٠٨ .
(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٣٧ .

الله عنهم « كل مَن عصى الله فهو جاهل » ، وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[1] كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية ، فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

« أقوال السلف في هذه الآية »

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [3] فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال : أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة [4] ، عمداً كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل ، وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً ـ من شيخ أو شاب ـ فهو بجهالة . وقال من عصى ربه فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٧ .

(٤) الجهل على ثلاثة أضرب . الأول : خلو النفس من العلم ، هذا هو الأصل ، وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام الثاني : اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه .
الثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً . وعلى ذلك قول الله تعالى : ﴿ أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ فجعل فعل الهزو جهلاً .

وقال أيضاً : هو إعطاء الجهالة العمد ، وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثماً عمداً : فهو جاهل . حتى ينزع منه . «رواهن ابن أبي حاتم . ثم قال : وروي عن قتادة ، وعمرو بن مرة [1] ، والثوري ونحو ذلك « خطأ ، أو عمداً » .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ، ولكن من جهالته : حين دخل فيه . وقال عكرمة الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصري [2] : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها فإنها جهالة .

قلت ومما يبين ذلك : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [3] وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟** ﴾ [4] وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله . وقوله تعالى ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم ، فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي أيضاً أن العالم من يخشى الله ، كما قال السلف .

---

(١) هو : عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق بن الحارث روى عن عبد الله بن أبي أوفى ، وأبي وائل ومرة الطيب وسعيد بن المسيب وغيرهم ، روى عنه ابنه عبد الله وأبو اسحاق السبيعي والأعمش ومنصور وغيرهم قال البخاري عن علي له نحو مائتي حديث وقال سعيد زكاه أحمد بن حنبل وقال ابن معين ثقة وله ترجمة في التهذيب ٨ : ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٩ .

قال ابن مسعود « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » . ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين . حصر الأول في الثاني وهو مضطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ (١) وقوله ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (٣) .

وذلك أنه لما أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم ، وهذا كالاستثناء . فإنه من النفي : إثبات ، عند جمهور العلماء ، كقولنا « لا إله إلا الله » وقوله تعالى :

﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ (٤) وقوله :

﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (٥) وقوله :

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٦) .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه . لم يثبت له ما ذكر ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى . فيقولون نفي الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

---

(١) سورة يس آية رقم ١١ .
(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .
(٣) سورة السجدة آية رقم ١٥ ، ١٦ .
(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٢٨ .
(٥) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .
(٦) سورة الفرقان آية رقم ٣٣ .

والصواب : قول الجمهور . أن هذا كقوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) فإنه ينفي التحريم عن غير هـذه الأصناف ويثبتهـا لها . لكن أثبتهـا للجنس ، أو لكل واحد من العلماء ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمـون ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتض . فهو عام . فإن العلم بما أنذرت به الـرسل يـوجب الخـوف . فـإذا كـان العلم يـوجب الخشيـة الحـاملة عـلى فعـل الحسنات ، وترك السيئات ، وكل عاص فهو جاهل ، ليس بتـام العلم يبين مـا ذكرنا من أن أصـل السيئات الجهـل ، وعدم العلم ، وإذا كـان كذلـك ، فعدم العلم ليس شيئـاً موجـوداً . بل هـو مثل عـدم القدرة وعـدم السمع والبصـر ، وسائر الأعدام .

والعدم (٢) : لا فاعـل له ، وليس هـو شيئاً ، وإنمـا الشيء الموجـود والله تعـالى خالق كـل شيء ، فلا يجـوز أن يضاف العـدم المحصن إلى الله لكن قـد يقترن به ما هو موجود .

فـإذا لم يكن عالمـاً بـالله ، لا يـدعـوه إلى الحسنـات ، وتـرك السيئـات . والنفس بـطبعها متحـولة ، فـإنها حية ، والإرادة والحـركة الإراديـة من لـوازم الحياة ، ولهذا قـال النبي ﷺ في الحديث الصحيـح « أصدق الأسـماء » : حارث

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٢) العدم : ضد الوجود ، وهو مطلق أو إضـافي ، فالعـدم المطلق هـو الذي لا يضـاف إلى شيء ، والعدم الإضافي أو المقيد هو المضاف الى شيء كقولنا : عدم الأمن ، وعـدم الاستقرار ، وعـدم التأثير . والعدم : فقدان الشيء ما تقتضيه طبيعته من الكمالات الثابتة لنوعه وطبيعته وهو عـدم اضافي لا عدم مطلق ، ويطلق عنـد المنطقيـين على وقـوع النسبة بـين محمول ومـوضوع ليس من شأنه أن يكون له ذلك المحمول ، ولا يؤدي انتفاؤه عنه في نقص في ماهيته كقـولنا : ليس زيـد جالساً .

وهمام [1] ، فكل آدمي حـارث وهمام أي عـامل كـاسب ، وهو همـام ، أي يهم ويريد فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فـلاة وللقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً [2] .

فلما كانت الإرادة والعمل من لـوازم ذاتها ، فـإذا هداهـا الله : علمها مـا ينفعها وما يضرها ، فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتـاب الأدب باب في تغيير الأسماء ٤٩٥٠ حـدثنا هشـام بن سعيد الطالقاني أخبرنا محمد بن المهاجـر الأنصاري قـال : حدثني عقيـل عن أبي وهب الجشمي - وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها : حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة » . ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٤٥ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القـدر ٨٨ - حدثنـا أسباط بن محمـد حدثنـا الأعمش عن يزيد الرقاش عن غنيم بن قيس عن أبي موسى الأشعري . قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره ولفظه [مثل القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة] ورواه الإمـام أحمد في المسنـد ٤ : ٤٠٨ بسنده عن أبي كبشة قـال سمعت أبا مـوسى يقول على المنبـر قال رسـول الله - ﷺ (ولفظه) [إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن الخ]

فصل
أصل السعادة في اتباع الفطرة وما جاءت به الرسل

والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين : هما أصل السعادة : أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : « اقرأوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (1) قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ (2)

---

(1) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب القدر ٦ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، ٢٢ (٢٦٥٨) حدثنا محمد بن حرب عن الزبيدي عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أنه كان يقول قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . وأخرجه البخاري في كتاب القدر ٣ باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٦٥٩٩ أخبرنا اسحاق بن ابراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الجنائز ٨٠ والتفسير سورة ٣٠ : ١ ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣١٥ ، ٣٤٦ (حلبي) .

(2) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال « يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى :

﴿ وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى ، شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا : إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ ؟ ﴾ (١) .

وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثاني : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ الرَّحمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأعراف الآيات رقم ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٢) سورة العلق الآيات رقم ١ ـ ٥ .

(٣) سورة الرحمن الآيات رقم ١ ـ ٤ .

وقال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [2] .

ففي كل أحد ما يقتضي معرفتـه بالحق ومحبتـه له ، وقـد هداه ربـه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتـوصل بهـا إلى سعادة الأولى والآخـرة . وجعل في فطرته محبة لذلك. لكن قد يعرض الإنسان ـ بجاهليته وغفلته ـ عن طلب علم ما ينفعه .

وكـونه لا يـطلب ذلك ، ولا يـريده : أمـر عـدمي ، لا يضـاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

« النفس لا بد لها من مراد تطلبه »

لكن النفس كما تقدم : الإرادة والحـركة من لـوازمها ، فـإنها حيـة حياة طبيعية : لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بـأن تحيا الحياة النـافعة الكـاملة . وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة . ولا هي ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ، سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ، وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَىٰ ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [3]

فالجزاء من جنس العمل . لما كان في الدنيا : ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها بل كانت حياته من جنس حياة البهائم ، ولم يكن ميتاً عـديم الإحساس [4] : كان في الآخـرة كذلـك . فإن مقصـود الحياة هـو حصول مـا

---

(١) سورة الأعلى الآيات رقم ١ ـ ٣ .

(٢) سورة البلد آية رقم ١٠ .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ٩ ـ ١٣ .

(٤) الحس ، والحسيس : الصوت الخفي ومنه قـوله تعـالى : ﴿ لا يسمعـون حسيسهـا ﴾ ، و(حسُّوهم) استأصلوهم قتلاً وبابـه رد . ومنه قـوله تعـالى : ﴿ إذ تحسونهم بـإذنه ﴾ وحسّ

ينتفع به الحي ويستلذ به ، والحي لا بد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة ، لم يحصل له مقصود الحياة ، فإن الألم ليس مقصوداً . كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعَّم بشيء مما يتنعم به الأحياء ، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ولا يحصل له . فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل إذ هو حارث همام . فإن عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته فذلك من تمام إنعام الله عليها ، وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل ، ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هواها .

والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريدا لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول. أي قابلاً لأن يريد هذا وهذا.

وأما كونه مريداً لهذا المعين . وهذا المعين ، فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء ، وهو الذي ألهم النفس ـ التي سواها ـ فُجُورها وتقواها .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه :

« اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » [1] وهو سبحانه : جعل ابراهيم وآله أئمة يهدون بأمره ،

= (الدابة) فرجتها وبابه أيضاً رد ، والمجسة بكسر الميم : الفرجون ، والحواس : المشاعر الخمس ، وأحس الشيء : وجد حسه ، قال الأخفش: أحس معناه : ظن ووجد ومنه قوله تعالى ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٨ =

وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار . ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية [١] ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلية [٢] .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خير . لا شر وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم : أن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد لا لحكمة ولا رحمة والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون في الأرض كان هذا ذمّاً لهم ، وكان باطلاً . وإذا قيل : يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا من حالهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم . أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها

= باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٧٣ (٢٧٢٢) حدثنا أبو معاوية عن عاصم عن عبد الله بن الحارث ، وعن أبي عثمان النهدي عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ - يقول : كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر وذكره وفيه زيادة أيضاً [اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها » . ورواه النسائي في الاستعاذة ٦٥ ، ١٣ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٧١ ، ٦ : ٢٠٩ (حلبي) .

(١) العلة في اللغة : اسم لعارض يتغير به وصف المحل بحلوله لا عن اختيار (كشاف اصطلاحات الفنون) ومنه سمي المرض علة ، لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف ، وكل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بانضمام الغير إليه ، فهو علة لهذا الأمر ، والأمر معلول له (كليات أبي البقاء) .
والعلة عند الأصوليين : ما يجب به الحكم . والعلة عند الحكماء: ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً ومؤثراً فيه (تعريفات الجرجاني) والعلة الغائية : وهي التي يكون وجود الشيء لأجلها كالجلوس على السرير فهي الغاية التي من أجلها وجد .

(٢) العلة الفاعلة : وهي ما تكون مؤثرة في المعلول ، موجدة له ، كالنجار الذي يصنع السرير .

والخير كله بيديه . والشر ليس إليه . بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ونعمة جسيمة ـ كان هذا حقاً . وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد ولا له فيها حكمة ولا رحمة ، ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه . بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس. وبسط القول في بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما في خلق جهنم وإبليس والسيئات : من الحكمة والرحمة ، وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين ومالك يوم الدين ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذي لا يحصي العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون . الذي يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ولإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له في نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده . هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

وقد ذكرنا ـ في غير هذا الموضع ـ ما قيل : من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه ، وهو من آلائه . ولهذا قال في آخر سورة النجم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ (١) وفي سورة الرحمن يذكر ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٢) ونحو ذلك . ثم يقول عقب

---

(١) سورة النجم آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٢٦ ، ٢٨ .

ذلك ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزي ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلها ينعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته ، وفي رزقه إياكم ما به قوامكم وهذا قالوه في سورة الرحمن (٢) .

وقالوا في قوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ (٣) ؟ فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب قلت : قد ضمن ﴿ تتمارى ﴾ معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التماري تفاعل من المراء . يقال : تمارينا في الهلال ، والمراء في القرآن كفر ، وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال ﴿ تتمارى ﴾ أي يتمارون . ولم يقل : تميرا . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للإنسان قيل للوليد بن المغيرة (٤) . فإنه قال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ : أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (٥) ثم التفت إليه فقال ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ ؟ تكذب . كما قال ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن

---

(١) سورة الرحمن آية رقم مكررة في كثير من آيات السورة .

(٢) راجع ما كتبه ابن الجوزي في تفسير هذه الآية فهو في غاية النفاسة وسعة العلم (زاد المسير ٨ : ١١٠ ـ ١١٢)

(٣) سورة النجم آية رقم ٥٥ .

(٤) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم ، أبو عبد شمس من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش ومن زنادقها يقال له « العدل » لأنه كان أعدل قريش كلها كانت قريش تكسو البيت جميعها والوليد يكسوه وحدة ، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية وضرب ابنه هشام على شربها توفي عام ١ هـ [راجع الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦ واليعقوبي ١ : ٢١٥ والنويري ١٦ : ٢٧٣] .

(٥) سورة النجم آية رقم ٣٦ ـ ٣٨ .

صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ . وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ ﴾ [(١)] .

ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته . فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالثقلين المخاطبين بقوله ﴿ **فبأي آلا ربكما تكذبان** ﴾ ؟ من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة ، فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التي بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم ، وإهلاك عدوهم - كما ذكره في سورة النجم ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ، وَالمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ** ﴾ [(٢)] تدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ** ﴾ [(٣)] قيل : هو محمد ، وقيل : هو القرآن ، فإن الله سمي كلاً منهما بشيراً ونذيراً ، فقال في رسول الله ﴿ **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [(٤)] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً** ﴾ [(٥)] وقال تعالى في القرآن ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ [(٦)] وهما متلازمان وكل من

---

(١) سورة الرحمن آية رقم ١٤ - ١٦ .
(٢) سورة النجم آية رقم ٥٠ الى ٥٤ .
(٣) سورة النجم آية رقم ٥٦ .
(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٨٨ .
(٥) سورة الفتح آية رقم ٨ .
(٦) سورة فصلت آية رقم ٣ - ٤ .

هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنـذر بما أنـذرت به الـرسل والكتب الأولى .

وقوله ﴿ مِنَ النُّذُرِ ﴾ أي من جنسها ، أي رسول من الرسل المرسلين . ففي المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

فـأفضـل النعم : نعمـة الإيمـان . وكـل مخلوق من المخلوقـات : فهـو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [1] وقال تعالى :

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [2] .

« الصبر والشكر على السراء والضراء »

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينة ، وإن كان يسـوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطايـاه ، ويثاب بـالصبر عليـه ، ومن جهة أن فيـه حكمة ورحمة لا يعلمها :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

وقد قال في الحديث « والله لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له إن أصابته سراءُ شكر ، فكـان خيراً لـه ، وإن أصابتـه ضراء صبـر فكان خيـراً

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة ق آية رقم ٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

لـه »[1] . وإذا كان هـذا وهذا ، فكـلاهما من نعم الله عليـه . وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أمـا نعمة الضـراء : فاحتيـاجها إلى الصبـر ظاهـر ، وأمـا نعمـة السـراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضـراء ، كما قال بعض السلف : أبتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحـديث : « أعوذ بـك من فتنـة الفقـر ، وشـر فتنـة الغنى »[2] . والفقر يصلح عليه خلق كثيـر ، والغنا : لا يصلح عليـه إلاَّ أقل منهم . ولهـذا كان أكثر مَنْ يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر . لكن لمـا كان في السـراء اللذة . وفي الضراء الألم . اشتهـر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسَانَ مِنْا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَـا مِنْهُ إنَّـهُ لَيَؤُسٌ كفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَـاءَ بَعْدَ ضَـرَّاءَ مَسَّتْهُ : لَيَقُـولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إنَّـهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْـرٌ كَبِيرٌ ﴾[3] ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضـراء : أحوج إلى الصبر ، فإن صبر هذا وشكر هذا : واجب إذا تركه استحق العقاب .

---

(١) الحـديث أخرجـه الامام مسلم في كتـاب الزهـد والرقـاق ١٣ باب المؤمن أمـره كله يسـر ٦٤ (٢٩٩٩) حدثنا سليمان ، حدثنا ثابت عن عبـد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قـال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ وذكره . وأخـرجه الامـام أحمـد بن حنبـل في المسنـد ٤ : ٣٣٢ (حلبي) حدثنا بهز وحجاج قالا حدثنا سليمان بن المغيـرة عن ثابت عن عبـد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء ١٤ باب التعوذ من شر الفتن وغيرها بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسـول الله ـ ﷺ ـ كان يـدعو بهـذه الكلمات وفيه [اللهم فإني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، وفتنة القبر وعـذاب القبر ومن شـر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر] الخ .

(٣) سورة هود آية رقم ٩ ـ ١١ .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عند فضول الشهوات وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر ـ الذي هو حسنات ـ يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره في الشكر : مما يغفر له ، لما يأتي به من الصبر . فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم وهذا حال يعسر على كثير من الناس ، وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا : أن الله تعالى : منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس ، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الإنسان : فهي من نفسه ، ومع هذا فهي ـ مع حسن العاقبة ـ نعمة ، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان ، ولهذ كان من أحسن الدعاء « اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني » (١) .

وفي دعاء القرآن ﴿ **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ (٢) و﴿ **لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ (٣) كما فيه ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً** ﴾ (٤) أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم ، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى و« الآلاء » في اللغة : هي النعم وهي تتضمن القدرة .

---

(١) الحديث لم نعثر عليه على كثرة تفتيشنا في كتب الحديث ونرجو من الله أن يرشدنا الى من يدلنا عليه .

(٢) سورة يونس آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٥ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٤ .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال « قرأ علينا رسول الله ﷺ الرحمن حتى ختمها ثم قال : ما لي أراكم سكوتاً ؟ لَلْجن كانوا أحسن منكم ردّاً . ما قرأت عليهم الآية من مرة - ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ - إلا قالوا : « ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » [1] .

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى . وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد . فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل ، وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر [2] ، من

---

(١) الحديث رواه الترمذي ٢ : ١٦١ ، والحاكم في المستدرك ٢ : ٤٧٣ من حديث الوليد بن مسلم - ثنا زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر - رضي الله عنه - وصححه ووافقه الذهبي . وقال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محهد . قلت وزهير بن محمد هذا وإن أخرج له الشيخان فقد قال البخاري كما في التهذيب ٣ : ٣٤٩ : ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير ، وما روى عنه أهل البصرة ، فإنه صحيح ، قلت : وهذا الحديث مما رواه عنه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام .

(٢) يقول الفيروزآبادي : الحمد : الثناء بالفضيلة ، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره ومما يكون منه وفيه بالتسخير ، فقد يمدح الإنسان =

جهـة أسبابـه فإنـه يكون على نعمـة وعلى غير نعمـة ، والشكـر أعم من جهـة أنواعه . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة . والحمد لله على كل حال ، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هــذا فهم من عـرف مــا في المخلوقـات من النعم ، والجهميــة والجبرية : بمعزل عن هذا .

وكذلك كل ما يخلقـه : ففيه لـه حكمة (١) . فهـو محمود عليـه باعتبـار تلك الحكمة والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه ، بل ما ثم إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة: لا يظهر فيها وصف حمد ، كـالقادر الذي يفعل ما لا ينتفع به ، ولا ينفع به أحداً . فهذا لا يحمد .

= بطول قامته وصباحة وجهه كما يمدح ببذل ماله وشجاعتـه وعلمه ، والحمـد يكون في الثـاني دون الأول . والشكـر : لا يقـال إلا في مقـابلة نعمـة ، فكـل شكـر حمـد ،وليس كـل حمـد شكراً ، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً [راجع بصائر ذوي التمييز ٢ : ٤٩٩] .

(١) الحكمة : العدل ، والعلم والحلم ، والنبوة ، والقرآن ، والانجيـل ، وطاعـة الله ، والفقه في الدين ، والعمل به ، أو الخشية ، أو الفهم أو الورع أو العقل أو الإصابة في القـول ، والتفكر في أمر الله واتباعه والحكمة : فمن الله ـ تعالى ـ معرفـة الأشياء وايجـادها على غـاية الأحكـام والاتقان ، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات .

وقد وردت في القرآن على وجوه :

الأول : بمعنى النبوة والرسالة ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة** ﴾

الثـاني : بمعنى القرآن والتفسيـر والتأويـل وإصابـة القول ﴿ **يؤتى الحكمـة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ . البقرة آية ٢٦٩ .

الثالث : بمعنى فهم الدقائق والفقه في الدين ﴿ **وآتيناه الحكم صبياً** ﴾ أي فهم الأحكام .

الرابع : بمعنى الوعظ والتذكير ﴿ **فقد آتينا آل ابرهيم الكتاب والحكمة** ﴾أي المواعظ الحسنة .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام إذ كان عندهم يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين . وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [1] فله الوحدانية في إلهيته ، وله العدل . وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد الهيته بل توحيد ربوبيته والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهيته ولا عدلاً في الحسنات والسيئات ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره. وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها ليس بحكيم بل سفيه .

وقد قال تعالى ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين . الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [2] وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية ، كما قيل في الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه وفي الصحيح « أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٥ .

الـركوع يقـول « ربنا ولـك الحمد . مـلء السماء ، ومـلء الأرض ، وملء مـا شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد، احق ما قال العبـد ـ وكلنا لـك عبد ـ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (١) هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق مـا قال العبـد » . وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقـول الحق والباطـل . بل حق ما يقوله الرب . كما قـال تعالى ﴿ فَـالحَقُّ وَالحَقَّ أَقُولُ ﴾ (٢) . وإذا كـان الحمد لا يقـع إلا على نعمة ، فقـد ثبت : أنه رأس الشكـر ، فهـو أول الشكر .

والحمد ـ وإن كان على نعمتـه وعلى حكمته ـ فـالشكر بـالأعمال : هـو على نعمته وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته ، فقد صار مجموع الأمور داخلاً في الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكـر ، ولم يعظم أمـر الحمد مجـرداً . إذ كان نوعاً من الشكر .

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركـان الصلاة وتخفيفهـا في تمام ، ١٩٤ ـ حدثنا شعبة عن الحكم قال غلب على الكوفة رجل (قـد سماه) زمن بن الأشعث فـأمر أبا عبيدة بن عبد الله أن يصلي بالناس فكان يصلي فإذا رفع رأسه من الركوع قام قدر ما أقـول . وذكره . وذكره الترمذي في أبواب الصلاة ١٩٧ باب ما يقول الرجـل إذا رفع رأسـه من الركـوع ٢٦٦ ـ حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا عبد العزيز بن عبـد الله بن أبي سلمة الماجشون ، حدثني عمي عن عبـد الرحمن الأعـرج عن عبيد الله بن أبي رافـع عن علي بن أبي طالب قال : وذكره .
قال : وفي الباب عن ابن عمر ، وابن عباس ، وابن أبي أوفى وأبي جحيفة وأبي سعيد .
قال الترمذي : حديث علي حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه في كتاب إقـامة الصـلاة ١٨ بـاب ما يقـول إذا رفـع رأسـه من الـركـوع ٨٧٨ بسنـده عن ابن أبي أوفى . والحـديث لم يـروه البخاري وانظر نيل الأوطار ٢ : ٢٠٧ ـ ٢٠٨

(٢) سورة ص آية رقم ٨٤ .

ـ وشرع الحمد ـ الذي هو الشكر المقول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد . ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بدَّ فيها من الشكر والتوحيد والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم ولا إله إلا الله . والله أكبر ، فيها التوحيد والتكبير .

ولكن لفظه « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أي الحمد أحق ما قال العبد . أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد [1] ، ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن نفتتح به الفاتحة . وأوجب قوله في كل خطبة وفي كل أمر ذي بال والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه . وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، لا نفع فيه، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد ، وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب ،وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى

---

(١) روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ قال : إذا قال العبد : الحمد لله قال : صدق عبدي الحمد لي » وروى مسلم عن أنس بن مالك . قال : قال رسول الله ـ ﷺ : إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمد الله عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها ، وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ : ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ وفي نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ : لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك » قال أبو عبد الله : معناه أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية .

الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو ـ مع هذا ـ يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة ـ ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية ـ : لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس . ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر في كلامه ما يقتضي هذا ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله ، ويجعلون الرب ظالماً لهم . وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [1] وقوله ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾ [2] وقوله ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [3] .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر في حقه لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه .

ولو قال: إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر . فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر .

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٧٦

(٢) سورة هود آية رقم ١٠١ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٤٦ .

وهو سبحانه الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها . ويؤت من لدنه أجراً عظيماً وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فقوله « أحق ما قال العبد » يقتضي : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . فله الحمد على كل حال ، لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذي يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى ، وإن كاد العباد لا يعلمون .

وهو سبحانه خلق الإنسان ،وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان ، وكانت الحكمة التي خلقها بخلق الإنسان لا تحصل ، وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ؟ ﴾ (١) وما لم تعلمه الملائكة فكيف يعلمه آحاد الناس .

ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى ﴿ **إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً** ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ **خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ** ﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .
والسفك : الصب . سفكت الدم أسفكه سفكاً : صببته وكذلك الدمع حكاه ابن فارس والجوهري . والسفاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام قال المهدوي : ولا يستعمل السفك إلا في الدم ، وقد يستعمل في نثر الكلام يقال : سفك الكلام إذا نثره وواحد الدماء دم محذوف اللام وقيل أصله دمي وقيل : دمي ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه ، والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذُبحنا ... جرى الدميان بالخبر اليقين

(٢) سورة المعارج آية رقم ١٩ ـ ٢١ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٣٧ .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ورحمة عميقة فكان ذلك خيراً ورحمة . وإن كان فيه شر إضافي كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس . فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبته . وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك ، وهذا كله من فضل الله وإحسانه ، لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها مَن زيَّن لها السيئات ـ من شياطين الإنس والجن ـ مالت إلى ذلك وفعلت السيئات ، فكان فعلها للسيئات ، مركباً من عدم ما ينفع وهو الأفضل ، ووجود هؤلاء الذين حيروها ، والعدم لا يضاف إلى الله . وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة . فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض [1] الذي لا خير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله ، فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء : كانت السيئات منها باعتبار [أن] ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها ـ مع عدم ما يصلحها ـ تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين . إن

---

(١) الشر : السوء والفساد ، يقال رجل شر أي ذو شر ، وهو شر الناس أي أسوأهم وأكثرهم فساداً .

والشر : ضد الخير ، لأن الخير يطلق على الوجود ، أو على حصول كل شيء على كماله ، على حين أن الشر يطلق على العدم أو على نقصان كل شيء عن كماله .

وللشر ثلاثة معان : الشر الطبيعي ويطلق على كل نقص ، مثل الضعف والتشويه في الخلقة ، والمرض .

والشر الأخلاقي : ويطلق على الأفعال المذمومة وعلى مبادئها من الأخلاق . والشر الفلسفي : ويطلق على نقصان كل شيء عن كماله ، أو على الحابس للكمال عن مستحقه وهو إما أن يكون بالذات أو بالعرض ، والشر المطلق : هو العدم المطلق .

اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقـراراً بكلماتـه التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجتـه إلى الله ، وأنه إن لم يهـده فهـو ضـال . وإن لم يتب عليـه فهـو مصـر وإن لم يغفـر لـه فهـو هـالـك : خضـع لعـزتـه وحكمتـه .. فهــذا حـال المؤمنين الــذين يـرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان ، ولا يزيده ذلـك إلا شرّاً ، وقد ذكـرنا أن الـرب سبحانـه محمود لنفسـه ولإحسانـه إلى عباده ، ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ، لأن حكمه عدل لا يفعل إلا خيراً وعـدلاً ، ولأنه لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له « إن أصابتـه سراء شكـر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » [١] .

فالمؤمن يرضى بقضائه لمـا يستحقه الـرب لنفسه ـ من الحمـد والثناء ـ ولأنه محسنُ المؤمن .

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه ﷺ قـال : « لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له » [٢] وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحـدهما أن أعمـال العباد لم تـدخل في الحـديث . إنما دخـل فيه مـا يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كمـا في قولـه ﴿ **مَا أَصَـابَكَ مِنْ حَسَنَـةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ** ﴾ [٣] .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

ولهذا قال « إن أصابته سراء شكر . فكان خيراً لـه ، وإن أصابتـه ضراء صبر فكان خيـراً له » فجعـل القضاء [1] : مـا يصيبه من سـراء وضراء ، هـذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا إشكال عليه .

وشهـوده بفقره وحـاجته إليـه ، وأنه لا يغفـر الذنـوب إلا هو . فيحصـل للمؤمن ـ بسبب الذنب ـ من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك ، فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهـو في ذنوبـه بين أمرين : إمـا أن يتـوب فيتـوب الله عليـه فيكـون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإمـا أن يكفر عنـه بمصائب ، تصيبـه ضـراء فيصبـر عليهـا فيكفـر عنـه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقـد جـاء في بعض الأحـاديث يقـول الله تعـالى « أهـل ذكـري أهـل مجالستي ، وأهل شكـري أهل زيـادتي ، وأهل طـاعتي أهل كـرامتي ، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي ، إن تـابوا فـأنا حبيبهم » أي محبهم فـإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم » الوجه الثـاني : أنه إذا قـدر أن الأعمال دخلت في هـذا . فقـد قـال النبي ﷺ « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » [2] فإذا قضى له بأن يحسن ، فهـذا مما يسره . فيشكر الله عليه .

---

(١) القضاء من الله أخص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير ، والقدر هو التقدير ، والقضاء : هو التفصيل والقطع ، وذكـر بعض العلماء أن القدر بمنـزلـه المعـد للكيل ، والقضـاء بمنزلـة الكيل ، ولهذا قال أبو عبيد لعمر لما أرادوا الفرار من الطاعون من الشام : أتفـر من القضاء ؟ قـال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله ، تنبيهاً أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله فـإذا قضى فلا يندفع ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ سورة مريم آية ٢١ .

واستقضى علينا فلان واستقضاه السلطان . قال :

إذا خـان الأمـير وكـاتـبـاه ... وقـاضـي الأمـر داهـن في الـقـضـاء

فـويـل ثـم ويـل ثـم ويـل ... لـقـاضـي الأرض مـن قـاضـي الـسـماء

(٢) هـذا جزء من حـديث طويـل رواه الترمـذي في كتاب الفتن ٧ بـاب ما جاء في لزوم الجمـاعـة =

وإذا قضى عليه بسيئة : فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها وإن لم يتب ابتلي بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيراً له . والرسول ﷺ قال « لا يقضي الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه . فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات : (إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله ، لا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة) .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، بالمصائب لأكفر عنهم المصائب.

وفي قوله تعالى ﴿ من نفسك ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله . ويسأل الله أن يعينه على طاعته فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

= ٢١٦٥ ـ حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا النضر بن اسماعيل أبو المغيرة ، عن محمد بن سوقة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : خطبنا عمر بالجابية فقال : يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ ـ فينا فقال : أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يغشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد الا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد من أراد بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن » .

ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ١٨ ، ٢٦ ، ٣ : ٤٤٦

الضَّالِينَ﴾ [1] فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين: إنه قد هداه ، فلماذا يسأل الهدى [2] .

وإن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه وإلا كان العلم حجة

---

(١) قال بعض العلماء : فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته في هذه السورة نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به الداعي لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به . وفي الحديث : ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » .

(٢) الهدى : بضم الهاء وفتح الدال : الرشاد والدلالة ، يذكر ويؤنث هداه هدى ، وهدياً .
وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أضرب :
الأول : الهداية التي عم بها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية بل عم بها كل شيء حسب احتماله كما قال تعالى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه آية ٥٠] .
الثاني : الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ .
الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى . وهو قوله تعالى ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ [سورة محمد آية ١٧]
الرابع : الهداية في الآخرة الى الجنة وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ سورة الأعراف آية ٤٣ .

عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة لفرط حاجتهم إليه فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء ، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة ، فيعلم أن الله ـ بفضله ورحمته ـ جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر .

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم .

فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ولكن الأمر كما قال الله تعالى ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾ (١) وكما قال تعالى ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ**

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٣ .

مَجْنُونٌ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ (٣) .

ولهذا قال النبي ﷺ « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » (٤) .

وقال : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يا رسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين في الصحيحين (٥) .

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة ـ يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين فقال بعض الناس « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر . قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١٨ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٤) والحديث رقم ٧٣٢٠ حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره ورواه الامام مسلم في كتاب العلم ٣ باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٦ ـ (٢٦٦٩) حدثنا حفص بن ميسرة ، حدثني زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٤ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤ باب قول النبي ـ ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ٧٣١٩ ـ حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ بلفظ لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم فقال ومن الناس إلا أولئك .

آلهة . إنها السنن . لتركبن سنن من كان قبلكم » [1] .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس . وإن كانت بقدر الله .

فأعظم السيئات : جحود الخالق . والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرِي ﴾ [2] وقال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [3] وقال لموسى ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ ﴾ [4] و ﴿ فاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [5] .

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفي نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا أو هذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١٨ باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٢١٨٠ - حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، حدثنا سفيان عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أن رسول الله - ﷺ - لما خرج الى خيبر وذكره . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٢١٨ ، ٢٤٠ (حلبي) .

(٢) سورة القصص آية رقم ٣٨.

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٥٤ . وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (استخف) بدلاً من (فاستخف) .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

فالنفس [1] مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده : ما يهواه ويريده ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [2] والناس عنده في هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم ، يقولون « يا رباعي » أي صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً ، ومن لم يوافق هواهم : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هي حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء ـ وإن كانوا يقرون بالصانع ـ لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى . وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده ، فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع

---

(١) النفس : الروح يقال : خرجت نفسه ، أي روحه قال :

نجا سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا

والنفس أيضاً الدم ، والنفس : الجسد ، والنفس : العين أصابته نفس أي عين ، والنافس العائن ، والنفس: العند قال تعالى ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ المائدة آية ١١٦ أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك .

ونفس الشيء عينه يؤكد به يقال : رأيت فلاناً نفسه ، وجاءني الملك نفسه والنفس بالتحريك ، واحد الأنفاس . وفي الحديث « أجد نفس ربكم من قبل اليمن » .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٤٣ .

في أغـراضه وإن كـان فيها مـا هو ذنب ومعصيـة لله ، ويكـون من أطـاعـه في هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون . وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً ـ أو شيخاً ـ أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتـاباً واحـداً كالقـرآن ، أو يعبدان عبـادة واحدة متمـاثلان فيهـا ، كالصلوات الخمس . فإنه يحب من يعظمه بقبول قـوله ، والاقتـداء به : أكثـر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغيا كمـا فعلت اليهود لمـا بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى . قال تعالى : ﴿**وإذا قِيـلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنـزَلَ الله ، قَالُـوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنـزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُـرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُـوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ**﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَـا تَفرَّقَ الَّـذِينَ أُوتُوا الكِتَـابَ إلَّا مِن بَعْدِ مَـا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَـةُ** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وَمَـا تَفـرَّقُـوا إلَّا مِن بَعْـدِ مَـا جَـاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيَـاً بَيْنَهُمْ** ﴾[3] .

ولهذا أخبر الله تعـالى عنهم بنظيـر ما أخبـر به عن فـرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون ﴿ **إنَّ فِرْعَـوْنَ عَلَا في الأَرْضِ وَجَعَـلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحيِي نِسَاءَهُمْ . إنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ** ﴾[4] وقال تعالى عنهم ﴿ **وَقَضَيْنَا إلَى بَنِي إسْـرَائِيلَ فِي الكِتَـابِ لَتُفْسِـدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيـراً** ﴾[5]ولهذا قـال تعـالى ﴿ **تِلْكَ**

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩١ .
(٢) سورة البينة آية رقم ٤ .
(٣) سورة الشورى آية رقم ١٤ .
(٤) سورة القصص آية رقم ٤ .
(٥) سورة الاسراء آية رقم ٤ .

الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ﴾ [1] والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ويشكروه ، ويعبدوه وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك ، قال تعالى **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾** [2]

وقال تعالى **﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾** [3] .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه ، فقال **﴿ إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾**[4] وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ، إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [5] .

قال قتادة : أي دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشريعة مختلفة وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس **﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾** أي دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك . وقال الحسن بيّن لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : **إن هذه سنتكم سنة واحدة** .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٨٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة الأنبياء . آية رقم ٩٢ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٥١ ـ ٥٣ .

و« الأمة »[1] الملة ، والطريقة ، كما قال تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَارِهِم مُهْتَدُونَ ـ مُقْتَدُونَ ﴾ [2] كما يسمى «الطريق» إماما لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و« الأمـة » أيضاً معلم الخيـر الذي يـأتم به النـاس ، كما أن الإمـام هو الذي يأتم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً . وأخبر أنه ﴿ كان أمة ﴾ .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً . لا يتفرقون فيه كمـا في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحـد » [3] وقد قـال الله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبراهِيمَ ومُوسَىٰ وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ . وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [4]

---

(١) الأمة لغة : الرجل الجامع للخير ، والإمام الجمـاعة ، وجماعة أرسل إليهم رسول . وقد ورد في نص القرآن على وجوه .

١ـ بمعنى الصف المصفوف (ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أي صفوف .

٢ـ بمعنى السنين الخالية : (وادكر بعد أمة) أي بعد سنين الثالث بمعنى الرجل الجامع للخيـر :﴿ إن ابراهيم كان أمة ﴾ .

الرابع : بمعنى الدين والملة : إن هذه أمتكم أمة واحدة ، ﴿وإنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ .

الخامس : بمعنى الكفار خاصة ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾

السادس : بمعنى أهل الإسلام ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ٤٠ باب فضائل عيسى عليه السلام ١٤٥ ـ حـدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمـر عن همام بن منبـه قال : هـذا ما حـدثنا أبـو هريـرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ فـذكر أحـاديث منها وقـال رسـول الله ـ ﷺ ـ أنـا أولى النـاس بعيسى ابن مـريم في الأولى والآخرة قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي » .

ورواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٤٨ بـاب قول الله ﴿ واذكـر في الكتاب مـريم إذ انتبذت من أهلهـا ﴾ ٣٤٤٣ بسنده عن أبي هـريرة عن رسـول الله وذكـره ورواه الإمـام أحـمـد في المسنـد ٢ : ٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، (حلبي) ورواه أبو داود في السنة ١٣ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

فمن كان من المطاعين ـ من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك ـ متبعاً للرسل : أمر بما أمروا به . ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه . فإن الله يحب ذلك . فيحب ما يحبه الله تعالى . وهذا قصده في نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده وأن يكون الدين كله لله . وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود . فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون . ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه . وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ولا يُستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين كله لله . لا له . وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه . وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى ويعلم أن الله قد مَنّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا ، أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أي شيء .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور ولم ينزل في التوراة ولا في إنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، فإن فيها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [1] .

---

(١) نعبد : معناه نطيع والعبادة : الطاعة والتذلل ، وطريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين ، قاله =

فالمؤمن يرى أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ، لأنه إياه يستعين فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاءً ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل لـه ما عمـل لله ، كما قال الأبرار ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً** ﴾ [١] ولا يمن عليـه بذلـك ولا يؤذيه ، فـإنـه قـد علم أن الله هـو المـان عليـه ، إذ استعمله في الإحسان وأن المنة لله عليه وعلى ذلك الشخص ، فعليه هو : أن يشكر الله ، إذ يسره لليسرى وعلى ذلك : أن يشكر الله ، إذ يسّر لـه من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك .

ومن النـاس : من يحسن إلى غيـره ليمنّ عليـه ، أو يـرد الإحســان لـه بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخـر . وقد يمن عليـه . فيقول : أنـا فعلت بك كـذا . فهذا لم يعبـد الله ولم يستعنه ، ولا عمـل لله ، ولا عمـل بـالله . فهـو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان [٢] ، وصدقـة المرائي . قـال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِكُم بِـالمَنِّ وَالأَذَىٰ ، كَالَّـذِي يُنفِقُ مَالَـهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَـهُ وَابِـلٌ فَتَرَكَـهُ صَلْداً . لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّـا كَسَبُـوا ، وَاللهُ لَا يَهْـدِي القَـوْمَ الكَـافِرِينَ وَمَثَـلُ الَّذِينَ يُنفِقُـونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَـاءَ مَرْضَـاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِم**

= الهروي ، ونطق المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى ، إذ سائر الناس يعبدون سواه من الأصنام وغير ذلك .

وإياك نستعين : أي نطلب العون والتأييد والتوفيق . قال السلمي في حقائقه : سمعت محمـد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول: من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين » فقد برىء من الجبر والقدر

(١) سورة الإنسان آية رقم ٩ .

(٢) منّ عليه مناً ومنة : امتن قال الله تعالى : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قـل لا تمنوا عـلى إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم** ﴾ الحجرات آية ١٧] ومنـة الله عليهم بالفعـل وهو هدايته إيـاهم وقال تعالى : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين** ﴾ أي أثقلهم بالنعمة الثقيلة .

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ [1] أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [2] .

قال قتادة : ﴿ تثبيتاً من أنفسهم ﴾ احتساباً من أنفسهم . وقال الشعبي : يقيناً، وتصديقاً من أنفسهم ، وكذلك قال الكلبي ، قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم ، على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله . يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله ، مصدقاً بوعد الله له : طالب من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمن عليه ، كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المماليك ، لا سيما إذا كان يعلم : أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

---

(١) المعروف من كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر وفيها خمس لغات (ربوة) بضم الراء وبها قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ونافع وأبو عمرو ، و« ربوة » بفتح الراء وبها قرأ عاصم وابن عامر والحسن « وربوة » بكسر الراء وبها قرأ ابن عباس وأبو إسحاق السبيعي ، (ورباوة) بالفتح وبها قرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن قال الشاعر :

من مُنزلي في روضة برباوة ... بين النخيل الى بقيع الفرقد

و(رباوة) بالكسر وبها قرأ الأشهب العقيلي قال الفراء ويقال : برباوة ، وبرباوة وكله من الرابية ، وفعله ربا يربو . والوابل : المطر الشديد قال الشاعر :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها وابل هطل

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

فصل
ما يبتلى به العبد من الذنوب هو عقوبة له على عدم فعل ما خلق له

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يبتلي به العبد من الذنوب الوجودية ـ وإن كان خلقاً لله ـ فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له . وفطرة عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودله على الفطرة ، كما قال النبي ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة »[1] وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] . فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به ـ من معرفة الله وحده ، وعبادته وحده ـ عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان ﴿ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ـ إلى قوله ـ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[4] .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٦٣ ـ ٦٥ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٩ ـ ١٠٠ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾[1] .

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب ، كما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ [2] .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه : عوقب على ذلك . وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي ، لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي ، لكن بفعل السيئات ، لا بالعقوبات ـ التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه ـ بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان . والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك وهذا أمر وجودي .

وطائفة ـ منهم : أبو هاشم [3] ـ قالوا : بل يعاقب على هذا العدم ، بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .
(٣) سبق الترجمة له قريباً في هذا الجزء .

ومما ذكر في هذا الوجه : هو أمر وسط ، وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله . فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة وهو أولاً : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره بأن يتوب منه أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعوده من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه . ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

وعلى هذا فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه . فإنه ـ وإن كان الله خالق أفعال العباد ـ فخلقه للطاعات [1] : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة ، وهو ـ مع هذا ـ عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات ، فهذا ليس مضافاً إليه ، وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر

---

(١) الطوع : الانقياد ، وضد الكره قال تعالى : ﴿ **ائتيا طوعاً أو كرهاً والطاعة مثله** ﴾ لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر وقوله تعالى ﴿ **طاعة وقول معروف** ﴾ أي أطيعوا أي ليكن منكم طاعة معروفة بلا إثم وهو لي طائع ، وأطاع الله طاعة ، وهو مطيع ، ومطواع ومطواعه قال الشاعر :

إذا سدته سدت مطواعة ومهما وكلت إليه كفاه

وهو من ناس مطاويع ، وهو من المطوعة : أي من الذين يتطوعون للجهاد وقال الله تعالى في صفة النبي ـ ﷺ : « إنه لقول رسول كريم إلى قوله (مطاع ثم أمين) سورة التكوير الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

والمعاصي يجعله جزاءً لذلك العمل . كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَزَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [2] وقال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [3] .

هذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالاً ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور . وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بدّلهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات ، عدلاً من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له ـ وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً ـ فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

الرد على القدرية والمجبرة

وهذا الوجه ـ إذا حقق ـ يقطع مادة كلام القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله [4] ، ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة الصف آية رقم ٥ .

(٣) سورة الليل آية رقم ٨ ـ ١٠ .

(٤) يُراجَع كتاب « خلق أفعال العباد » للامام البخاري بتحقيقنا ط دار عكاظ بجدة عام ١٩٨٢ م .

فـإذا قيـل لأولئـك : إنـه إنمـا أوقعهم في تلك الـذنـوب ، وطبـع على قلوبهم : عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمـرهم به . فمـا ظلمهم ، ولكن هم ظلمـوا أنفسهم يقال : ظلمتـه إذا نقصته حقـه . قال تعـالى : ﴿ كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً ﴾ (١) .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء لـه على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العبـاد . لكن يقولـون : ما خلق شيئـاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله ثم مـا يكون جـزاء على ذلك : فـالله محدثـه . وهم لا ينازعـون في مسألـة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة .

وهـذا الذي ذكـرناه : يـوافقون عليـه . لكن يقولـون : أول الذنـوب لم يحدثه الله بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه يوجب أن الله خالق كل شيء . فمـا حدث شيء إلا بمشيئتـه وقدرته لكن أول الـذنوب الـوجوديـة : هو المخلوق . وذاك عقـوبة على عـدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٣ .
واختلف العلماء في لفظ « كلتا وكلا » هل هو مفرد أو مثنى . فقال أهل البصرة : هو مفرد لأن كلا وكلتا في توكيد الاثنين نظير (كل) في المجموع وهم اسم مفرد غير مثنى فـإذا ولي اسماً ظاهراً كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة . فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب تقول : رأيت كليهمـا ومررت بكليهمـا كما تقـول : عليهما . وقـال الفـراء : هو مثنى وهـو مأخـوذ من كل فخففت الـلام وزيـدت الألف للتثنيـة ، وكـذلـك كلتـا للمؤنث ولا يكونان إلا مضافين .

وهـذا العدم لا يجـوز إضافتـه إلى الله . وليس بشيء، حتى يـدخـل في قولنا ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [1] وما أحدثه من الذنوب الوجودية فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم ، وسائرها : قد يكون عقوبة للعبـد على ما وجـد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فمـا دام لا يخلص لله العمل : فـلا يزال مشـركـاً ، ولا يـزال الشيـطان مسلطاً عليه . ثم تخصيصه سبحانه لمن هـداه ـ بأن استعمله ابتـداءً فيما خلق لـه [2] ، وهذا لم يستعمله ـ هـو تخصيص منه بفضله ورحمتـه . ولهـذا يقـول الله :

﴿ والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَالله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [3] .

ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كمـا خصَّ بعض الأبدان بقـوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عـدم القوة قـد تحصل لـه أمراض وجـودية ، وغيـر ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

---

(١) سورة الزمر آية رقم٦٢ .
يقول الامام القرطبي في قوله (خالق كـل شيء) عموم معنـاه الخصوص ، أي خلق العـالم ، ولا يدخل في ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته ، ومثله « ورحمتي وسعت كـل شيء » ولم تسع إبليس ولا من مات كافراً ومثله « تدمر كل شيء » ولم تدمر السموات والأرض .

(٢) أخـرج الترمـذي في كتاب القدر ٨ باب مـا جاء أن الله كتب كتـاباً لأهـل الجنة وأهـل النـار ٢٢٢٩ ـ أخبـرنا علي بن حجـر ، أخبرنـا اسماعيـل بن جعفر عن حميـد عن أنس قال : قـال رسـول الله ـ ﷺ : إن الله إذا أراد بعبد خيـراً استعمله فقيل كيف يستعمله يـا رسـول الله . . ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت »
قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠٥ .

فصل
الموجب للعذاب عدم الإيمان

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان : قوله تعالى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [1] وهذا من تمام قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ [2] الآية فذكر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة . وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وقد تركوا الإيمان ، وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان وما ذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح ـ من أكل وشرب ،وبيع وسفر ، وغير ذلك .

وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه . ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودي لا ضدَّ له إلا ذلك .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ ، ١١٠ .

فصل
ما يضاف الى النفس وما يضاف إلى الله

الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف إلى النفس ، وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التي تصيب الإنسان - وهي مصائب الدنيا والآخرة - ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه ، فانحصرت في نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه ، لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه (١) ، وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل ، بل يضاعفه له ، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه . ويعلم أن النعم كلها من الله (٢) . وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم . فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير ، كشكر

---

(١) قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ الصافات آية رقم ٩٦ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ [سورة النحل آية رقم ٥٣] .

الوالدين [1] وشكر من أحسن إليك من غيرهما . فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » [2] لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه : أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً . قال تعالى :

﴿ وَما بِكُم مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [3] وقال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [4] .

وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لايقدر أحد على مثله . فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق كما قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيهِ حُسْناً ﴾ [5] ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً . وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [6] .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « على المرء المسلم : السمع والطاعة في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر

---

(١) قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾ سورة لقمان آية رقم ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة ٣٥ باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ٢٠٢٠ ـ حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا الربيع بن مسلم ، حدثنا محمد بن زياد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
قال الترمذي : هذا حديث صحيح .
ورواه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٣ ، ٣٨٨ (حلبي)

(٣) سورة النحل آية رقم ٥٣ .

(٤) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٨ .

(٦) سورة لقمان آية رقم ١٥ .

بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[1] . وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف »[2] . وقال « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه »[3] وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[4] .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

« النعم كلها من الله تعالى »

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من عند الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله ، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو . وأنه ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ** ﴾[5] صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ٤٠ باب لا طاعة في معصية الله ٢٨٦٣ حدثنا محمد ابن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ بعث علقمة ابن مجزز على بعث وذكره .

و٢٨٦٤ بسنده عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره ورواه البخاري في كتاب الجهاد ١٠٨ والأحكام ٤ وأبو داود في الجهاد ٨٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٤٢ ورواه الامام مسلم في كتاب الإمارة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣٨ (١٨٣٩ بسنده عن ابن عمر عن النبي - ﷺ وذكره .

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الامارة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣٩ (١٨٤٠) بسنده عن أبي عبد الرحمن عن علي أن رسول الله - ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً فأوقد ناراً وقال أدخلوها الخ وذكره . ورواه البخاري في الأحكام ٤ والآحاد٨ ، والمغازي ٥٩ ، وأبو داود في الجهاد ٨٧، والنسائي في البيعة ٢٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٢ ، ٩٤ ، ١٢٤ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ٤٠ باب لا طاعة في معصية ٢٨٦٣ بسنده عن أبي سعيد الخدري وذكره .

في الزوائد : اسناده صحيح .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في الامارة ٣٩ ، وأبو داود في الجهاد ٨٧ والنسائي في البيعة ٣٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٢٩ ، ١٣١ ، ٤ : ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ (حلبي)

(٥) سورة فاطر آية رقم ٢ .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر ـ الذي لا يستحقه غيره ـ صار علمه بأن الحسنات من الله يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه . ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً . لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل ، وما كان لعمله فيه مدخل : فإن الله هو المنعم به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله . ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس . فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب . واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف « لا يرجُوَنَّ عبد إلا ربه ولا يخافنّ عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب . ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ (١) علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه . حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف ـ ابن عباس وغيره ـ أن ما أصابهم يوم أُحُد من الغم والفشل : إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفّر الله بها من خطاياه »[1] .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٤ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ٥٢ (٢٥٧٣) بسنده عن أبي سعيد وأبي هريرة : أنهما سمعا رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه البخاري في المرض ٣ . ورواه الترمذي في أبواب الجنائز ١ باب ما جاء في ثواب المرض ٩٧٣ - عن محمد بن عمرو بن عطاء عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه صاحب الموطأ في كتاب العين ٣ باب ما جاء في أجر المريض ٦ - وحدثني مالك عن يزيد بن خصيفة عن عروة بن الزبير أنه قال سمعت عائشة - زوج النبي - ﷺ - تقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

فصل
النفس الخبيثة لا تصلح للمكان الطيب

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة وصفها بالخبث في مثل قوله ﴿ الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ (١) . قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : كَلِمَةً طَيِّبَةً - وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ (٢) وقال الله ﴿إلَيهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ ﴾ (٣) والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها . فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح . ومن أراد : أن يجعل الذي يكذب شاهداً على الناس لم يصلح .

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٦ وبعد هذا قوله تعالى ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾. أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات وقال الفراء : مبرءون : يعني منزهين مما رموا به . قال بعض أهل التحقيق إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة براه الله على لسان صبي في المهد وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن ، فما رضي لها ببراءة صبي ولا نبي ، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ و٢٦ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

وكذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم . أو يجعل العاجز الجبان مقاتلاً عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذي لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب : فمثل هذا يوجب الفساد في العالم . وقد يكون غير ممكن . مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء . فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة . كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ « إن المؤمنين إذا نجوا من النار ـ أي عبروا الصراط ـ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . فإذا هذّبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة [1] . وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « يخلص المؤمنون من النار » فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . حتى إذا هذبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة . فوا الذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزلة في الجنة منه بمنزلة كان في الدنيا » [2] .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب ، فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

---

(١) (٢) الحديثان رواهما البخاري في كتاب المظالم ١ وكتاب الرقاق ٤٨ ورواهما الإمام أحمد ابن حنبل في المسند ٣ : ١٣ ، ٦٣ ، ٧٤ (حلبي)

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي ، الأول الآخر ، فسببها دائم فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ (١) وقوله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (٢) .

وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان . وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « يَمين الله ملأى لا يغضيها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما في يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » (٣) .

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ولا وضع للأشياء مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه . وهو سبحانه قد شهد ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الزكاة ١١ باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٣٧ ـ حدثنا معمر بن راشد عن همام بن منبه أخي وهب بن منبه ، قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ـ فذكر أحاديث منها وقال : قال رسول الله ﷺ . إن الله قال لي : أنفق أنفق عليك ، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . وفيه « وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض » ورواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٧ ـ بسنده عن أبي هريرة ـ عن النبي ـ ﷺ وذكره ، ورواه البخاري في كتاب التفسير سورة ١١ ، والتوحيد ١٩ ، ٢٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٥٠٠ (حلبي) .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

ولهـذا يقولـون : لا نـدري مـا يفعـل بمن فعـل السيئـات ، بـل يجـوز عندهم : أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم : أن يُعذب الجميـع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بـلا موازنـة ، بل يعفـو عن شر النـاس ، ويعذب خيـر الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى [١] ، لا بتوبة ولا حسنات ماحية ولا غير ذلك وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر خبر الله ورسوله .

قـالـوا : وليس في الكتـاب والسنـة مــا يبين مـا يفعــل الله بمن كسب السيئات إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى ﴿ **إِنْ تَجتنِبُوا كَبَائِر مَا تُنْهَوْن عَنْـهُ نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيئَاتِكُمْ** ﴾ [٢] بأن المراد بالكبائر قد يكون هـو الكفر وحـده . كما قـال تعالى ﴿ **إنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ [٣] .

وقد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر بن الباقلاني [٤] وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان في القدر وفي الوعيـد ، وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر والوعيد فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء . وسلكوا مسلك

---

(١) كيف يدعي عاقل هذا ويقول به والله سبحانه وتعـالى يقول : إن تجتنبوا كبائـر ما تنهـون عنه نكفر عنكم سيئاتكم . . ؟

(٢) سورة النساء آية رقم ٣١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر : قاض ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه رياسة مذهب الأشاعرة ولد في البصرة عام ٣٣٨ هـ وسكن بغداد فتوفي بها عام ٤٠٣ هـ وجهه عضد الدولة سفيراً عنه الى ملك الروم فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يد ملكها من كتبـه (اعجاز القـرآن) و(دقائق الكـلام) و(الملل والنحل) وكشف أسـرار الباطنية ، وغير ذلك كثير . [راجع وفيـات الأعيان ١ : ٤٨١ وتـاريخ بغـداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٢٩٤] .

نفاة القدر في هذا وقالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها . بل يكون عذابه مؤبداً ، فصاحب الكبيرة ، أوْ من رجحت سيئاته ـ عندهم ـ لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده في النار ، فخالفوا المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر . وناقضهم جهم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم . مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث واتباع السلف ، وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة [1] الغلاة كجهم وأتباعه .

الجهم وأتباعه ينفون الصفات والقدر

وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات فغلا في نفي الأسماء والصفات ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنة [2] والفلاسفة

---

(١) المرجئة : ثلاثة أصناف : صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية المعتزلة ، كغيلان وأبي شمر ، ومحمد بن شبيب البصري ، وهؤلاء داخلون في مضمون الخبر الوارد في لعن القدرية ، والمرجئة يستحقون اللعن من وجهين وصنف منهم قالوا بالإرجاء بالإيمان ، وبالجبر في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان فهم إذاً من جملة الجهمية ، والصنف الثالث منهم خارجون عن الجبرية والقدرية وهم فيما بينهم خمس فرق . وإنما سموا مرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان ، والإرجاء بمعنى التأخير وروي عن النبي ـ ﷺ أنه قال : لعنت المرجئة على لسان سبعين نبياً » قيل : من المرجئة يا رسول الله ؟ قال : الذين يقولون الإيمان كلام » [راجع الفرق بين الفرق ص ٢٠٢] .

(٢) أنظر في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٨٣ ، ومقالات الاسلاميين ١ : ١٦٤ ، والملل ١ : ١٢٩ والسفاريني ١ : ٨٠ وخطط المقريزي ٢ : ٣٥٧ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٨١ وتاريخ ابن الأثير في حوادث ٢٧٨ وسنة ٢٨٦ ، وسنة ٢٨٩ وسنة ٣٠١ وسنة ٣١١ وسنة ٣١٧ ، وقد حكى ابن خلكان أن القاضي أبا بكر الباقلاني ألف كتاباً سماه « كشف أسرار الباطنية » ذكر فيه أحوالهم وما يذهبون إليه ، ثم أنظر فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازي ص ٧٦ وما بعدها .

ونحـوهـم . ووافقه المعتـزلة في نفي الصفـات دون الأسماء . والكـلابية [١] ـ ومن وافقهم من السالمية [٢] ـ ومن سلك مسلكهم منْ الفقهـاء وأهل الحـديث والصوفية ـ وافقوه على نفي الصفات الاختيارية دون نفي أصل الصفات .

والكرامية [٣] ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام مـا لا يتناهى وأنه يمتنع أن يكون الله لم يـزل متكلماً إذا شـاء ، وفعالاً لمـا يشاء إذا شـاء لامتناع حوادث لا أول لها ، وهو من هذا الأصل ـ الذي هو نفي وجـود ما لا يتنـاهى في المستقبل ـ قـال بفَنَـاء الجنـة والنـار ـ وقـد وافقـه أبـو الهذيل [٤] إمام المعتزلة على هذا . لكن قال بتناهي الحركات . فالمعتزلة في الصفات مخانيث الجهمية .

---

(١) الكلابية هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد محمد بن كلاب (بضم الأولى وتشديد الثانية) القطان توفي سنة ٢٤٠ بقليل تأثر به أبو الحسن الأشعري إمام المذهب قال عنه ابن حـزم إنه شيخ قديم للأشعرية .

(٢) السـالمية : أتبـاع أبي عبد الله محمـد بن أحمد بن سـالم المتوفى سنـة ٢٩٧ هـ وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وقد تتلمـذ على سهل بـن عبـد الله التستري ، ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب ، ويجمع السـالمية في مقـالاتهم بين آراء أهل السنـة والمعتزلـة مع ميـل الى التشبيـه ونـزعـة صـوفيـة فيهـا شيء من الاتحاد ، ولا يوجد عن هذه الفرقة دراسات كما لا يـوجد لأحـد منها كتب ولا مؤلفـات إلا ما ينقل عنهم خلال كتب الفـرق والطبقـات [راجع شـذرات الذهب ٣ : ٣٦ والفـرق بين الفرق ١٥٧ ـ ٢٠٢ ودائرة المعارف الاسلامية (مقالة السالمية) لما سينيون وانظر درء تعارض العقـل والنقل ١ : ١٣] .

(٣) رئيسهم هو أبو عبد الله محمد بن كرام السجستاني ، شيـخ الطائفـة الكراميـة ويختلف العلماء في ضبط كرام والأكثرون على أنه بفتح الكاف وتشديد الراء (وانظر اللباب ٣ : ٣٢ ، ولسـان الميزان ٥ : ٣٥٣ والقاموس المحيط .
وانـظر في شأن هـذه الفـرقـة التبصيـر ص ٦٥ والملل والنحـل ١ : ١٠٨ والسفاريني ١ : ٩١ والفرق بين الفرق ٢١٥ ـ ٢١٥ .

(٤) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي مولى عبد القيس أبو الهذيل العـلاف من أئمـة المعتزلـة ، ولد في البصـرة عام ١٣٥ هـ واشتهـر بعلم الكلام لـه مقـالات في الاعتـزال ومجـالس ومناظـرات ، وكان حسن الجـدل قوى الحجـة ، كف بصره في آخـر عمـره وتـوفي

وأما الكلابية فيثبتون الصفات في الجملة . وكذلك الأشعريون [1] ولكنهم - كما قال الشيخ أبو اسماعيل الأنصاري - الجهمية الإناث وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا ، لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنها مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كثيرة جداً .

والشهرستاني [2] يذكر عن شيوخهم ، أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة لأن الشهرستاني إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث ، فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية . وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم الجهمية . وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

= بسامراء عام ٢٣٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ ومروج الذهب ٢ : ٢٩٨ ولسان الميزان ٥ : ٤١٣] .

(١) هم أتباع علي بن اسماعيل بن اسحاق ، أبو الحسن الأشعري صاحب مقالات الاسلاميين ت ٣٢٤ هـ .

(٢) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني ، من فلاسفة الاسلام ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ولد في شهرستان عام ٤٧٩ هـ وانتقل الى بغداد سنة ٥١٠ هـ فأقام ثلاث سنين وعاد الى بلده ، وتوفي بها . تخبط في الاعتقاد وبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم كما قال ياقوت من كتبه « الملل والنحل ، ونهاية الأقدام في علم الكلام ، والارشاد الى عقائد العباد توفي عام ٥٤٨ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ ولسان الميزان ٥ : ٢٦٣] .

« القول بالقدر وأول القائلين به »

وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد [1] . وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري [2] في أوائل المائة الثانية . وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير [3] بعد موت معاوية [4] ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم - وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته وعقب

---

(١) هو عمر بن عبيد بن باب التميمي أبو عثمان البصري ، شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين كان جده من سبى فارس ، وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة قال فيه المنصور العباس .

كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

له رسائل وخطب « الرد على القدرية » و« التفسير » توفي عام ١٤٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ والبداية والنهاية ١٠ : ٧٨ وميزان الاعتدال ٢ : ٢٩٤] .

(٢) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد تابعي ، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ولد بالمدينة عام ٢١ هـ وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف توفي عام ١١٠ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان وميزان الاعتدال ١ : ٢٥٤ وحلية الأولياء ٢ : ١٣١] .

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو بكر ، فارس قريش في زمنه ، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ جعل قاعدة ملكه المدينة ، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة له في كتب الحديث ٣٣ حديثاً قتل محاصراً عام ٧٣ هـ [راجع ابن الأثير ٤ : ١٣٥ وفوات الوفيات ١ : ٢١٠ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٠١] .

(٤) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية مؤسس الدولة الأموية ولد بمكة عام ٢٠ ق هـ وتوفي عام ٦٠ هـ وهو أحد كتاب الوحي . [راجع منهاج السنة ٢ : ٢٠١ - ٢٢٦ واليعقوبي ٢ : ١٩٢ والخميس ٢ : ٢٩١ والمسعودي ٢ : ٤٢] .

ذلك تولى الحجاج [1] العراق سنة بضع وسبعين .

فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة - بعد موت الحسن وتكلم في المنزلة بين المنزلتين وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

نشأة القول بنفي الصفات

إلى أن ظهر الجعد بن درهم [2] ، وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري [3] وقال « أيها الناس ، ضحوا . تقبل الله ضحاياكم ، فإني

---

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبو محمد : قائد ، داهية ، سفاك ولد عام ٤٠ هـ ونشأ في الطائف . قلده عبد الملك أمر عسكره وأمره بقتال عبد الله بن الزبير فقتله وفرق جموعه فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليه العراق . بنى مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) توفي عام ٩٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٢٣ والمسعودي ٢ : ١٠٣ - ١١٩ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٠ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٤٨] .

(٢) الجعد بن درهم ، من الموالي : مبتدع له أخبار في الزندقة . سكن الجزيرة وأخذ عنه مروان ابن محمد لما ولي الجزيرة في أيام هشام بن عبد الملك قال الذهبي : مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى . فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر ، وكان مروان يلقب بالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وقيل : كان الجعد زنديقاً ، قتله خالد القسري عام ١١٨ هـ [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥] .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري أبو الهيثم أمير العراقين ، وأحد خطباء العرب وهو يماني الأصل من أهل دمشق ولي مكة عام ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك ، ثم ولاه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥ عزله هشام ١٢٠ هـ وولي مكانه يوسف بن عمر الثقفي فقتله عام ١٢٦ هـ وكان خالد يرمي بالزندقة . [راجع تهذيب ابن عساكر ٥ : ٩٧ - ٨٠ والوفيات ١ : ١٦٩ وتهذيب التهذيب وابن الأثير ٤ : ٢٠٥ ثم ٥ : ١٠١] .

مضح بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأي جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق مثل ابراهيم بن طهمان وخارجه بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وأمثالهم ـ وقد تكلم في ذممهم وابن الماجشون [١] وغيرهما وكذلك الأوزاعي وحماد بن زيد وغيرهم . وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة . فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا . فإن كان قد أقام بخراسان مدة . واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثماني عشرة ومائتين . وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام . فلما ردّ عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه . فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

وكان أحمد بن داود [٢] قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن

---

(١) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة أبو عبد الله الماجشون من أئمة المحدثين توفي ببغداد سنة ١٦٤ هـ ومن أهم كتبه (الإبانة) ويقع في أربعة عشر جزء مخطوط بدار الكتب . [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ وشذرات الذهب ١ : ٢٥٩ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٣٦ ـ ٤٣٩ وطبقات ابن سعد ٥ : ٤١٤ والاعلام ١٤٥ : ١٤٦ .]

(٢) هو أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الأيادي المكنى بأبي عبد الله من مشاهير القضاة في =

من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة ـ كابن المبارك ، وأحمد بن اسحاق ، والبخاري وغيرهم ـ يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين ـ من أصحاب أحمد وغيرهم ـ يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسي ـ وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبي داود ونحوهما ـ كانوا معتزلة وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق ـ وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار ابن عمرو[1] ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق . وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما :

نفي الصفات ، والثاني : الغلو في القدر والإرجاء ، فجعل الإيمان

= العصر العباسي ، وهو رأس الفتنة بالقول بخلق القرآن ، ولد بالبصرة عام ١٦٠ هـ وتوفي سنة ٢٤٠ هـ ببغداد وقال عنه الذهبي كان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن [راجع وفيات الأعيان ١ : ٦٢ ـ ٧٥ والنجوم الزاهرة ٢ : ٣٠٠ ـ ٣٠٢ تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ ، لسان الميزان ١ : ١٧١ والبداية والنهاية ١٠ : ٣١٩ والاعلام ١ : ١٢٠ وانظر أيضاً مناظرته للامام احمد بن حنبل في كتاب الحيدة لعبد العزي الكتاني] .

(١) هو ضرار بن عمرو القاضي ، إليه تنسب طائفة الضرارية ، وهم يشبهون النخارية الى حد كبير في قولهم بنفي الصفات وخلق الأفعال ويبطلون القول بالتولد ، وينكرون القول بوجوب المعرفة بالعقل قبل ورود الشرع ويقول ابن حجر : إن ضرار بن عمر وكان له مقالات خبيثة [أنظر عنه : لسان الميزان٣ : ٢٠٢ ، الملل والنحل ١ : ١٤٢ ـ ١٤٤ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٩ ـ ١٣٠ أصول الدين ص٣٣٩ ـ التبصر في الدين ص ٦٢ مقالات الأشعري ١ : ٢٨١ التنبيه والرد للملطي ص ٤٣] .

مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذا مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

وأما الأشعري : فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات ـ لا الإرادة ولا غيرها ـ فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي . فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب وأما الأشعري فهو يثبت الصفات ـ كالإرادة ـ فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟

فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالي الجويني [1] : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم . أشك في بعضهم .

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية ـ ومشايخ المعرفة والحقيقة فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي اسماعيل الأنصاري الهروي ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفيهم الصفات ، وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف الى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

---

(١) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ولد بنيسابور سنة ٤١٩ هـ وتوفي بها سنة ٤٧٨ هـ من كبار أئمة الأشاعرة تتلمذ عليه الغزالي ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفقه من أهمها « الشامل » و« الارشاد » و« اللمع والعقيدة النظامية » وطبعت هذه الكتب محققة . أنظر عنه تبين كذب المفتري ص ٢٧٨ ـ ٢٨٥ وطبقات الشافعية ٤ : ٢٤٩ ـ ٢٨٢ ، وشذرات الذهب ٣ : ٣٥٨ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤١ ، والأعلام ٤ : ٢٠٦ .

وقد قال له بعض الناس - بحضرة نظام الملك [1] - أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي ، وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة ، لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل إلى مقام الفناء . فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له . وهذا هو الحكم عنده . و« الحسنة » و« السيئة » يفترقان في حظ العبد لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات الى هذا هو من حظوظ النفس . ومقام الفناء ليس فيه إلَّا مشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد [2] كما ذكر ذلك في غير موضع .

---

(١) هو الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي ، أبو علي ، الملقب بقوام الدين ، نظام الملك وزير حازم عالي الهمة أصله من نواحي طوس تأدب بآداب العرب ، وسمع الحديث الكثير ، واشتغل بالأعمال السلطانية فاتصل بالسلطان الب أرسلان فاستوزره فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين ومات ألب أرسلان فخلفه ولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك . قال ابن عقيل : كانت أيامه دولة أهل العلم . اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند عام ٤٨٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٣ وابن الأثير ١٠ : ٧٠] .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز أبو القاسم : صوفي من العلماء بالدين مولده ومنشأه ووفاته ببغداد عام ٢٩٧ هـ أصل أبيه من نهاوند ، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير ، وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز . قال أحد معاصريه : ما رأت عيناي مثله . قال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه ، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة من كلامه : طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به » [راجع روضة الناظرين والكامل لابن الأثير ووفيات الأعيان ١ : ١١٧ وحلية ١٠ : ٢٥٥] .

وبين لهم الجنيد الفرق الثاني ، وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبين لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء وهذه الأعمال ، ولا يبغض هؤلاء وهذه الأعمال ، بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريدها ، كما قاله الأشعري ، وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعري [1] لما أثبت الفرق بين هذا وهذا بالنسبة الى المخلوق - كان أعقل منهم .

فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا . وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوي عنده جميع الحوادث وهذا محال قطعاً . وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء . أما الفناء عن جميعها : فممتنع . فإنه لا بد أن يفرق كل حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه . فيفرق بين الخبز والتراب والماء والشراب .

---

(١) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق ، أبو الحسن من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة - كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ولد عام ٢٦٠ هـ وتوفي عام ٣٢٤ هـ . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقريزي ٢ : ٢٥٩ ، وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودائرة المعارف الاسلامية ٢ : ٢١٨ وفي تبين كذب المفتري ١٢٨ - ١٤٠ أسماء كثير من مصنفاته] .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعي الإيماني الرحماني الذي به فرق الله بين أوليائه وأعدائه . وظنوا أنهم مع الجمع القدري .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لا بد للعبد من أن يفرق . فإن لم يفرق بالفرق الشرعي ـ فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطه ـ وإلا فرق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه . فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير في المعاصي ، وآخرون في الفسوق ، وآخرون في الكفر . حتى جوزوا عبادة الأصنام .

ثم كثير منهم من ينتقل الى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد وأئمة الدين في التوحيد . فلم يفرقوا بين القديم والمحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود . كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربي الحاتمي (١) ، وابن سبعين (٢) ، والقونوي ، والتلمساني ، والبلياني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب في

---

(١) هو أبو بكر محيي الدين بن علي بن محمد الحاتمي الطائي المعروف بابن عربي وأحياناً بابن العربي ، ولد بمرسيه ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ وله مصنفات كثيرة أشهرها (الفتوحات المكية ـ فصوص الحكم) [راجع ترجمته ومصنفاته في نفح الطيب ٢ : ٣٠١ ـ ٣٨٤ وشذرات الذهب ٥ : ١٩٠ والطبقات الكبرى للشعراني ١ : ١٦٢ وميزان الاعتدال ٣ : ٦٥٩ ـ ٦٦٠ ولسان الميزان ٥ : ٣١١ـ٣٥١ وفوات الوفيات ٣ : ٤٧٨ ـ ٨٤٢] .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين ويكنى بأبي محمد ولد سنة ٦١٣ وتوفي عام ٦٦٩ هـ له مجموعة رسائل في التصوف طبعت أخيراً بتحقيق عبد الرحمن بدوي (ط القاهرة) [راجع ترجمته في شذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ ـ ٣٣٠ والطبقات الكبرى للشعراني ١ : ١١٧ ، ولسان الميزان ٣ : ٣٩٢ ، وفوات الوفيات ١ : ٥١٦ ـ ٥١٨ ونفح الطيب ٧ : ٣٩٥ ـ ٤٩٦] .

القدر من أهل الكلام والمتصوفة ، الذين وافقوا جهماً في هـذا الأصل . وهـو بدعقه الثانية التي اشتهرت عنه ، بخلاف الأرجاء . فـإنه منسـوب إلى طوائف غيره .

فهؤلاء يقـولون : إن الـرب يجوز أن يفعـل كل مـا يقـدر عليـه ويمكن فعله ، من غير مراعـاة حكمته ، ولا رحمـة ولا عدل . ويقـولون : إن مشيئتـه هي محبتـه . ولهذا تجـد من اتبعهم : غيـر معـظم لـلأمـر والنهي ، والـوعـد والوعيد ، بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه ، فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه اليها ، بل غايته : أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمـور والمحظور . بـل وافقوا جهمـاً ومن قال بقـولـه ـ كـالأشعـري ـ في أنـه في نفس الأمـر : لا حسن ولا سيء . وإنما الحسن والقبح : مجرد كونـه مأمـوراً به ومحـظوراً. وذلك فـرق يعود الى حظ العبد . وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

فتارة : يقولـون في امتثال الأمـر والنهي : إنه من مقـام التلبيس ، أو ما يشبـه هـذا . كمـا يـوجـد في كـلام أبي اسمـاعيـل الهـروي صـاحب منـازل السائرين . وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة ، كما يقوله الشيخ المغربي ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

ومن يسلك مسلكهم غايته ـ إذا عظم الأمر والنهي ـ أن يقول ؛ كما نقل عن الشـاذلي [١] ـ يكون الجمـع في قلبـك مشهـوداً ، والفـرق على لسـانـك

(١) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي ، أبـو الحسن . رأس الطائفة الشاذلية ، من المتصوفة وصاحب الأوراد المسماة (حزب الشاذلي) ولد في غمازة من قرى (إفريقية) عام ٥٩١ ـ وتفقه وتصوف بتونس ، وسكن شاذلة فنسب إليها . توفي بصحراء

موجوداً ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد في جواب الشاذلي . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

الفرق بين الكرامة والشعوذة

وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً ، ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء ، ما هي متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام ، ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء ، وتكون كراماتهم ، من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (1) .

وقد قال النبي ﷺ « لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » (2) .

= (عيذاب) في طريقه الى الحج عام ٦٥٦ هـ ينتسب الى الأدارسة أصحاب المغرب . قال الذهبي : نسب مجهول لا يصح ولا يثبت ، كان أولى به تركه . [راجع طبقات الشعراني ٢ : ٤ ونور الأبصار ٢٣٤] .

(1) سورة البقرة آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

(2) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

والمسلمـون الذين جـاءهم كتاب الله القـرآن : عـدل كثيـر منهم ـ ممن أضلّه الشيـطان من المنتسبين إلى الإسلام ـ إلى أن نبـذ كتاب الله وراء ظهـره واتبع ما تتلوه الشيـاطين ، فلا يعـظم أمر القـرآن ولا نهيه ، ولا يـوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعـاداته . بـل يعظم من رآه يـأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهـان ، بإعـانة الشيـاطين وهي تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيـطان ، ولكن يعظم ذلك لهـواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار كـالذين قـال الله تعـالى فيهم ﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّـذِينَ أُوتُـوا نَصِيبـاً مِنَ الكِتَـابِ يُؤْمِنُـونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُـوتِ ؟ وَيَقُولُـونَ لِلّذِينَ كَفَرُوا : هَؤُلَاءِ أَهْـدَى مِنَ الّذِينَ آمَنُـوا سَبِيلاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله، وَمَن يلعَن الله فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ [1] .

وهؤلاء ضاهوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَلَمَّـا جَاءَهُمْ رَسُـولٌ مِنْ عِنْـدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَـا مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَـرِيقٌ مِن الّذِينَ أُوتُـوا الكِتَابَ كِتَـابَ الله وَرَاءَ ظُهُـورِهِمْ كَـأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُـون . واتّبَعُـوا مَـا تَتْلُوا الشّيَـاطِينَ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَكِنّ الشّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ [2] الآية .

ومنهم من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكـلام ، والعلم ، وأهل العبـادة والتصوف . حتى جوزوا عبادة الكواكب [3] ، والأصنام [4] ، لما رأوه فيها من

---

(١) سورة النساء آية رقم ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٣) قـال تعـالى : ﴿ لا تسجـدوا للشمس ولا للقمـر واسجـدوا لله الـذي خلقهن إن كنتم إيـاه تعبدون ﴾ . سورة فصلت آية رقم ٣٧ .

(٤) يقص القرآن الكريم قصة ابراهيم عليه السلام مع الأصنام قائلاً : ﴿ واتل عليهم نبأ ابـراهيم ، =

الأحـوال العجيبة ، التي تعينهم عليهـا الشيـاطين ، لمـا يحصـل لهم بهـا من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفـرهم بـه وبكتابـه إذا نالـوا ذلك ، ولم يبـالوا بتعليم ذلـك للناس وتعـظيمهم لهم ، لرياسة ينالـونها، أو مـال ينالـونه ، وإن كـانوا قـد علموا أنـه الكفر والشـرك : عملوه ، ودعوا إليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسـول ﷺ ، أو اعتقـاد أن الرسـول خاطب الجمهـور بما لا حقيقـة له في البـاطن ، لأجـل مصلحـة الجمهـور ، كمـا يقـول ذلـك من يقـولـه من المتفلسفـة والمـلاحـدة والباطنية .

وقد دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء ، وهذا مما ضاهوا به فـارس والـروم وغيـرهم ، فـإن فـارس كـانت تعـظم الأنـوار وتسجـد للشمس وللنار . والروم كـانوا ـ قبـل النصرانيـة ـ مشركين يعبـدون الكواكب والأصنـام فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصـارى ، فإن أولئك ضاهوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ ، وهؤلاء ضاهوا من لا كتاب لـه من المجوس والمشـركين ، فارس والـروم ، ومن دخل في ذلـك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنيـة : مأخـوذ من قول المجـوس بالأصلين [1] ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول [2] والنفوس .

= إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . . ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعـونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ سورة الشعراء آية رقم ٦٩ ـ ٧٣ .

(١) يقصد بالأصلين النور والظلمة أو إله الخير ، وإله الشـر إلى غير ذلـك من الخرافـات الذي لا يقبلها عقل . [راجـع الملل والنحل للشهـرستاني وكتـاب الفصل في الملل والأهـواء والنحل لابن حزم] .

(٢) نـظرية العقـول العشرة والتي يتولـد من كل عقـل فيها نفس وفلك الى أن نصـل الى العقـل الفعال أو فلك القمر من الخرافات التي اخترعها العقل اليوناني الذي لا يهتدي بعقل ولا يحد من جماحه دين . [راجع الجانب الالهي من التفكر الاسلامي للدكتور محمد البهي] .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هي إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكان للرب وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان ، وقد علم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول ـ إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه ـ « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » [1] .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ** ﴾ [2] مع قوله تعالى ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ** ﴾ [3] وقوله ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [4] .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية في فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادّعى إلهية بشر مع الله كالمسيح وغيره .

« أول شرك وقع في قوم نوح »

وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا ، عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(٤) سورة ص آية رقم ٨٥ .

فهذا أول شرك كان في بني آدم ، وكان في قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض . يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا** ﴾ (١) وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه ، وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب ـ فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء ، لا يحب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً وبين من

---

(١) سورة نوح آية رقم ٢٣ ـ ٢٤ قال القرطبي : قالت العرب لأولادهم وقومهم : لا تذرن وَداً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً ثم عاد بالذكر بعد ذلك الى قوم نوح عليه السلام .

وقال عروة بن الزبير : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه ود وسواع ويغوث ، ويعوق ونسر . وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمس بنين : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكان عباداً فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه . قالوا : افعل . فصوّره في المسجد من صُفْرٍ ورصاص ، ثم مات آخر فصوره ، حتى ماتوا كلهم فصورهم ، وتنقصت الأشياء كما تتنقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين . فقال لهم الشيطان مالكم لا تعبدون شيئاً قالوا : وما نعبد ..؟ قال : آلهتكم وآلهة آبائكم ألا ترون في مُصلاكم فعبدوها من دون الله حتى بعث الله نوحاً فقالوا : ﴿ **لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً** ﴾ الآية .

يعبد معه آلهة أخرى . وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ليس معها حكمة ولا رحمة ولا عدل ، ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

ثم إذا جوّزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح ، ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق ، وجوّزوا الخوارق مطلقاً ، وحكموا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكرة .

فقال بعضهم : إن الولي يعطي قول « كن » [1] وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن . كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه . قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلك . وزاد ابن عربي : إن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات . والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

---

(١) هذه الأشياء لا يقبلها عقل آمن بالله تعالى وصدق برسوله ﷺ الذي يقول عن نفسه كما حكى القرآن الكريم « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » الأعراف ١٨٨ هذا ما يقوله الرسول ﷺ الذي يوحى إليه -ويقول له الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فكيف يملك الولي أقول « كن » وكيف لا يمتنع عليه شيء . . ؟ إن هذا إلا افتراء ؟؟ .
الولي كما وصفه الرسول - ﷺ - فيما يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن من عبادي عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى : قيل يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال :هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ « ألا إن أوليلاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه « أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر، خمص البطون من الجوع يبس الشفاه من الذوي » .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادّعوا أن هذا كان للنبي ، ثم انتقل إلى الحسن بن علي ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد ، حتى انتهى ذلك إلى الحسن الشاذلي ، ثم إلى ابنه خاطبني بذلك مَنْ هو من أكابر أصحابهم .

وحدّثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله . وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود في مكة فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود [1] ـ وأشار إلى وسط الكعبة ـ هذا مهبط النور الأول ، وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ماذا كنت تقول له ؟ قال : فقف شعري من هذا الكلام وانخنست ـ أو كما قال :

« حقيقة الدعاء آدابه وحدوده »

ومن الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله [2] : أنه لما دخل الزنج البصرة قيل له في ذلك . فقال : هاه، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها ، لكنهم يعلمون مواضع رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يحب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل ـ وهو الذي نختار أن يكون حقاً ـ

---

(١) سبق الترجمة له فيما سبق .

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال « له كتاب في تفسير القرآن » مختصر وكتاب « رقائق المحبين » وغير ذلك توفي عام ٢٨٣ هـ . [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ والوفيات ١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ والشعراني ١ : ٦٦ والمناوي ١ : ٢٣٧] .

أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون ، ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم يجبهم مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك ، بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في ألا يكون لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله : أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضي بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى ـ من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير ـ ما هو دون هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله ابراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه[1] ، وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له ﴿ **يَا نُوحُ ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . فَلَا تَسْأَلْنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [2] .

وأفضل الخلق محمد ﷺ : قيل له في شأن عمه أبي طالب ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ** ﴾[3] وقيل له في المنافقين ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ** ﴾ [4] وقد قال تعالى عموماً ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [5] وقال ﴿ **وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [6] .

فمن هذا الذي لو سأل الله ما يشاءه هو أعطاه إليه ؟ ! .

---

(١) قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام : ﴿ **واغفر لأبي إنه كان من الضالين** ﴾ سورة الشعراء آية رقم ٨٦.

(٢) سورة هود آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١١٣ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٦) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .

وسيد الشفعاء محمد ﷺ يوم القيامة . أخبر أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثني عليه فيقال له : أي محمد ، ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تُعط ، واشفع تشفع . قال : فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة [1] وقد قال تعالى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [2] .

وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ [3] وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [4] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « ما من داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : « إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » [5] .

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان ٣٢٢ (١٩٣) ٨٤ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها - حدثنا أبو عوانة عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره ورواه الترمذي في أبواب صفة القيامة ١٠ باب ما جاء في الشفاعة ٢٥٥١ - حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا أبو حيان التميمي عن أبيه عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال : وذكره .
قال الترمذي . وفي الباب عن أبي بكر الصديق ، وأنس ، وعقبة بن عامر ، وأبي سعيد . وهذا حديث حسن صحيح .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

(٤) سورة غافر آية رقم ٦٠ .

(٥) الحديث رواه الامام مالك في كتاب القرآن ٨ باب ما جاء في الدعاء حدثني عن مالك ، عن = زيد بن أسلم : أنه كان يقول وذكره .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب أو مثله ، وهذا غاية الإجابة ، فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً ، أو مفسداً للداعي أو لغيره والداعي جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه ، والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها والكريم الرحيم إذا سئل شيئاً بعينه وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره ، ولله المثل الأعلى ـ وكما فعل النبي ﷺ ـ لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم ـ فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب

وقد روي في الحديث « ليس شيء اكرم على الله من الدعاء »[1] وهذا أحق .

= قال ابن عبد البر : مثل هذا يستحيل أن يكون رأياً واجتهاداً ، وإنما هو توقيف ، وهو خبر محفوظ عن النبي ـ ﷺ .

ورواه الترمذي في كتاب التفسير ومن سورة الصافات ٣٢٨١ حدثنا أحمد بن عبده الضبي أخبرنا المعتمر بن سليمان أخبرنا ليث بن أبي سليم عن بشر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . بلفظ « ما من داع دعا الى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً له لا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً ثم قرأ قول الله عز وجل ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون مالكم لا تناصرون** ﴾ وقال الترمذي . هذا حديث غريب .

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب الدعوات عن رسول الله ـ ﷺ ١ باب ما جاء في فضل الدعاء ٣٤٢٩ ـ أخبرنا أبو داود الطيالسي أخبرنا عمران القطان عن قتادة عن سعيد عن أبي الحسن عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمران القطان وعمران القطان هو أبو داود ويكنى أبا العوام . ورواه ابن ماجه ٣٤ كتاب الدعاء (١) باب فضل الدعاء ٣٨٢٩ حدثنا عمران القطان عن قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره .

فصل
الشرك يكون في الالتجاء لغير الله تعالى

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ (١) أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات ـ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ـ إلا من الله . وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو . كما قال تعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (٢) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال ﴿ ثُمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (٣) وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار يتضمن رفع الصوت والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر . وأما في حال النعمة : فهو ساكن إما شاكراً وإما كفوراً ﴿ ثُمَّ إذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إذَا فَرِيقٌ مِنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٤) .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٥٣ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٥٣ .
(٤) سورة النحل آية رقم ٥٣ ـ ٥٤ .

البـلاء عنه ، وإسبـاغ النعماء عليـه ، فيضيف العبد ـ بعـد ذلك ـ الإنعـام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّـاسَ ضُرٌّ دَعَـوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْـهُ رَحْمَـةً إِذَا فَـرِيقٌ مِنْهُم بِـرَبِّهِمْ يُشْـرِكُـونَ ، لِيَكْفُـرُوا بِمَـا آتَيْنَـاهُمْ فَتَمَتَّعُـوا فَسَـوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [١] وقال تعالى ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَـاتِ البَرِّ والبَحْـرِ تَدْعُـونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِن أَنْجَانَـا مِنْ هَذِهِ لَنَكُـونَنَّ مِنَ الشَّاكِـرِينَ قُلِ : اللهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَـا وَمِن كُـلِّ كَـرْبٍ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْـرِكُـونَ ﴾ [٢] وقـال تعـالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَـدْعُو إِلَيْـهِ مِن قَبْلُ ، وَجَعَلَ للهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُـلْ تَمَتَّعْ بِكُفْـرِكَ قَلِيلاً ، إِنَّـكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [٣] .

وقوله ﴿ نسي ما كان يـدعو إليـه ﴾ أي نسي الضر الـذي كان يـدعو الله لدفعه عنه ، كما قـال في سورة الأنعـام ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَو أَتَتْكُمُ السَّـاعَةُ : أَغَيْـرَ اللهِ تَدْعُـونَ ، إِن كُنْتُمْ صَـادِقِينَ ؟ بَـلْ إِيَّـاهُ تَـدْعُـونَ . فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [٤] .

فَـذمَّ الله سبحانـه حزبين : حزبا لا يـدعونـه في الضراء ، ولا يتـوبـون إليه ، وحزباً يدعونه ويتضرعون إليـه ويتوبـون إليه ، فـإذا كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان : ـ كالمعطلة ، والمشركة ـ حزب إذا نزل بهم الضر

---

(١) سورة الروم آية رقم ٣٤ .
(٢) سورة الأنعام ٦٣ ـ ٦٤ .
(٣) سورة الزمر آية رقم ٨ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ٤٠ ـ ٤١ .

لم يدعوا الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾[1] ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا؟ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[3] وقال تعالى ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ، وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[4] وقال تعالى ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[5] وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء ، ويتوبون إليه ، فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى ﴿ وإِذَا مَسَّ الإِنْسَانُ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ، أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[6] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[7] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾[8] وقال في المشركين ما تقدم ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[9] والممدوح : هو القسم الثالث ، وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه ، ويثبتون على عبادته ، والتوبة إليه في حال السراء ، فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام ، فقال تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ، فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤٢ .
(٢) سورة الأنعام آية رقم ٤٣ .
(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٧٦ .
(٤) سورة التوبة آية رقم ١٢٦ .
(٥) سورة السجدة آية رقم ٢١ .
(٦) سورة يونس آية رقم ١٢ .
(٧) سورة فصلت آية رقم ٥١ .
(٨) سورة الاسراء آية رقم ٦٧ .
(٩) سورة النحل آية رقم ٥٣ ـ ٥٤ .

الظُّلُمَاتِ ؛ أَن لَا إِلَه إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ : إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحِدٍ مِن بَعْدِي . إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾ [(٢)] وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ . فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاْحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ ، وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ ، قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ـ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ـ وَظَنَّ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [(٣)] وقال تعالى عن آدم وحواء ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ؟ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ [(٤)] وقال ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [(٥)] .

وقال تعالى عن المؤمنين الذي قتل نبيهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) سورة ص آية رقم ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) سورة ص آية رقم ٢١ ـ ٢٥ .
(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٢ ـ ٢٣ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .

وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ، إِلاَّ أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ، فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ قتل ﴾ أي النبي قتل. هذا أصح القولين ، وقوله ﴿ معه ربيون كثير ﴾ جملة في موضع الخبر صفة للنبي ـ صفة بعد صفة ـ أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه قُتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير وقتل في الجملة. وأولئك الربيون ﴿ مَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَاضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ (٢) .

و« الربيون » (٣) الجموع الكثيرة . وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي ﷺ ، وقال : مَنْ كان يعبد

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٦ ـ ١٤٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٤٦ .

(٣) الربيون : بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقراءة علي ـ رضي الله عنه بضمها وابن عباس بفتحها ثلاث لغات . والربيون : الجماعات الكثيرة عن مجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة واحدهم ربى بضم الراء وكسرها منسوب الى الربة بكسر الراء أيضاً وضمها وهي الجماعة ، وقال عبد الله بن مسعود الربيون الألوف الكثيرة ، وقال ابن زيد ، الربيون : الأتباع والأول أعرف باللغة ، ومنه يقال للخرقة التي تجمع فيها القداح ربه ورُبه والرباب قبائل تجمعت وقال إبان ابن ثعلب الربى : عشرة آلاف وقال الحسن : هم العلماء الصبر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسدي : الجمع الكثير ، قال حسان :

وإذا معشر تجافوا عن الحـ ـق حملنا عليهم ربيا

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤ .

محمداً فإن محمداً قد مات ، وَمَنْ كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس ـ المؤمنين والكافرين ـ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وأنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك ، فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء [1] . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير ، فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب ـ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ـ وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [2] وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ، قال تعالى لما أنزل الملائكة ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ . وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ . إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [3] وقال تعالى ﴿ **فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ . وَاللهُ**

---

(١) قال تعالى : ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ البقرة آية ٩١ .
وقال تعالى : ﴿ كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ آل عمران آية ١١٢ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ١٠ .

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ـ وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه . وأن لا يتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتي بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » [2] . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد ، ثم يقول بعد ذلك « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » [3] .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية ، خلقاً ، وقدراً ، وبداية وهداية هو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية ـ شرعاً وأمراً ونهياً ـ وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختا ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » . أي لاينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٨ .

(٢) (٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٨٧٩ حدثنا شريك عن أبي عمر قال سمعت أبا جحيفة يقول : ذكرت الجدود عند رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في الصلاة فقال رجل : جد فلان في الخيل ،وقال آخر جد فلان في الإبل ، وقال آخر جد فلان في الغنم ، وقال آخر : جد فلان في الرقيق ـ فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاته ورفع رأسه من آخر الركعة قال : وذكره في الزوائد : في إسناده أبو عمر ، وهو مجهول لا يعرف حاله .

ولهـذا قال « لا ينفعـه منك » ولم يقـل « لا ينفعه عنـدك » فإنـه لو قيـل ذلك : أو هم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صـاحب الجد إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتـوا النبوة والملك لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء ، فقد يظن ذو الجد ـ الـذي لم يعمل بـطاعة الله من بعـده ـ أنه كـذلك ، فقـال « ولا ينفع ذا الجـد منك » ضمن « ينفـع » بمعنى « ينجي ويخلص » فبين أن جـده لا ينجيـه من العــذاب ، بـل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله ولا ينفعه جـده منك . فـلا ينجيه ولا يخلصـه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قـوله ﴿ إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) وقوله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٢) وقوله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣) وقوله ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ، رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ . لَا إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (٤) .

فقوله « لا مـانع لمـا أعطيت ، ولا معـطى لما منعت » تـوحيد الـربوبيـة الذي يقتضي : أنه سبحانه : هو الذي يسأل ويدعي ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه ، كمـا يحتج بـه في القرآن على المشركين فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد ـ توحيد الربوبية ـ ومـع هذا يشـركون بـالله فيجعلون لـه أنـداداً ، يحبـونهم كحب الله ، ويقـولـون : إنهم شفعاؤ نا عنده ، وإنهم يتقربـون بهم إليه فيتخـذونهم شفعاء وقـربانـاً كما قـال تعـالى ﴿ وَيَعْبُـدُونَ مِن دُونِ الله مَـالاَ يضُـرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُـولُـونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .
(٢) سورة هود آية رقم ١٢٣
(٣) سورة هود آية رقم ٨٨ .
(٤) سورة المزمل آية رقم ٨ ، ٩ .
(٥) سورة يونس آية رقم ١٨ .

إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى الله زُلْفَى ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِن القُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخذُوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢) .

وهذا التوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله ـ صلوات الله عليهم ـ فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره بل يقتضي أن يكون رسوله ﷺ أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول ـ لأجل أنه رسول الله ـ يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخاري أن عمر قال « يا رسول الله ، والله إنك لأحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال فوالذي بعثك بالحق : إنك لأحب إلي من نفسي قال : الآن يا عمر » (٣) .

وقد قال تعالى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ الله

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٣ .

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ٢٧ ـ ٢٨ .

(٣) هذا الحديث رواه أبو داود في كتاب الوتر ، ورواه الامام الترمذي في كتاب الزهد ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٤١ (حلبي) ورواه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول عند ذكر مناقب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٦ .

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

فإن لم يكن الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى العبد من الأهل والمال ـ على اختلاف أنواعه ـ فإنه داخل تحت هذا الوعيد . فهذا التوحيد ـ توحيد الإلهية ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور ومن ذلك الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا الله وحده ، فيقتضي أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به كما قال تعالى في النوعين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) وقال ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة . فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين . فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ، ويحبونهم كما يحبونه ، فكان ذلك التوحيد ـ الذي هو توحيد الربوبية ـ حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ، ولا رازق إلا هو ، فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

« الشفاعة تكون لمن ارتضاه ربه »

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

بـإِذْنِهِ ﴾ (١) فـلا يشفع من لـه شفاعـة ـ من الملائكـة والنبيين ـ إلا بإذنـه وأمـا قبـورهم وما نصب عليهـا من قبـاب وأنصـاب ـ أو تمـاثيلهم ـ التي مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرقومة ـ فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم فهذا باطـل عقـلاً وشرعـاً ، فإنهـا لا شفاعـة لها بحـال ، ولا لسائـر الأصنـام التي عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

وإذا كـان الله لا يشفـع أحـد عنـده إلا بـإذنـه ، ولا يشفعــون إلا لمن ارتضى : فمـا بقي الشفعاء شـركاء ، كشفـاعة المخلوق عنـد المخلوق ، فإن المخلوق يشفـع عنـده نـظيـره ـ أو من هـو أعلى منـه ، أو دونـــه ـ بـدون إذن المشفوع إليه ، ويقبل المشفوع إليه ولا به شفـاعته : إمـا لرغبتـه إليه أو فيمـا عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنـه ما يخشـاه وإما لـرهبته منـه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع : هي التي حـركت إرادة المشفوع إليـه ، وجعلته مـريداً للشفـاعة ، بعـد أن لم يكن مريـداً لها ، كـأمـر الأمـر الـذي يؤثـر في المـأمور ، فيفعـل ما أمـره به بعـد أن لم يكن مريـداً لفعله . وكـذلـك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محركاً له إلى فعل ما سأله .

فالشفيع كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضـاً قد شفـع للمشفـوع إليه . فبشفـاعته صـار المشفوع إليـه فاعـلاً للمطلوب ، فقـد شفـع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد ، فلا يشفع عنـده أحد إلا بـإذنه فـالأمر كله إليه وحده ، فلا شريـك له بـوجه . ولهـذا ذكر سبحـانه نفي ذلـك في آية الكـرسي ، التي فيها تقـرير التـوحيد ، فقـال ﴿ لَـهُ مَـا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَـا فِي الأَرضِ . مَـن ذَا الَّـذِي يَشْفَعُ عِنْـدَهُ إلاَّ بِـإِذْنِـهِ ؟ ﴾(١) وسيـد الشـفعاء ﷺ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

=

يوم القيامة . إذ سجد وحمد ربه ، يقال له : « ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فيحد لـه حداً »[1] وقـال لرسـوله ﴿ لَيْسَ لَـكَ مِنَ الأَمْـرِ شَيْءٌ ﴾[2] وقال ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْـرُ ﴾[3] . فإذا كـان لا يشفع عنـد الله أحد إلا بإذنه ، فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة ، كما قـال النبي ﷺ في الحـديث الصحيـح « اشفعـوا تؤجـروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء »[4] .

وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة لم يكن هذا مؤثراً فيه، كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه

= في البخـاري في باب بقيـة من أبواب الـرؤ ية » إن المؤمنين يقـولون : ربنـا إن إخواننـا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ، وهذه شفاعـة فيمن يقرب أمـره ، وكما يشفـع الطفـل المحبنطي على باب الجنة ، وهذا إنما هو في قراباتهم ومعارفهم ، وإن الأنبياء يشفعون فيمن حصـل في النـار من عصاة أممهم بـذنوب دون قـربى ولا معرفـة إلا بنفس الإيمان ثم تبقى شفـاعة أرحم الراحمين في المستغرقين في الخطايا والذنوب الذين لم تعمل فيهم شفاعة الأنبياء وأما شفـاعة محمد - ﷺ - في تعجيل الحساب فخاصة له .

وقـد بين الامام مسلم في صحيحـه من حديث أبي سعيـد الخدري : ثم يضـرب الجسـر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم : سلم سلم . قيل يا رسول الله وما الجسر . . ؟

قال : دحض مزلة فيها خطاطيف وكلاكيب وحسكه تكون بنجد فيها شويكة يقـال لها السعـدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فهو الذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الـذين في النار . الخ

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء وهو عند البخاري ٢ : ١٤٠ كتاب الـزكاة بـاب التحـريض على الصدقـة والشفاعـة فيها ورواه مسلم في ٢ : ٤٤٦ كتـاب البر بـاب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام .

سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه ، وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء ،وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته . وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات .

قال يحيى بن سعيد القطان [١] : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة .

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

فإن «الإذن» نوعان : إذن بمعنى المشيئة والخلق، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله في السحر ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [٢] فإن ذلك بمشيئة الله وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر .

---

(١) هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي أبو سعيد ، من حفاظ للحديث . ثقة ، حجة من أقران مالك وشعبة من أهل البصرة كان يفتي بقول أبي حنيفة ، وأورد له البلخي سقطات ولم يعرف له تأليف توفي عام ١٩٨ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٧٤ وتهذيب ١١ : ٢١٦ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٣٥] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

والقدرية تنكر هذا « الإذن » وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله .

وكذلك قوله ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ (١) فإن الذي أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثاني : قوله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ﴾ (٢) وقوله ﴿ مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٣) فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ (٤) هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه ، ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر ، فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه لا هذا الإذن ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين وعندهم : إنه لم يشأه ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرون بالقدر يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدري ، وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازاً .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٦٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ : ٤٦ .
(٣) سورة الحشر آية رقم ٥ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

ومن كان مكذباً بالقدر ـ مثل كثير من النصارى ـ يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدري ولا شرعي .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدري .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي : فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي . فالداعي المأذون له في الدعاء : مؤثر في الله عندهم ، لكن بإباحته .

والداعي غير المأذون له : إذا أجاب دعاءه ، فقد أثر فيه عندهم لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره ، والله تعالى يقول ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [1] .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي ، وإن كان خالقاً لفعله ـ كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة ابراهيم لأبيه ، وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبي بن سلول حين صلى عليه بعد موته . وقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ قد قلتم : إنه يعم النوعين . فإنه لو أراد الإذن القدري لكان كل شفاعة داخلة في ذلك كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر ، ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه ، ولو أراد الإذن الشرعي فقط : لزم قول القدرية . وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي ؟ .

قيل : المنفي من الشفاعة بلا إذن : هي الشفاعة التامة ، وهي المقبولة ، كما في قول المصلي « سمع الله لمن حمده » أي استجاب له ، وكما في قوله تعالى : ﴿ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] وقوله ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [3] وقوله ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [4] ونحو ذلك .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة ق آية رقم ٤٥ .

فإن الهدى والإنذار ، والتذكير ، والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود . وإلا قيل : علمته فلم يتعلم ، كما قيل ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَىٰ عَلَى الهُدَىٰ ﴾ (١) فكذلك الشفاعة . فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه ، وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه . وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) وكما نهى الله النبي ﷺ عن الصلاة على المنافقين . وقال له ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٣) وقال له : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ (٤) . ولهذا قال على لسان المشركين ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾(٥) فالشفاعة المطلوبة : هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً . فلا بد أن يأذن فيها ولا بد أن يجعل العبد شافعاً . فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما في الداعي هو الذي أمره بالدعاء ، وهو الذي يجعل الداعي داعياً فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً . كما قال ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (٦) .

وقد روي في حديث ـ ذكره ابن أبي حاتم وغيره ـ أنه قال : « فمن يثق به فلْيَدْعُه » أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

---

(١) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٨٤ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ١٠٠ ، ١٠١ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

ولما كان المراد بالشفاعة المثبتة : هي الشفاعة المطلقة . وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة ، بخلاف المردودة ، فإن أحداً لا يريدها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه ، ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها ، والشفاعة المقبولة : هي النافعة ، بين ذلك في مثل قوله ﴿ **وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ (١) وقوله ﴿ **يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** ﴾ (٢) فنفى الشفاعة المطلقة وبيَّن أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له . وهو الإذن الشرعي بمعنى : أباح له ذلك وأجازه كما قال تعالى ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** ﴾ (٣) وقوله ﴿ **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ** ﴾ (٤) وقوله ﴿ **لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ (٥) ونحو ذلك .

وقوله ﴿ **إلا لمن أذن له** ﴾ هو اذن للمشفوع له ، فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه قال تعالى ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً . يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** ﴾ (٦) وفيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : ﴿ **لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن** ﴾ ، فهو الذي تنفعه الشفاعة وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين . لا يذكرون غيره لأنه لم

---

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة طه آية رقم ١٠٩ .
(٣) سورة الحج آية رقم ٣٩ .
(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .
(٥) سورة النور آية رقم ٥٨ .
(٦) سورة طه آية رقم ١٠٨ ـ ١٠٩ .

يقل « لا تنفع إلا لمن أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال ﴿ **لا تنفع الشفاعة إلا مَن أذن له** ﴾ فهي لا تنفع ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ **وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [١] .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له . بل لو أريد هذا لقيل : لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له ، وإنما قال ﴿ **لمن أذن له** ﴾ وهو المشفوع له الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله ﴿ **حَتَى إذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [٢] لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين في قوله ﴿ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ** ﴾ [٣] . ثم قال : ﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده** ﴾ ثم بين أن هذا منتف ﴿ **حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق** ﴾ ، فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين ، وكذلك قال السلف في هذه الآية .

قال قتادة في قوله ﴿ **إلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾ [٤] قال :

---

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة سبأ آية رقم ٢٣ .
(٣) سورة سبأ آية رقم ٢٢ .
(٤) سورة طه آية رقم ١٠٩ .

كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً مَحْمُوداً ﴾ [1] هو شفاعته يوم القيامة . وقوله ﴿ إلا مَن أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ إن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض .

قال البغوي [2] ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ أذن الله له أن يشفع له ﴿ ورضي له قولاً ﴾ أي ورضي قوله . قال ابن عباس : يعني قال « لا إله إلا الله » قال البغوي : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن . وقد ذكروا القولين في قوله تعالى ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا .

منهم البغوي فإنه لم يذكر هنا في الإستثناء إلا المشفوع له .

وقال هناك : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ في الشفاعة قال تكذيباً لهم ، حيث قالوا ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [3] قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ ﴾ [4] وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٧٩ .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي حافظ للحديث من العلماء ، أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ النسبة اليها بغوي) مولده عام ٢١٣ هـ ببغداد ووفاته بها عام ٣١٧ هـ ، كان محدث العراق في عصره (له معالم التنزيل في التفسير) و(معجم الصحابة والجعديات في الحديث) [راجع ميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١] .

(٣) سورة يونس آية رقم ١٨ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية ، وهم يعم النوعين .
وذلك : أنه سبحانه قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ و ﴿ الشفاعة ﴾ مصدر شفع شفاعة ، والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة ، ويماثله الذي يسمى لفظه « المفعول به » تارة كما يقال : أعجبني دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة الى المعلوم فالأول كقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [1] وقوله ﴿ أنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [2] وقوله ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ [3] ونحو ذلك .

والثاني : كقوله ﴿ إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [4] فالساعة هنا معلومة ، لا عالمة . وقوله حين قال فرعون ﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ [5] .

قال موسى ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [6] ومثل هذا كثير . فالشفاعة مصدر ، لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء والشفاعة للمذنبين . فقوله ﴿ إلا مَن أذن له الرحمن ﴾ يتناول النوعين مَن أذِن له الرحمن ورضي له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضي له قولاً من المشفوع له . وهي تنفع المشفوع له فتخلصه من العذاب وتنفع الشافع ، فتقبل منه ويكرم بقبولها ويثاب عليه .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .
(٣) سورة هود آية رقم ١٤ .
(٤) سورة لقمان آية رقم ٣٤ .
(٥) سورة طه آية رقم ٥١ .
(٦) سورة طه آية رقم ٥٢ .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له ﴿ ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ : صَوَاباً ﴾ [1] فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه . كقوله ﴿ مَنْ ذَا الّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ ؟ ﴾ [2] .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ [3] ثم قال ﴿ إلَّا مَن شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [4] وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول « لا ينفع الزرع إلا في وقته » فهو يتناول زرع الحارث وزرع الأرض ، لكن هنا قال ﴿ إلا مَن أذن له الرحمن ﴾ والاستثناء مفرغ ، فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا مَن أذن له الرحمن ﴾ فإذا لم يكن في الكلام حذف ، كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف ـ تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ـ كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه يضاف إلى بعضهم لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله ﴿ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله ﴾ [5] أي من يؤمن و﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ

---

(1) سورة النبأ آية رقم ٣٨ .
(2) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(3) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .
(4) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .
(5) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

الَّـذي يَنْعِقُ ﴾ [1] أي مثل داعي الـذين كفروا كمثـل الناعق ، أو مثـل الـذين كفـروا كمثل منعوق بـه أي الـذي ينعق بـه . والمعنى في ذلـك كله ظـاهـر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله **﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾** إذا كان من هذا الباب لم يحتـج : إن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعـه الشفاعـة وفي الآية الأخرى **﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾** من هؤلاء وهؤلاء . لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعـة عنده إلا لمن أذن لـه أن يشفع فيـه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه . فيكون الإذن للطائفتين والنفع للمشفوع لـه كأحـد الـوجهين ، أو ولا تنفـع إلا لمن أذن لــه من هؤلاء وهؤلاء . فكمـا أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين فالشافع ينتفع بالشفاعة . وقد يكون انتفـاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيـح « اشفعوا تؤجروا . ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » [2] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧١ قال الطبري : المراد تمثيل الكافرين في دعائهم آلهتهم كمثل الـذي ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمـع من أجل البعـد ، فليس للناعق من ذلـك إلا النداء الـذي يتعبه وينصبه ففي هذا يشبه الكفار بالناعق الصائح والأصنام بالمنعوق به .

والنعيق : زجر الغنم والصياح بها يقال : نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً ونعاقاً ونعقاناً أي صاح بها وزجرها قال الأخطل :

انـعـق بـضـأنـك يـا جـريـر فـإنـمـا مـنـتـك نـفـسـك فـي الـخـلاء ضـلالاً

قال القتيبي : لم يكن جرير راعي ضأن ، وإنما أراد بني كليب يعيرون بـرعي الضأن ، وجـرير منهم فهو في جهلهم . والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل ويقولـون : أجهل من راعى الضأن » .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب البـر والصلة والآداب ٤٤ باب استحبـاب الشفاعـة فيما ليس بحـرام ١٤٥ (٢٦٢٧) حدثنـا علي بن مسهر وحفص بن غيـاث عن بريـد بن عبد الله ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى قال كان رسـول الله ـ ﷺ ـ إذا أتاه طـالب حاجـة أقبل على جلسـائه فقال : وذكره . ولفظه (ما أحب) بدلاً من (ما شاء) .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً ﷺ : هو الشفاعة التي يختص بها . وهي المقام المحمود الذي يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية الى حذف ، بل يكون معناها يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (١) ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي ﷺ قال : « يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله من شيء ، يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء » (٢) .

وفي الصحيح أيضاً « لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاع تخفق . فيقول: أغثني فأقول : قد أبلغتك ، لا أملك لك من الله من شيء (٣) » فيعلم من هذا أن قوله « ولا

= ورواه الترمذي في كتاب العلم ١٤ باب ما جاء أن الدال على الخير كفاعله ٢٨١٢ بسنده عن أبي موسى الأشعري عن النبي ـ ﷺ ـ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه البخاري في الزكاة ٢١ وفي الأدب ٣٦ ، ٣٧ والتوحيد ٣١ وأبو داود في الأدب ١١٧ وأحمد ابن حنبل في المسند ٤ : ٤٠٠ ، ٤٠٩ (حلبي) .

(١) سورة النبأ آية رقم ٣٨ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٨٩ باب في قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ٣٤٨ حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة قال لما أنزلت هذه الآية وأنذر عشيرتك الأقربين ٢٦ الشعراء آية ٢١٤ دعا رسول الله ـ ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص وذكره ورواه البخاري في الزكاة ٣ والمناقب ١٢ ورواه الترمذي في كتاب الزهد ٥ باب ما جاء في إنذار النبي ـ ﷺ قومه ٢٤١٢ بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها وذكره وفي التفسير سورة ٢٦ ، ١ ، ٢ والنسائي في الزكاة ٦ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه البخاري في الحيل ١٥ ، والزكاة ٣ والهبة ١٧ والجهاد ١٨٩ وأيمان ٣ وأحكام ٢٤ ورواه الامام مسلم في كتاب الامارة ٦ باب غلظ تحريم الغلول ٢٤ ـ حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبي حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال وذكره ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٤٢٦ ، ٥ : ٢٢٧ ، ٤٢٣ .

يملكون من دونه الشفاعة »[1] و﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾[2] على مقتضاه .
وأن قوله في الآية ﴿ لا يملكون منه ﴾ كقوله ﷺ « لا أملك لكم من الله من شيء »[3] وهو كقول ابراهيم لأبيه ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾[4] .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلَائِكَةُ صَفاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ صَوَاباً ﴾[5] فإن هذا مثل قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾[6] ففي الموضعين : اشترط إذنه . فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضي الله قوله ، فإن الله إنما يرضى الثواب .

« أقوال السلف في معنى : لا يملكون » منه خطاباً

وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب[7] : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال كلاماً ، هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم ـ أو أعلم ـ التابعين بالتفسير .

---

(١) هذه ليست بآية وآيةمريم٨٧ ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ .
(٢) سورة النبأ آية رقم ٣٧ .
(٣) سبق تخريج هذا الحديث .
(٤) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .
(٥) سورة النبأ آية رقم ٣٧ ، ٣٨ .
(٦) سورة طه آية رقم ١٠٩ .
(٧) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد [1] ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفي قوله ﴿ **لا يملكون منه خطاباً** ﴾ لم يذكر استثناء ، فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله ﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة** ﴾ أن هذا عام مطلق . فإن أحداً ـ ممن يدعي من دونه ـ لا يملك الشفاعة بحال، ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله ﴿ **لا يملكون منه خطاباً** ﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار ، لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم قال ابن عطية [2] : قوله ﴿ **لا يملكون** ﴾ الضمير للكفار ، أي لا يملكون ـ من إفضاله وإكماله ـ أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية

---

(١) هو مجاهد بن جبر : أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم تابعي : مفسر من أهل مكة . قال الذهبي . شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس قرأه عليه ثلاث مرات ، يقف عند كل آية يسأله فيما نزلت وكيف كانت وتنقل في الأسفار واستقر في الكوفة ، أما كتابه في التفسير فيتقيه المفسرون ، وسئل الأعمش عن ذلك فقال : كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب ويقال إنه مات وهو ساجد عام ١٠٤ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ٣ : ٩ وحلية ٣ : ٢٧٩ وفي الجمع بين رجال الصحيحين ٥١٠ قال عثمان بن الأسود : مات سنة ١٠٣ هـ] .

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي أبو محمد ، مفسر ، فقيه أندلسي من أهل غرناطة عارف بالأحكام والحديث ، ولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين ، توفي بلورقة عام ٥٤٢ هـ « له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . [راجع نفح الطيب ١ : ٥٨٥ وقضاة الأندلس ١٠٩] .

أخرى ﴿ وخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ، فَلَا تَسْمَعُ إلَّا هَمْساً ﴾ (١) وفي حديث التجلي الذي في الصحيح ـ لما ذكر مروهم على الصراط ـ قال ﷺ « ولا يتكلم أحد إلا الرسل ، ودعوى الرسل : اللهم سلم سلم » (٢) » فهذا في وقت المرور على الصراط ، وهو بعد الحساب والميزان فكيف بما قبل ذلك . وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولي العزم ، وكل يقول « إن ربي قد غضب اليوم لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله . وإني فعلت كذا وكذا ، نفسي ، نفسي ، نفسي (٣) ، فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم ؟

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة وبعد أن ذكر الكافرين ، فقال ﴿ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ، حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ، وَكَأْسَاً دِهَاقاً ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً ، جَزَاءً مِن رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ (٤) ثم قال ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ (٥) فقد أخبر : أن الروح والملائكة ، يقومون صفاً ، لا يتكلمون ، وهذا هو تحقيق قوله ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً أي لا أقدر من أمره على شيء ، وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه . ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب ، فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، قال

---

(١) سورة طه آية رقم ١٠٨ .

(٢) (٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٤) سورة النبأ آية رقم ٣١ ـ ٣٨ .

(٥) سورة النبأ آية رقم ٣٨ .

تعـالى ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَـكَ ، وَمَـا أَمْلِكُ لَـكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [1] فقـد أخبـر الخليـل : أنـه لا يملك لأبيـه من الله من شيء فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً ﴿ إلا مَن أذن له الرحمن وقـال صوابـاً ﴾ قال : حقـاً في الدنيا وعملاً به ، رواه ـ والذي قبله ـ عبد بن حميد [2] ـ وروي عن عكرمة ﴿ وقال صواباً ﴾ قال : الصواب قول لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهـد : يكون المستثنى : مَن أتى بـالكلم الطيب والعمـل الصـالح . وقـوله في سـورة طه ﴿ لا تنفـع الشفـاعـة إلا مَن أذن لـه الـرحمن ورضي له قولاً ﴾ فـإذا جعلت هذه مثـل تلك : فتكون الشفـاعة هي الشفـاعة المطلقة ، وهي الشفاعة في الحسنات وفي دخول الجنة ، كما في الصحيحين « أن الناس يهتمون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يـرحنا من مقامنا هذا [3] ؟ فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفي حـديث الشفاعـة « أدخل من أمتـك من لا حساب عليـه من الباب الأيمن » [4] .

فهـذه شفـاعـة في أهـل الجنـة ، ولهـذا قيـل : إن هـاتين الشفـاعتين مختصتان بمحمد ﷺ ، ويشفع غيره في العصاة .

---

(١) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٢) هـو عبد بن حميـد بن نصـر الكسي ، أبـو محمـد : من حفـاظ الحـديث . قيـل اسمـه عبـد الحميد ، وخفف . نسبته الى كسي (مدينة قـرب سمرقنـد) من كتبه مسنـد كبير ، وتفسيـر ، توفي عام ٢٤٩ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٤ والمستطرفة ٥٠] .

(٣) هذا جزء صغير من حديث كبير رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٨٤ بـاب أدنى أهل الجنـة منزلة فيها ٣٢٧ ـ حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا أبو حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة وذكره .

(٤) هذا جزء من الحديث السابق والـذي سبق تخريجـه (وفيه) (وهم شـركاء النـاس فيما سـوى ذلك من الأبواب) .

فقوله ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا مَن أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموماً ، وفي أهل الجنة ، وفي المستحقين للعذاب ، وهو سبحانه في هذه وتلك : لم يذكر العمل ، إنما قال ﴿ وقال صواباً ﴾ وقال ﴿ ورضي له قولاً ﴾ لكن قد قال الدليل على أن « القول الصواب المرضى » لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ، لكن نفس القول مرضي ، فقد قال الله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [(١)] .

وقد ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما في قوله ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [(٢)] قولين . أحدهما أن المستثنى هو الشافع ، ومحل ﴿ من ﴾ الرفع . والثاني هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان ، أحدهما : أنه أراد بـ ﴿ الذين يدعون [(٣)] من دونه ﴾ آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة فقال ﴿ إلا مَن شهد بالحق ﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ وهم يعلمون ﴾ . بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم ، قال : وهذا مذهب الأكثرين منهم قتادة .

---

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٣) قال الامام الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية : قرأ الجمهور « يدعون » بالتحتية ، وقرأ السلمي وابن وثاب بالفوقية ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ أي التوحيد ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي هم على علم وبصيرة بما شهدوا به ، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً والمعنى ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ وهم المسيح وعزير والملائكة فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها ، وقيل هو منقطع والمعنى (لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً أي لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق) ، قال سعيد بن جبير وغيره : معنى الآية : أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة ، وقال قتادة : لا يشفعون لعابديها ، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية وقبل مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله ، ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام) .

والثاني : أن المراد بـ ﴿ **الذين يدعون** ﴾ عيسى وعزيراً والملائكة الذين عبدهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد ﴿ **إلا مَن شهد بالحق** ﴾ وهي كلمة الإخلاص ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي ﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق** ﴾ هم عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم عبدوا من دون الله ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون ﴿ **من** ﴾ في محل رفع وقيل ﴿ **من** ﴾ في محل خفض .

وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعني : أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : وقد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم . روى بإسناده المعروف ـ على شرط الصحيح ـ عن مجاهد ـ قوله ﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة** ﴾ عيسى وعزير والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ﴿ **إلا مَن شهد بالحق** ﴾ يعلم الحق هذا لفظه ، جعل « شفع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي : فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم، ويكون على هذا يقال : شفعته وشفعت له ، كما يقال نصحته ، ونصحت له . و« شفع » أي صار شفيعاً للطالب أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً ﴿ **إلا من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾ . أن الله ربهم .

وروى بإسناده عن قتادة ﴿ **إلا من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾ الملائكة وعيسى وعزير ، أي أنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح ، لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع ، ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً ، لا يستثنى من ذلك أحد عند الله ، فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد ، ولا قال : لا يشفع لأحد بل قال ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ .

وكل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء ﷺ لم يُعبد كما عُبِد المسيح [1] وهو ـ مع هذا ـ له شفاعة ليست لغيره ، فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد ، وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

وأيضاً فقوله ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ [2] يتناول

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ [سورة المائدة آية رقم ١١٦ ـ ١١٧] .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ؟ ﴾ (١) .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا أطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم . وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى ﴿ وَكَمْ مِن مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ، إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) .

فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه : نفاها مطلقاً . فإن قوله ﴿ من دونه ﴾ إما أن يكون متصلاً بقوله ﴿ يملكون ﴾ أو بقوله

---

(١) سورة يونس آية رقم ١٨ .
(٢) سورة النجم آية رقم ٢٦ .
(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ ـ ٢٨ .

﴿ يدعون ﴾ أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا ، وهذا أظهر . لأنه قال ﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة** ﴾ فأخر الشفاعة وقدم ﴿ **من دونه** ﴾ .

ومثل هذا كثير في القرآن ﴿ **يَدْعُونَ مِن دُونِ الله** ﴾ [1] ويعبدون من دون الله كقوله ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ** ﴾ [2] وقوله ﴿ **وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ الله مَالاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ** ﴾ [3] .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه .

فإن هذا لا نظير له في القرآن ، واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك لا يقال في هذا المعنى ﴿ **من دونه** ﴾ فإن الشفاعة هي من عنده فكيف تكون من دونه ، ولكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً فإذا قيل ﴿ **الذين يدعون** ﴾ مطلقاً دخل فيه الرب تعالى . فإنهم كانوا يدعون الله ويدعون معه غيره ، ولهذا قال ﴿ **وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ** ﴾ [4] .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٨ .
(٢) سورة يونس آية رقم ١٨ .
(٣) سورة يونس آية رقم ١٠٦ .
(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ .
روى الامام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : أي الذنب أكبر عند الله . . ؟ قال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أي . . ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم . قال ثم أي . . ؟ قال أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تعالى تصديقها :
﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** ﴾ والآثام في كلام العرب العقاب وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية ومنه قول الشاعر :
=

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه وهذا أجود من الذي قبله ، لكن يرد عليه ما يرد على الأول .

ومما يضعفها « أن الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال ﴿ **لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة** ﴾ فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب . وإن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة ، فإن المالك للشيء : هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه . فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال ، ولا يقال في هذا إلا « بإذنه » إنما يقال ذلك في الفعل ، فيقال ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟** ﴾ .

وأما في الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكاً لها . فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكاً لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً . وهذا كما قال ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظهير** ﴾[1] فنفى الملك مطلقاً ، ثم قال ﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد ، لا شريك له في الملك قال تعالى ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِين نَذِيراً ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾[2] .

ولهذا ـ لما نفى الشفعاء من دونه ـ نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء وإنما

= جزى الله ابن عروة حيث أمسى عقوقاً والعقوق له أثام

أي جزاء وعقوبة .

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ١ ـ ٢ .

يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [1] وكما قال تعالى ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [2] وكما قال تعالى ﴿ مَا لَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [3] فلما قال ﴿ من دونه ﴾ نفى الشفاعة مطلقاً . وإذا ذكر ﴿ بإذنه ﴾ لم يقل ﴿ من دونه ﴾ كقوله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ [4] وقوله ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [5] .

فمن تدبر القرآن : تبين له أنه كما قال تعالى ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ، مَثَانِيَ ﴾ [6] يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ [7] .

وهو ﴿ مثاني ﴾ يثني الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إنها متماثلة وهي « المتشابه » وإما مماثلة وهي الأصناف والأقسام والأنواع ، وهي « المثاني » .

و« التثنية » يراد بها : جنس التعديد من غير اقتصار على اثنين فقط . كما في قوله تعالى ﴿ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [8] يراد به مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد : جنس العدد ، وتقول : هو يقول كذا ويقول كذا . وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان [9] رضي الله

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ٥١ .
(2) سورة الأنعام آية رقم ٧٠ .
(3) سورة السجدة آية رقم ٤ .
(4) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(5) سورة يونس آية رقم ٣ .
(6) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(7) سورة النساء آية رقم ٨٢ .
(8) سورة الملك آية رقم ٤ .
(9) هو حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي أبو عبد الله ، واليمان لقب لأبيه . صحابي من الولاة =

عنهما عن النبي ﷺ أنه « جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لي ، رب اغفر لي » لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد أنه جعل يثني هذا القول ، ويردده ، ويكرره ، كما كان يثني لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم « إنه ركع نحواً من قيامه . يقول في ركوعه : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم وذكر أنه سجد نحواً من قيامه ، يقول في سجوده : رب اغفر لي رب اغفر لي وقد صرح في الحديث الصحيح أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها وذكر « أنه كان يقول : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى (١) فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاقتصار على مرتين ، فإن « الإثنين » أول العدد الكثير ، فذكر أول الأعداد ، يعني أن عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة ، فالتثنية التعديد ، والتعديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس في القرآن تكرار محض ، بل لا بد من فوائد في كل خطاب .

فـ « المتشابه » في النظائر المتماثلة و« الثاني » في الأنواع وتكون التثنية في المتشابه ، أي هذا المعنى قد ثنى في القرآن لفوائد أخر . و« المثاني » تعم هذا أو هذا . وفاتحة الكتاب : هي السبع المثاني (٢) لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

= الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبي - ﷺ - في المنافقين ، لم يعلمهم أحد غيره ، ولما ولي عمر سأله أفي عمالي أحد من المنافقين . . ؟ فقال: نعم ، واحد . قال : من هو ؟ قال : لا أذكره ، وحدث حذيفة بهذا الحديث بعد حين توفي بالمدائن عام ٣٦ هـ له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً . [راجع ابن عساكر ٤ : ٩٣ وتهذيب التهذيب ٢١٩ والاصابة ١ : ٣١٧ ، وحلية الأولياء ١ : ٣٧٠ وتاريخ الاسلام ٢ : ١٥٢ والمنادي ١ : ٥٠] .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) اختلف العلماء في السبع المثاني . فقيل الفاتحة ، قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة ، =

« الشفاعة لمن شهد بالحق »

والمقصود هنا أن قوله ﴿ لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ قد تم الكلام هنا ، فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة من دون الله الشفاعة البتة ، ثم استثنى ﴿ إلا مَن شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ ، فهذا استثناء منقطع ، والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين ، فلما نفى ملكهم للشفاعة بقيت الشفاعة بلا مالك لها كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون في أحد ؟ فقال نعم ﴿ من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون فالملائكة والأنبياء والصالحون ، وإن كانوا لا يملكون الشفاعة ـ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا ، وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، فيشهدون بالحق وهم يعلمون ، لا يشفعون

= والربيع بن أنس ، وأبو العالية والحسن وغيرهم . وروي عن النبي ﷺ ـ من وجوه ثابتة من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى ، وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » .
قال : هذا حديث حسن صحيح ، وهذا نص وقال الشاعر :
نشدتكم بمنزل القرآن أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء والمائدة ، والأنعام والأعراف ، والأنفال ، والتوبة معاً إذ ليس بينهما التسمية .
قال سبعاً من المثاني : السبع الطوال ، وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود تثبت فيها ، وقيل : المثاني القرآن كله قال الله تعالى ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك وقال ابن عباس وقيل له : مثاني ، لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ، وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ـ ﷺ :
فقد كان نورا ساطعاً يهتدي به يخص بتنزيل المثاني المعظم
أي القرآن

إلا لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ كما جاء الحديث الصحيح : « إن الرجل يسأل في قبره ؟ ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته »[1] فلهذا قال ﴿ **إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[2] .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعني من قال « لا إله إلا الله » يعني خالصاً من قلبه .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون في أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت في صحيح البخاري : أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال يا أبا هريرة : لقد ظننت أن لا يسألن عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال « لا إله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه[3] .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه ، هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره ممن يقولها بلسانه وتكذبها أقواله وأعماله .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر برواية أنس عن رسول الله ـ ﷺ أنه قال إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وانه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولون ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد) ﷺ ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة .

قال : وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري : كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت » وأنظر الامام مسلم . في كتاب الجنائز .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٨٦.

(٣) الحديث رواه الامام البخاري ٨ : ١٤٦ (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ، وكذا أورده البخاري في كتاب العلم ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٧٢ (حلبي) .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا أن لا إله إلا الله كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (١) .

فإذا شهدوا ـ وهم يعلمون ـ كانوا من أهل الشفاعة شافعين ومشفوعاً لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ـ

في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة ، « حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد منا شدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ـ وذكر تمام الحديث ـ » (٢)

« سبب نزول الآية »

وسبب نزول الآية ـ على ما ذكروه ـ مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزي ـ سبب نزولها : أن النضر بن الحارث (٣)

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٢) هذا حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٨١ باب معرفة طريق الرؤية ٢٩٩ حدثنا أبي عن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ـ ﷺ ـ يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ ـ هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسولَ الله ـ قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال « فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة وذكره » .

(٣) هو النضر بن الحارث : علقمة بن كلدة بن عبد مناف من بني عبد الدار من قريش ـ صاحب

ونفرا معه قالوا : « إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد . فنزلت هذه الآية قاله مقاتل . وعلى هذا فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذي يوجب أن يشفعوا لكم ، فإن أحداً ممن يدعي من دون الله لا يملك الشفاعة ولكن من شهد بالحق وهم يعلمون » . فإن الله يشفع فيه . فالذي تنال به الشفاعة : هي الشهادة بالحق وهي شهادة أن لا إله إلا الله . لا تنال بتولي غير الله ؛ لا الملائكة ، ولا الأنبياء ولا الصالحين .

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره ، فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك . فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة يحرم عليهم الشفاعة ، فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ـ ليشفعوا لهم ـ كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم : به حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال : يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون وكما يظنه

= لواء المشركين ببدر كان من شجعان قريش ووجوهها ومن شياطينها (كما يقول ابن اسحاق) له اطلاع على كتب الفرس وغيرهم .
وهو ابن خالة النبي ـ ﷺ ـ ولما ظهر الاسلام استمر على عقيدة الجاهلية وآذى رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً وكان إذا جلس النبي ـ ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية ـ جلس النضر بعده يحدث قريشاً بأخبار ملوك فارس ورسلهم ويقول : أنا أحسن حديثاً منه توفي عام ٢ هـ . [راجع الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٦ ومعجم البلدان ١ : ١١٢ ومطالع البدور ١ : ٢٣٢ وجمهرة الأنساب ١١٧ ونهاية الأرب للنويري ١٦ : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١] .

النصارى ، ومن ضل من المنتسبين إلى الإسلام الذين يدعون غير الله ، ويحجون الى قبره أو مكانه وينذرون له ، ويحلفون به ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَته وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [١] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير ، والملائكة فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ، ثم قال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [٢] فبين أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين وقد قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ [٣]

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٥٦ ـ ٥٧ .
في صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ﴾ قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون فبقي الذين كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون فنزلت « الآية » ومنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل العرب ، ذكره الماوردي ، وقال ابن عباس ومجاهد عزير وعيسى يبتغون ويطلبون من الله الزلفة والقربة ويتضرعون الى الله تعالى في طلب الجنة وهي الوسيلة أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة الى ربهم ، والهاء والميم في « ربهم » تعود على العابدين أو المعبودين .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٥٧ .

(٣) آلِ عمران آية رقم ٨٠

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضع .

فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي بسبب إتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي[1] وغيره. ويقولون : من كان أكثر صلاة على النبي (ﷺ) كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص وأكثر تعظيماً له كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط بل هذا قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه ، كان ذلك سبباً لشفاعته . وليس الأمر كذلك .

« رأي ابن تيمية »

بل الشفاعة سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين ، والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة . فإن الشفاعة من الله مبدأها ، وعلى الله تمامها ، فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، وهو الذي يأذن للشافع ، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له .

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التي بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته هم أهل التوحيد والإخلاص له. فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعملاً وبراءة وموالاة ومعاداة ، وكان أحق بالرحمة .

والمذنبون الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فخفت موازينهم فاستحقوا النار ، من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة ضافية في هذا الجزء .

بذنوبه ، ويميته الله في النار إماتة فتحرقه النار إلا موضع السجود . ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله على تحقيق كلمة الإخلاص وهي « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم كما ظنه الجاهليون . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

« دعاء الرسول جامع للتوحيد والحمد »

والمقصود هنا أن النبي (ﷺ) كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد [1] . أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

ثم يقول : « اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » .

كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال : كان رسول الله (ﷺ) إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام ١٩٤ .

حدثنا شعبة عن الحكم قال غلب على الكوفة رجل قد سماه زمن بن الأشعث فأمر أبا عبيدة ابن عبد الله أن يصلي بالناس فكان يصلي فإذا رفع رأسه من الركوع قام قدر ما أقول : وذكره .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى (رضي الله عنه) قال : كان رسول الله (ﷺ) إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : « سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي (ﷺ) أنه كان يقول : « اللهم لك الحمد » . وقال : « وملء الأرض وملء ما بينهما » .

ولم يذكر في بعض الروايات لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل في ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء . وكذا قال في القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ [1] .

ولم يقل : « وما بينهما » كما يقول :

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [2] .

فتارة يذكر قوله : ﴿ وما بينهما ﴾ فيما خلقه في ستة أيام ، وتارة لا يذكره ، وهو مراد . فإن ذكره ، كان إيضاحاً وبياناً . وإن لم يذكره ، دخل في لفظ « السموات والأرض » . ولهذا كان النبي (ﷺ) تارة يقول : ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول : « وما بينهما » . وتارة يقول : « وما بينهما » . وفيها كلها : « وملء ما شئت من شيء بعد » . وفي رواية أبي

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٤

(٢) سورة السجدة آية رقم ٤ .

سعيد : « أحق ما قال العبد . . . » إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى الدعاء بالطهارة من الذنوب .

ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . . فالحمد بإزاء النعمة . والاستغفار بازاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ (١)

ففي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » (٢) . وفي حديث أبي سعيد : « الحمد رأس الشكر والتوحيد » كما جمع بينهما في أم القرآن ، فأولهما تحميد ، وأوسطهما توحيد ، وآخرها دعاء . وكما في قوله :

« هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

وفي حديث الموطأ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » . من قالها ، كتب الله له ألف حسنة ، وحط عنه ألف سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) حديث سيد الاستغفار رواه البخاري في كتاب الدعوات باب ما يقول إذا أصبح ، وهو عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ قال : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي . . الخ .

مثلها ، أو زاد عليه . ومن قال في يوم مائة مرة : « سبحان الله وبحمده » ، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » .

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة . وفيها التوحيد والتحميد . فقوله : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله : « لك الملك ولك الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد والتحميد والإستغفار في مواضع مثل حديث كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » فيه التسبيح والتحميد والتوحيد والإستغفار . من قالها في مجلس إذا كان مجلس لغط ، كانت كفارة له . وإن كان مجلس ذكر ، كانت كالطابع له .

وفي حديث أيضاً « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

ففي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال : قال رسول الله (ﷺ) :

ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

وفي حديث آخر أنه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك »[1] .

وقد روي عن طائفة من السلف في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه نحو هذه الكلمات .

---

(١) روى الامام مسلم ـ هذا الحديث ١ : ١١٨ (كتاب الطهارة ، باب ذكر المستحب عقب الوضوء) .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنك خيرالغافرين. اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، فأنت خير الراحمين . لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء فيها التسبيح والتحميد والتوحيد والإستغفار .

فالتسبيح والتحميد والتوحيد لله . فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو . والاستغفار من ذنوب النفس التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد والاستغفار في غير موضع كقوله :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾ (١) .

وفي قوله :

﴿ ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا الله ، إِنَّنِي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ، وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ (٢) .

وفي قوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة محمد آية رقم ١٩ .
(٢) سورة هود آية رقم ٢ ـ ٣ .
(٣) سورة فصلت آية رقم ٦ .

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره : يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بالإستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء . فهم يذنبون لا يستغفرون . لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[1] .

« ولا إله إلا الله » تقتضي الإخلاص والتوكل . والإخلاص يقتضي الشكر ، فهي أفضل الكلام . وهي أعلى شعب الإيمان . كما ثبت في الصحيحين عن النبي (ﷺ) أنه قال : الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة . أعلاها قول : « لا إله إلا الله » . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان .

فـ « لا إله إلا الله » هي قطب رحى الإيمان . وإليها يرجع الأمر كله . والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

وهي معنى « لا إله إلا الله » و« لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى « لا إله إلا الله » و« الحمد لله » في معناها . و« سبحان الله والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري ١ : ١٢ كتاب الإيمان (باب الحياء من الإيمان والحديث من رواية أبي هريرة عن الرسول ـ ﷺ ـ قال : الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء من الايمان وراجع أيضاً أبو داود (السنة) والترمذي في كتاب البر والنسائي في كتاب الايمان ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٥٦ (حلبي) .

فصل

ضلال بعض المتأخرين في قولهم ﴿ فمن نفسك ﴾ على سبيل الإنكار

وقد ظن بعض المتأخرين أن معنى قوله : ﴿ فمن نفسك ﴾ أي « أفمن نفسك » ؟ وأنه إستفهام على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه أن الحسنات والسيئات كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية . فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان . أي بذنوبه . وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك أبو بكر بن فورك [1] . فإنه قال : معناه أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

« الرد على ابن فورك »

قلت : وإضمار الاستفهام - إذا دل عليه الكلام - لا يقتضي جواز إضماره في الخبر المخصوص من غير دلالة . فإن هذا يناقض المقصود ، ويستلزم أن كل من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر في خبره استفهاماً ، ويجعله استفهام إنكار .

(١) سبق الترجمة له .

وهـذا من جهة العـربية نـظير مـا زعمه بعضهم في قـول إبراهيم (عليـه السلام) : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ (1) أهذا ربي ؟ .

قال ابن الأنباري : هذا القول شـاذ ؛ لأن حرف الاستفهـام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والإستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله :

﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ ؟ ﴾ (2)

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الإستفهـام في أول الجملة في الجملة الشرطية :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الخُلْدَ ﴾ (3) .

فلم يحتج إلى ذكره ثانية ، بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ؟ ﴾ (4) .

وقوله :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ ﴾ (5)

وقوله :

﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم ؟ ﴾ (6)

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ٧٦ .
(2) سورة الأنبياء آية رقم ٣٤ .
(3) سورة الأنبياء آية رقم ٣٤ .
(4) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤ .
(5) سورة البقرة آية رقم ٨٧ .
(6) سورة البقرة آية رقم ١٠٠ .

وهذا من فصيح الكلام وبليغه ، وإستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر ، أم بثمان؟

وقوله :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و« أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني فإن كانت « أم » هي المتصلة ، فكذلك . وإن كانت هي المنفصلة ، فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات ، وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصي علامة محضة على العقوبة لإقترانها بها ، لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وللعقل .

« الله لا يعذب عباده إلا بذنب »

والقرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب . فقال هنا :

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ (١)

وقال لهم في شأن أحد :

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِن عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢)

---

(١) سورة النساء اية رقم ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [1]

وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً :

﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [2] .

وقال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ [3] مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[3]

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [4]

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [5] .

وقال تعالى :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [6] .

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .
(٢) سورة الشورى آية رقم ٤٨ .
(٣) سورة يونس آية رقم ٥٠ .
(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٥) سورة القصص آية رقم ٥٩ .
(٦) سورة الروم آية رقم ٤١ .

وقال تعالى :

﴿ ولَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأدْنَى دُونَ العَذَابِ الأكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢)

وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب :

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . وَمَا ظَلَمَهُمُ الله وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤)

وقال تعالى عن أهل سبأ :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ . . . ﴾ (٥) .

إلى قوله :

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إلَّا الكَفُورَ ؟ ﴾ (٦)

---

(١) سورة السجدة آية رقم ٢١ .
(٢) سورة الشورى آية رقم ٣٤.
(٣) سورة القلم آية رقم ٣٣ .
(٤) سورة آل عمران آية رقم ١١٧ .
(٥) سورة سبأ آية رقم ١٧ .
(٦) سورة سبأ آية رقم ١٦ .

وقال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [1]

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [2]

وفي الحديث الصحيح الالهي :

« يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً ، فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه » [3] .

وفي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [4] .

والحمد لله وحده . وصلى الله على عبد الله ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم . ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين .

---

(1) سورة هود آية رقم ١٠٢ .

(2) سورة الاسراء آية رقم ١٥ .

(3) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

(4) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ١٤ باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ٣٨٧٢ - حدثنا الوليد بن ثعلبة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه الامام البخاري في كتاب الدعوات ١٥ ورواه أبو داود في كتاب الأدب ١٠١ ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٢٢ ، ١٣٥ ، ٥ : ٣٥٦ (حلبي والآية سورة الطور آية رقم ٤٧)

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

ليس ديناً أحسن من الإسلام

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ الله إبراهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (١) .

فنفى أن يكون دين أحسن من هذا الدين ، وأنكر على من أثبت ديناً أحسن منه ، لأن هذا استفهام انكار، وهو انكار نهي وذم لمن جعل دينا أحسن من هذا .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم(٢) .

وقال المسلمون : نحن أولى بالله تعالى منكم ونبينا خاتم النبيين ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٢) في أسباب النزول للواحدي : أخبرنا أبو بكر التميمي ، قال أخبرنا أبو محمد بن حيان ، قال حدثنا أبو يحيى ، قال : حدثنا سهيل ، قال : حدثنا بن مسهر عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح ، قال :

جلس أهل الكتاب ـ أهل التوراة وأهل الانجيل ـ وأهل الأديان كل صنف يقول لصاحبه : نحن خير منكم ، فنزلت هذه الآية .

راجع الدر المنثور ٢ : ٢٢٦ وتفسير الطبري ٦ : ٢٣١

وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فانزل الله تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب** ﴾ ﷺ [1] الآية .

وروى سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق ، قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به** ﴾ **قال أهل الكتاب** : **نحن وأنتم سواء** . حتى نزلت : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ [2] . **الآية** .

ونزلت فيهم أيضاً ﴿ **ومن أحسن دينا** ﴾ الآية [3]

وقد روى عن مجاهد قال : قالت قريش ، لانبعث ولا نحاسب ، وقال أهل الكتاب ﴿ **لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة** ﴾ [4] فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب** ﴾ وهذا يقتضي أنها خطاب للكفار من الأميين وأهل الكتاب لاعتقادهم أنهم لا يعذبون العذاب الدائم ، والأول أشهر في النقل وأظهر في الدليل ، لأن السورة مدنية بالاتفاق ، فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية .

وأيضاً فإنه قد **استفاض** من وجوه متعددة أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **من يعمل سوء يجز به** ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي - ﷺ - حتى **بيَّن** لهم النبي - ﷺ - أن مصائب الدنيا من الجزاء ، وبها يجزي المؤمن فعلم أنهم مخاطبون بهذه الآية لا مجرد الكفار .

وأيضاً قوله بعد هذا ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ [5] الآية . وقوله ﴿ **ومن أحسن دينا** ﴾ يدل على أن هناك تنازعاً في

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٤ وتكملة الآية ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾

(٣) راجع تفسير الطبري ٦ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ والدر المنثور ٢ : ٢٢٥ .

(٤) **سورة البقرة آية رقم ٨٠** .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٢٤ .

تفضيل الأديان ، لا مجرد إنكار عقوبة بعد الموت .

وأيضاً: فما قبلها وما بعدها خطاب مع المؤمنين وجواب لهم ، فكان المخاطب في هذه الآية هو المخاطب في بقية الآيات .

فإن قيل : الآية نص في نفي دين أحسن من دين هذا المسلم ، لكن من أين له أنه ليس دين مثله ؟ فإن الأقسام ثلاثة : إما أن يكون ثم دين أحسن منه . أو دونه، أو مثله ، وقد ثبت أنه لا أحسن منه فمن أين في الآية أنه لا دين مثله ؟ ونظيرها في قوله : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ إنني مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (١) .

قيل : لو قلنا في هذا المقام : إن الآية لم تدل إلا على نفي الأحسن لم يضر هذا ؛ فإن الخطاب له مقامات ، قد يكون الخطاب تارة بإثبات صلاح الدين ، إذا كان المخاطب يدعي أو يظن فساده ، ثم في مقام بأن يقع النزاع في التفاضل فيبين أن غيره ليس أفضل منه . ثم في مقام ثالث يبين أنه أفضل من غيره . وهكذا إذا تكلمنا في أمر الرسول ، ففي مقام نبين صدقه وصحة رسالته وفي مقام بأن نبين أن غيره ليس أفضل منه ، وفي مقام ثالث نبين أنه سيد ولد آدم ؛ وذلك أن الكلام يتنوع بحسب حال المخاطب .

ثم نقول : يدل على أن هذا الدين أحسن وجوه .

---

(١) سورة فصلت آية رقم **٣٣** قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن ـ هو رسول الله ـ ﷺ ـ وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه ، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها وعكرمة ، وقيس بن أبي حازم ومجاهد نزلت في المؤذنين . قال فضيل بن رفيده : كنت مؤذناً لأصحاب عبد الله بن مسعود . فقال لي عاصم بن هبيرة : إذا أذنت فقلت : الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله . فقل وأنا من المسلمين ، ثم قرأ هذه الآية . قال ابن العربي : الأول أصح ، لأن الآية **مكية والآذان** مدني . وقال قيس بن أبي حازم : هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله . والله أعلم .

« أحـدها » أن هـذه الصيغـة وإن كـانت في أصـل اللغـة لنفي الأفضـل لدخول النفي على أفعل ، فإنه كثيراً ما يضمر بعرف الخطاب ، يفضل ـ المذكور المجرور بمن مفضلاً عليه في الإثبات ، فـإنك إذا قلت : هـذا الدين أحسن من هـذا كـان المجـرور بمن مفضلاً عليـه والأول مفضلاً . فـإذا قلت لا أحسن من هذا ، أو من أحسن من هذا ؟ أوليس فيهم أفضل من هذا ، أو ما عندي أعلم من زيـد أو ما في القـوم أصدق من عمـرو ، أو ما فيهم خـير منـه ، فـإن هـذا التأليف يدل على أنه أفضلهم وأعلمهم وخيرهم ؛ بل قد صارت حقيقـة عرفيـة في نفي فضل الداخـل في أفعل ، وتفضيـل المجرور عـلى الباقـين ، وأنها تقضي نفي فضلهم وإثبات فضله عليهم ، وضمنت معنى الاستثناء ، كأنك قلت : مـا فيهم أفضل إلا هذا ، أو ما فيهم المفضل إلا هـذا ، كما أن [إن] إذا كفت بمـا النافية صارت متضمنة للنفي والإثبات .

وكـذلك الاستثنـاء ؛ وإن كان في الأصـل للإخـراج من الحكم فإنـه صار حقيقـة عرفيـة في منـاقضـة المستثنى منـه ، فـالاستثنـاء من النفي إثبـات ، ومن الإثبـات نفي ، واللفظ يصير بـالاستعمال لـه معنى غير مـا كـان يقتضيـه أصـل الوضع . وكذلك يكون في الأسماء المفـردة [1] تارة ، ويكـون في تركيب الكـلام أخـرى ، ويكون في الجمـل المنقولـة كالأمثـال السائـرة جملة فيتغير الاسم المفـرد بعرف [2] الاستعمال عما كان عليـه في الأصل ، إمـا بالتعميم وإمـا بالتخصيص وإما بالتحويل ؛ كلفظ الدابة والغائط والرأس ، ويتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره كما في زيادة حـرف النفي في الجمل السلبيـة وزيادة [3] النفي في كاد وينقل الجملة عن معناها الأصـلي إلى غيره كـالجمل المتمثـل بها ؛ كـما في قولهم « يداك أوكتا وفوك نفخ » و« عسى الغوير بؤساً » .

---

(١) سقط من (ب) لفظ المفردة .

(٢) في (أ) بزيادة لفظ (بعرف)

(٣) سقط من (ب) لفظ (وزيادة)

« الوجه الثاني » أنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير [١] إما أن يكون مثله أو دونه ، ولا يجوز أن يكون مثله ؛ لأن الدين إذا ماثل الدين وساواه في جميع الوجوه كان هو إياه [٢] ، وإن تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفين فإن اختلافهما يمنع تماثلهما ؛ إذ الاختلاف ضد التماثل ، فكيف يكونان مختلفين متماثلين ؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع ؛ فإن أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب والآخر يقول : إنها باطل محرم [٣] فمن المحال استواء هذين الاعتقادين . وكذلك الاقتصادان ، فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه ، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم ؛ فإن دينهم واحد ، كل منهم يعتقد ما يعتقده الآخر ، ويعبده بالدين الذي يعبده ، ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا ؛ بل نقول أبلغ من هذا أن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لا بد أن يكون أحدهما أحسن عند الله فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل ، فذاك الصواب هو أحسن عند الله ، وإن كان أحدهما يقر الآخر . فالإقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولاً مرجوحاً ، وإنما يمنع أن يكون محرماً .

وإذا كان هذا في أدق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول ؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد ، وإنما تنازعوا في المخطىء هل يغفر له أو لا يغفر [٤] ؟ وهل يكون مصيباً بمعنى أداء

---

(١) في (ب) فغيره من الأديان بدلاً من (فالغير)

(٢) في (ب) هو نفسه بدلاً من (هو إياه)

(٣) والأمثلة على ذلك كثيرة فالإسلام هو دين التوحيد ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا هو** ﴾ وتحريف النصرانية تجعلها تنادي **بالتثليث** (الآب ، والابن ، وروح القدس) وغير ذلك كثير .

(٤) إذا كان مجتهداً في الفروع فالمجتهد في الفروع مثاب عند الله كما أخبر بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ =

الواجب وسقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد ؟ فإن هذا لا يقوله عاقل : أن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صواباً .

فتلخيص الأمر أن هذا المقام إنما فيه تفضيل قول وعمل على قول وعمل ، فالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة ؛ بل ومن قال بأن كل مجتهد مصيب قد لا ينازع أن أحدهما أحسن وأصوب ، ولا يدعي تماثلهما . وإن ادعاه فلم يدعه إلا في دق الفروع ، مع أن قوله ضعيف مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف .

وأما الحل فلم يدع مدع تساوى الأقسام فيه ، وهذا بخلاف التنوع **المحض** ، مثل قراءة سورة وقراءة سورة أخرى ، وصدقة بنوع وصدقة بنوع آخر . فإن هذا قد يتماثل ؛ لأن الدين واحد في ذلك من كل وجه ، وإنما كلامنا في الأديان المختلفة ، وليس هنا خلاف بحال .

وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لا يمكن تماثلهما لم يحتج إلى نفي هذا في اللفظ لانتفائه بالعقل . وكذلك لما سمعوا قوله : ﴿ **وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ (1) كان في هذا ما يخاف انتقاصهم إياه .

= المجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر » .

أما الاجتهاد في الأصول فاعتقد ـ والله أعلم ـ أنه لا يجوز اعتماداً على قول الله تعالى :﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ .

(1) سورة القلم آية رقم ٤٨ وتكملة الآية ﴿ **إذ نادى وهو مكظوم** ﴾ وصاحب الحوت « يعني ذا النون ـ وهو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان فحينئذ نادى في الظلمات (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) خرجت الكلمة تحن حول العرش فقالت الملائكة يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال الله تبارك وتعالى : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال هذا يونس . قالوا يا رب عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة . قال : نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء ولهذا قال تعالى ﴿ **فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن أبي وائل عن عبد الله . =

هذا مع أن نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة شاهـدة بتفضيل النبيـين على بعض وبعض الرسل على بعض ، قاضية لأولي العزم بالـرجحان ، شـاهدة بأن محمداً ﷺ سيد ولد آدم (١) ، وأكرم الخلق على ربه لكن تفضيل الدين الحق أمر لا بد من اعتقاده ولهذا ذكره الله في الآية . وأمـا تفضيل الأشخـاص فقد لا يحتاج إليه في كل وقت ، فالدين الواجب لا بد من تفضيله ؛ إذ الفضل يـدخل في الوجوب ، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأنه يجب اعتقاد فضله أولى .

وأما الدين المستحب : فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع لـه فعـل ذلـك المستحب ، وإلا فمن النـاس من يضـره إذا سلك سبيـلاً من سبـل السلام الإسلامية أن يرى غيره أفضل منها ؛ لأنه يتشـوق إلى الأفضل فـلا يقدر عليه ، والمفضول يعرض عنه .

وكـما أنه ليس من مصلحتـه أن يعرف أفضـل من طريقتـه إذا كـان يتـرك طريقته ولا يسلك تلك ، فليس أيضاً من الحق أن يعتقد أن طـريقته أفضـل من غيرها بل مصلحته أن يسلك تلك الطريقة المفضية به إلى رحمـة الله تعالى ، فـإن بعض المتفقهة يدعون الرجل إلى ما هو أفضل من طريقته عندهم ، وقد يكونون مخـطئين فـلا سلك الأول ولا الثاني . وبعض المتصـوفة المـريد يعتقـد أن شيخـه أكمل شيخ على وجه الأرض ، وطريقته أفضـل الطرق وكـلاهما انحـراف (٢) ؛

= قال : قال رسول الله ـ ﷺ : لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري ، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريـرة ـ رضي الله عنه .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الشفاعة ٤٣٠٨ ـ أنبـأنا علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ـ ﷺ « أنا سيد ولد آدم ولا فخـر ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافـع ، وأول مشفع ولا فخـر ، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر »

وأخرجه أبو داود في السنة ١٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٥ (حلبي) .

(٢) وهذا كثير في البلاد العربية والإسلامية والمطلع على أصحاب الطرق الصوفية في تلك البلاد يـرى العجب العجاب ، وكيف أن المريد يطيع شيخه في كل شيء فلا يتزوج ولا يسافـر ، ولا يذهب

بل يؤمر كل رجل أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه ولا ينقل من طاعة الله ورسوله بطريقته ، وإن كان فيها نوع نقص أو خطأ ولا يبين له نقصها إلا إذا نقل إلى ما هو أفضل منها ، وإلا فقد ينفر قلبه عن الأولى بالكلية حتى يترك الحق الذي لا يجوز تركه ، ولا يتمسك بشيء آخر ، وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استقصاؤه وهو مبني على أربعة أصول :

« أحدها » معرفة مراتب الحق والباطل ، والحسنات والسيئات والخير والشر ليعرف خير الخيرين وشر الشرين .

« الثاني » معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب ، وما يستحب من ذلك وما لا يستحب .

« الثالث » معرفة شروط الوجوب والاستحباب من الإمكان والعجز ، وإن الوجوب والاستحباب قد يكون مشروطاً بإمكان العلم والقدرة .

« الرابع » معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم ؛ ليؤمر كل شخص بما يصلحه أو بما هو الأصلح له من طاعة الله ورسوله ، ونهى عما ينفع نهيه عنه ، ولا يؤمر بخير يوقعه فيما هو شر من المنهي عنه مع الاستغناء عنه .

وهذا القدر الذي دلت عليه هذه الآية ـ من أن دين من أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم [1] ، هو أحسن الأديان ، أمر متفق عليه بين المسلمين ـ معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ؛ بل من يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[2] .

= للجهاد ، ولا يفلح الأرض ، ولا يذهب إلى المصنع ، ولا يقوم بتعليم أولاده ، ولا التصرف في ماله إلا بإذن شيخه ، وقد يكون هذا الشيخ منحرف يتبع شيطانه فتحدث من المآسي ومن الانحراف عن الدين ما لا يحمد عقباه .

(١) الآية : ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ . سورة النساء آية رقم ١٢٥

(٢) الآية : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ . سورة آل عمران اية رقم ٨٥ .

ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه ومبين وجه الحكم فإنه بين بهذه الآية وجه التفضيل بقوله ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ وبقوله : ﴿ وهو محسن ﴾ فإن الأول بيان نيته وقصده ومعبوده وإلهه ، وقوله ﴿ وهو محسن ﴾ فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه ، وبالعقل ما هو مثله ، فثبت أنه أحسن الأديان .

« الوجه الثالث » أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل فلم يقل لهما : إن الدينين سواء ، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما ؛ لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل من تفسير أحد الدينين ؛ فإن الإنسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك إلى الكبر والخيلاء والفخر ؛ فقيل للجميع : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ سواء كان دينه فاضلاً أو مفضولاً ؛ فإن النهي عن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة (قال تعالى) ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ إلى قوله : ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ [١] .

فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي ﷺ أن الجزاء قد يكون في الدنيا بالمصائب بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب بقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ [٢] الآية . فبين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان ، وأن كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا إيمان

---

(١) سورة الذاريات الآيات من ١ ـ ٦ .
قال شعبة بن الحجاج عن سماك بن خالد بن عرعرة أنه سمع علياً رضي الله عنه ، وشعبة أيضاً عن القاسم بن أبي بزه عن أبي الطفيل أنه سمع علياً ـ رضي الله عنه ـ وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أنبأتكم بذلك فقام إليه ابن الكواء فقال يا أمير المؤمنين : ما معنى قوله تعالى ﴿ والذاريات ذروا ﴾ قال علي رضي الله عنه : الريح قال : ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ قال رضي الله عنه : السحاب . قال ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ قال رضي الله عنه : السفن . قال ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ قال رضي الله عنه : الملائكة .
(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٤ .

فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات ، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان ، ثم بين بعد هذا فضل الدين الإسلامي الحنفي بقوله : ﴿ وَمن أحسن دينا ﴾ فجاء الكلام في غاية الإحكام .

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه نهي النبي ﷺ أن يفضل بين الأنبياء التفضيل الذي فيه انتقاص المفضول والغض منه كما قال ﷺ « لا تفضلوا بين الأنبياء »[1] وقال : « لا تفضلوني على موسى » بيان لفضله ، وبهذين يتم الدين .

فإذا كان الله هو المعبود وصاحبه قد أخلص له وانقاد ، وعمله فعل الحسنات ، فالعقل يعلم أنه لا يمكن أن يكون دين أحسن من هذا بخلاف دين من عند غير الله وأسلم وجهه له ، أو زعم أنه يعبد الله لا بإسلام وجهه ؛ بل يتكبر كاليهود ، ويشرك كالنصارى ، أو لم يكن محسناً بل فاعلاً للسيئات دون الحسنات ، وهذا الحكم عدل محض ، وقياس وقسط ، دل القرآن العقلاء على وجه البرهان فيه .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ٤٢ باب من فضائل موسى - ﷺ - ١٥٩ - ٢٣٧٣ عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة قال : بينما يهودي يعرض سلعة له أعطى بها شيئاً كرهه أو لم يرضه شك عبد العزيز قال : لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال : تقول : والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر . قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال : تقول . والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله بين أظهرنا ؟ قال فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ - فقال يا أبا القاسم : إن لي ذمة وعهداً وقال : فلان لطم وجهي فقال رسول الله - ﷺ لما لطمت وجهه قال : قال يا رسول الله والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا قال : فغضب الله - ﷺ - حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال : وذكره . ورواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٣٥ باب قول الله تعالى ١٣٩ الصفات (وان يونس لمن المرسلين) بلفظ : « لا تفضلوا بين أولياء الله » فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فاكون أول من بعث فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي »

وهكذا غالب ما بينه القرآن ، فإنه يبين الحق والصدق ، ويذكر أدلته وبراهينه ؛ ليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة ، إن دلالته سمعية خبرية ، وأنها واجبة لصدق الخبر ؛ بل دلالته أيضاً عقلية برهانية ، وهو مشتمل من الأدلة والبراهين على أحسنها وأتمها بأحسن بيان ، لمن كان له فهم وعقل ، بحيث إذا أخذ ما في القرآن من ذلك ، وبين لمن لم يعلم أنه كلام الله أو لم يعلم صدق الرسول ، أو يظن فيه [ظناً] مجرداً عما يجب من قبول قول المخبر ، كان فيه ما يبين صدقه وحقه ، ويبرهن عن صحته .

فصل
وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (1) فقوله : ﴿ يختانون أنفسهم ﴾ مثل قوله في سورة البقرة : ﴿ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (2) قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين معناه تخونون أنفسكم ، زاد بعضهم : تظلمونها . فجعلوا الأنفس مفعول ﴿ تختانون ﴾ وجعلوا الإنسان قد خان نفسه أي ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أُبيرق(3) ـ أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة (4) ـ وهذا

---

(1) سورة النساء آية رقم ١٠٧

(2) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .

(3) وقصته أنه سرق درعاً من جار له يقال له : قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى الى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل يهودي يقال له زيد بن السمين ، فالتمست الدرع عند طعمه فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما أخذها وما له به من علم . فقال أصحاب الدرع : بلى والله قد أدلج علينا فأخذها ، وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق ، فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودي فأخذوه فقال : دفعها إلي طعمة بن أبيرق ، وشهد له أناس من اليهود على ذلك ، فقالت بنو ظفر ـ وهو قوم طعمه ـ انطلقوا بنا إلى رسول الله ـ ﷺ ، فكلموه في ذلك وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودي منهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يفعل ـ وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ الآية كلها . وهذا قول جماعة من المفسرين . =

القول فيه نظر ؛ فإن كل ذنب يذنبـه الإنسان فقـد ظلم فيه نفسـه ، سواء فعله سراً أو علانية .

وإذا كـان اختيان النفس هـو ظلمها أو ارتكـاب ما حـرم عليها كـان كـل مذنب مختاناً لنفسه ، وإن جهر بالذنوب ، وكان كفر الكـافرين وقتـالهم للأنبيـاء وللمؤمنين اختياناً لأنفسهم ، وكذلك قطع الـطريق والمحاربـة ، وكذلـك الظلم الظاهر ، وكان ما فعله قوم نوح وهود وصالـح وشعيب اختيانـاً لأنفسهم ومعلوم أن هـذا اللفظ لم يستعمل في هـذه المعاني كلهـا ، وإنمـا استعمـل في خـاص من الذنوب مما يفعل سراً ، وحتى قال ابن عباس في قولـه : ﴿ تختانـون أنفسكم ﴾ عنى بذلك فعـل عمر ، فـإنه روى أنـه لما جـاء الأنصاري فشكى أنـه بات تلك الليلة ولم يتعش لما نام قبل العشاء وكان من نام قبـل الأكل حـرم عليه الأكـل ، فيستمر صائماً ، فأصبح يتغلب ظهراً لبـطنه ، فلما شكـا حالـه إلى النبي ﷺ قال عمر : يا رسـول الله إني أردت أهلي الليلة فقـالت إنها قد نـامت فظننتهـا لم تنم فواقعتها ، فأخبرتني أنها كانت قد نامت ، قالوا : فأنـزل الله في عمر : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [1] وقد قيـل : إن الجماع ليلة الصيـام

= وهناك أقوال أخـرى لجماعـة آخرين في الـدر المنثور ٢ : ٢١٥ - ٢١٩ والمستـدرك ٤ : ٣٨٥ - ٣٨٨ ، وتفسـير الـطبـري ٩ : ١٧٦ - ١٨٣ وتفسـير الفخـر الـرازي ٣ : ٣٠٧ والقـرطبي ٥ : ٣٧٥ - ٣٧٦ وتفسير ابن كثير ١ : ٥٥٠ - ٥٥٢ ، والبحـر المحيط ٣ : ٣٤٣ وصحيح الترمذي ١١ : ١٦٤ - ١٦٨ ، والروض الأنف ٢ : ٢٨ - ٢٩ .

(٤) يقال إن قيس بن صرفه - وهو شيخ من الأنصار - جاء أهله وهو صائم - فقال : عشوني : فقالوا حتى نسخن لك طعاماً ، فوضع رأسه فنام فجاءوا بالطعام فقال : قد كنت نمت . وكانوا إذا نام الرجل قبل الأكل والجماع حرما عليه - وجاء عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله إني أردت أهـلي الليلة فقالت : إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها . فأخبرتني أنها قد نامت فـأنزل الله تعـالى في عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أحل لكم ليلة الصيام الرفـث إلى نسائكم) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .

الـرفث : كنايـة عن الجماع لأن الله عـز وجـل كـريم يكنى قـالـه ابن عبـاس والسـدي . وقـال الزجاج : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته ، وقـال الأزهري أيضـاً ، وقال =

كانوا منهيين عنه مطلقاً ، بخلاف الأكل ، فإنه كان مباحاً قبل النوم . وقد روى أن عمر جامع امرأته بعد العشاء قبل النوم وأنه لما فعل أخذ يلوم نفسه ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! . أعتذر إلى الله من نفسي هذه الخائنة ، إني رجعت إلى **أهلي** بعدما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي ، فقال النبي ﷺ « ما كنت جديراً بذلك يا عمر » وجاء طائفة من الصحابة فذكروا مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية .

فهذا فيه أن نفسه الخاطئة سولت له ذلك ، **ودعته** إليه ، وأنه أخذ يلومها بعد الفعل ، فالنفس هنا هي الخائنة الظالمة ، والإنسان تدعوه نفسه في السر إذا لم يره أحد إلى أفعال لا تدعو إليها علانية ، وعقله ينهاه عن تلك الأفعال ، ونفسه تغلبه عليها .

ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفى عن المخون كالذي يخون أمانته فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده ، ولو شاهده لما خانه . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ** ﴾ (٢) وقالت امرأة العزيز : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ إِني لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ ، وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ** ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ (٤) .

= ابن عرفة الرفث ها هنا الجماع ، والرفث التصريح بذكر الجماع والاعراب به قال الشاعر :

ويرين من أنس الحديث زوانياً ... وبهن عن رفث الرجال نفار

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢٧ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ١٣ .

وقيل الرفث أصله قول الفحش يقال : رفث وأرفث إذا تكلم بالقبيح ومنه قول الشاعر :

ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة غافر آية رقم ١٩ .

وقال النبي ﷺ لما قام : أما فيكم رجل يقوم إلى هـذا فيضرب عنقـه » ؟ **فقال له رجل :** هلا أومضت إلي ؟ فقـال : « ما ينبغي لنبي أن تكـون له خـائنة الأعين » [1] قال تعالى : ﴿ **وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُـونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُـونَ مَا لَا يَـرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ [2] وفي الصحيحـين عن النبي ﷺ أنـه قـال « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كـذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خـان » [3] وفي حديث آخر « عـلى كل خلق يـطبع المؤمن إلا الخيـانة والكـذب » [4] ومثل هذا كثير .

وإذا كان كذلـك فالإنسـان كيف يخون نفسـه ، وهو لا يكتمهـا ما يقـوله ويفعله سراً عنها ؛ كما يخون من لا يشهده من الناس؟ كما يخون الله والرسول إذا لم يشاهده فلا يكون ممن يخاف الله بالغيب ، ولم خصت هذه الأفعال بأنها خيانـة للنفس دون غيرها ؟ فالأشبه والله أعلم ـ أن يكون قوله : ﴿ **تختانون أنفسكم** ﴾ مثل قوله : ﴿ **إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾ [5] .

---

(1) الحـديث أخرجـه أبو داود في كتـاب الحدود « بـاب الحكم فيمن ارتد » **٤٣٥٩** ـ عن مصعب بن سعد عن سعد . قال : لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتى أوقفه على النبي ـ ﷺ ـ فقال يـا رسول الله بـايع عبـد الله بن سعد بن أبي سرح . فرفع رأسه فنظر إليه ثـلاثاً كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابـه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله . . ؟
فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسك **ألا** أومأت إلينا بعينك . . ؟ قال : وذكره .

(2) سورة النساء آية رقم ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(3) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان **٢٥** بـاب بيان خصـال المنافق **١٠٧** ـ بسنـده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه وذكره ، ورواه البخاري في كتاب إيمان **٢٤** باب علامة المنـافق بسنده عن أبي هريرة . وفي كتاب الأدب **١٩** ، والترمذي في الإيمان **١٤**

(4) الحـديث رواه الامام أحمـد في المسند ٥ : **٢٥٢** ـ (حلبي) ثنـا وكيع ، قـال سمعت الأعمش ، قال : حدثت عن أبي إمامة قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(5) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ والآية ﴿ **ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه** ﴾

والبصريون يقولون في مثل هذا : إنه منصوب على أنه مفعول له ويخرجون قوله : ﴿ سَفِهَ ﴾ عن معناه في اللغة ، فإنه فعل لازم ، فيحتاجون أن ينقلوه من اللزوم إلى التعدية بلا حجة .

وأما الكوفيون ـ كالفراء [1] وغيره ومن تبعهم ـ فعندهم أن هذا منصوب على التمييز ، وعندهم أن المميز قد يكون معرفة كما يكون نكرة وذكروا لذلك شواهد كثيرة من كلام العرب ، مثل قولهم : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره . وكان الأصل سفهت نفسه ورشد أمره ، ومنه قولهم : غبن رأيه وبطرت نفسه ، فقوله تعالى : ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [2] من هذا الباب . فالمعيشة نفسها بطرت فلما كان الفعل نصبه على التمييز قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ [3] فقوله : ﴿ سفه نفسه ﴾ معناه إلا من سفهت نفسه أي كانت سفيهة ، فلما أضاف الفعل إليه نصبها على التمييز كما في قوله : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [4] ونحو ذلك . وهذا اختيار ابن قتيبة وغيره ؛ لكن ذاك نكرة وهذا معرفة .

وهذا الذي قاله الكوفيون أصح في اللغة والمعنى ؛ فإن الإنسان هو السفيه

---

(١) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الديلمي . مولى بني أسد المعروف بالفراء أمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة ، وفنون الأدب كان يقال : الفراء أمير المؤمنين في النحو ، ومن كلام ثعلب « لولا الفراء ما كانت اللغة ، ولد بالكوفة عام ١٤٤ هـ وانتقل إلى بغداد ، وعهد إليه المأمون بتربية ابنه فكان أكثر مقامه بها فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة ـ توفي في طريقه إلى مكة وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها عارفاً بالنجوم والطب يميل إلى الاعتزال من كتبه : المقصور والمحدود ، والمعاني ، ويسمى « معاني القرآن » و« المذكر والمؤنث » واختلاف أهل الكوفة والبصرة ، والشام في المصاحف . وغير ذلك كثير ، كانت وفاته عام ٢٠٧ هـ .

راجع ارشاد الأديب ٧ : ٢٧٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٢٨ وابن النديم ٦٦ ـ ٦٧ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٤ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٥٨ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٤ .

نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ ﴾ (٢) فكذلك قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أي تختان أنفسكم ، فالأنفس هي التي اختانت ، كما أنها هي السفيهة . وقال : اختانت ولم يقل خانت ، لأن الإفتعال فيه زيادة فعل على ما في مجرد الخيانة ، قال عكرمة : والمراد بالذين يختانون أنفسهم ابن أبيرق الذي سرق الطعام والقماش ، وجعل هو وقومه يقولون : إنما سرق فلان لرجل آخر .

فهؤلاء اجتهدوا في كتمان سرقة السارق ورمي غيره بالسرقة كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَخفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ ﴾ فكانوا خائنين للصاحب والرسول وقد اكتسبوا الخيانة .

وكذلك الذين كانوا يجامعون بالليل وهم يجتهدون في أن ذلك لا يظهر عنهم حين يفعلونه ، وإن أظهروه فيما بعد عند التوبة ، أما عند الفعل فكانوا يحتاجون من ستر ذلك وإخفائه ما لا يحتاج إليه الخائن وحده أو يكون قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أي يخون بعضكم بعضاً ، كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٣) وقوله ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ﴾ (٥) فإن السارق وأقواماً

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٥ .

والسفهاء جمع ، واحدة سفيه ، وهو الخفيف العقل من قولهم ثوب سفيه ، إذا كان خفيف النسج ، وقال المؤرج : السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم ، وقال قطرب : الظلوم الجهول والله أعلم .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٥٤ ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٥ وتكملتها ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

(٥) سورة النور آية رقم ١٢ .

خانوا إخوانهم المؤمنين،والمجامع إن كان جامع امرأته وهي لا تعلم أنه حرام فقد خانها والأول أشبه والصيام مبناه على الأمانة ، فإن الصائم يمكنه الفطر ولا يدري به أحد فإذا أفطر سراً فقد خان أمانته ، والفطر بالجماع المستور خيانة كما أن أخذ المال سراً وإخبار الرسول والمظلوم ببراءة السقيم وسقم البريء خيانة ، فهذا كله خيانة ، والنفس هي التي خانت فإنها تحب الشهوة والمال والرئاسة وخان [1] واختان مثل كسب واكتسب فجعل الإنسان مختاناً .

ثم بين أن نفسه هي التي تختان ، كما أنها هي التي تضر ؛ لأن مبدأ ذلك من شهوتها ، ليس هو مما يأمر به العقل والرأي ، ومبدأ السفه منها لخفتها وطيشها والإنسان تأمره نفسه في السر بأمور ينهاها عنه العقل والدين فتكون نفسه اختانته وغلبته ، وهذا يوجد كثيراً في أمر الجماع والمال ، ولهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس، ويقصد بالائتمان من لا تدعوه نفسه إلى الخيانة في ذلك . قال سعيد بن المسيب : لو ائتمنت على بيت مال لأديت الأمانة ، ولو ائتمنت على امرأة سوداء لخفت أن لا أؤدي الأمانة فيها . وكذلك المال لا يؤتمن عليه أصحاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف اتفق .

وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها ، وإن كان الرجل ابتداءً لا يقصد الخيانة ، فتحمله على الخيانة بغير أمره ، وتغلبه على رأيه ولهذا يلوم المرء

---

(١) خانه خوناً وخيانة ومخانة، واختانه فهو خائن، وخائنة وخوان، والجمع : خانه وخونه ، وخوان قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد ، إلا أن الخيانة يقال إعتباراً بالعهد والأمانة والنفاق يقال اعتباراً بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، **ونقيض الخيانة الأمانة قال تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ فالإختيان مراودة الخيانة ولم يقل تخونوا أنفسكم ، لأنه لم يكن منهم الخيانة ، بل كان منهم الإختيان ، فالإختيان تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة وذلك هو المشار اليه بقوله تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [سورة يوسف آية رقم ٥٣] وخائنة الأعين ما يسار من النظر إلى ما لا يحل أو أن ينظر نظرة بريبة . نسبة إلى الخون ونقصه .**

راجع بصائر ذوي التمييز ٢ : ٥٨٢

نفسه على ذلك ويذمها ، ويقول هـذه النفس الفاعلة الصـانعة ؛ فـإنها هي التي اختانت .

فصل

ودل قـوله : ﴿ ولا تجـادل عن الذين يختـانون أنفسهم ﴾ أنـه لا يجـوز الجدال عن الخائن، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خـائنة ، لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجـوز المجادلـة عنها ، قـال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَـائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَـا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [1] وقـال تعـالى : ﴿ وذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وبَاطِنَهُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[3] وقد قال تعالى : ﴿ بل الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [4] فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها ، وهو يبصرها بخلاف ذلك ، وقال تعالى : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْـكَ حَسِيباً ﴾ [5] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ ﴾ [6] .

---

(١) سورة غافر آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة القيامـة آية رقم ١٤ ـ ١٥ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ١٤ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤ .

والألد : الشديد الخصومة ، وهو رجـل ألد ، وامـرأة لداء ، وهم أهـل لدد ، والألـد مشتق من

وقد قال النبي ﷺ « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »[1] فهو يجادل عن نفسه بالباطل ، وفيه لدد : أي ميل واعوجاج عن الحق . وهذا على نوعين : أحدهما: أن تكون مجادلته وذبه عن نفسه مع الناس ، و« الثاني »

و« الثاني » فيما بينه وبين ربه بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسناً، وهي خائنة ظالمة، لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر، قال شداد بن أوس[2] . إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية، قال أبو داود : هي حب الرياسة وهذا من شأن النفس حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ [3] ، ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [4] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ

= اللديدين ، وهما صفحتا العنق ، أي في أي جانب أخذ من الخصومة غلب . قال الشاعر :

وألد ذي حنق علي كأنما تغلي عداوة صدره في مرجل

وقال آخر :

إن تحت التراب غرماً وخرماً وخصيماً ألد ذا مغلاق

(1) الحديث أخرجه البخاري في التفسير وكتاب الأحكام ٣٤ باب الألد الخصم ٧١٨٨ - حدثنا يحيى ابن سعيد عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يحدث عن عائشة - رضي الله عنها قالت : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

وأخرجه الامام مسلم في كتاب العلم ٢ باب الألد الخصم ٥ (٢٦٦٨) حدثنا وكيع عن ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

والنسائي في القضاء وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٥٥ ، ٦٣ ، ٢٠٥ . (حلبي) .

(2) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري أبو يعلى صحابي من الأمراء ولاه عمر إمارة حمص ، ولما قتل عثمان اعتزل وعكف على العبادة كان فصيحاً حليماً حكيماً . قال أبو الدرداء لكل أمة فقيه ، وفقيه هذه الأمة شداد بن أوس . توفي عام ٥٨ هـ في القدس عن ٧٥ سنة وله في كتب الحديث ٥٠ حديثاً .

راجع الاصابة ت ٣٨٤٢ وتهذيبه ٤ : ٣١٥

(3) سورة المجادلة آية رقم ١٨ .

(4) سورة المجادلة آية رقم ١٩

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ، ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا : وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة ، حتى يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ، وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والإيمان الفاجرة وصفهم الله بذلك في غير موضع . وفي قصة تبوك لما رجع النبي ﷺ وجاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ، فلما جاء كعب (٣) قال : والله يا رسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه : إني أوتيت جدلاً ؛ ولكن أخاف إن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ ؛ ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال النبي ﷺ أما هذا فقد صدق ، يعني والباقي يكذبون ثم إنه هجره مدة ، ثم

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٢٢ .

(٣) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البدري الأنصاري السلمي الخزرجي : صحابي ، من أكابر الشعراء ، من أهل المدينة اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي - ﷺ - وشهد الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان ، وأنجده يوم الثورة وحرض الأنصار على نصرته ولما قتل عثمان قعد عن نصرة علي فلم يشهد حروبه ، وعمي في آخر عمره وعاش سبعاً وسبعين سنة توفي عام ٥٠ هـ له ٨٠ حديثاً .

راجع الأغاني ١٥ : ٢٩ والإصابة ت ٧٤٣٥ وخلاصة تذهيب الكمال ٢٧٣ وشرح الشواهد ١٢٣ وخزانة البغدادي ١ : ٢٠٠ .

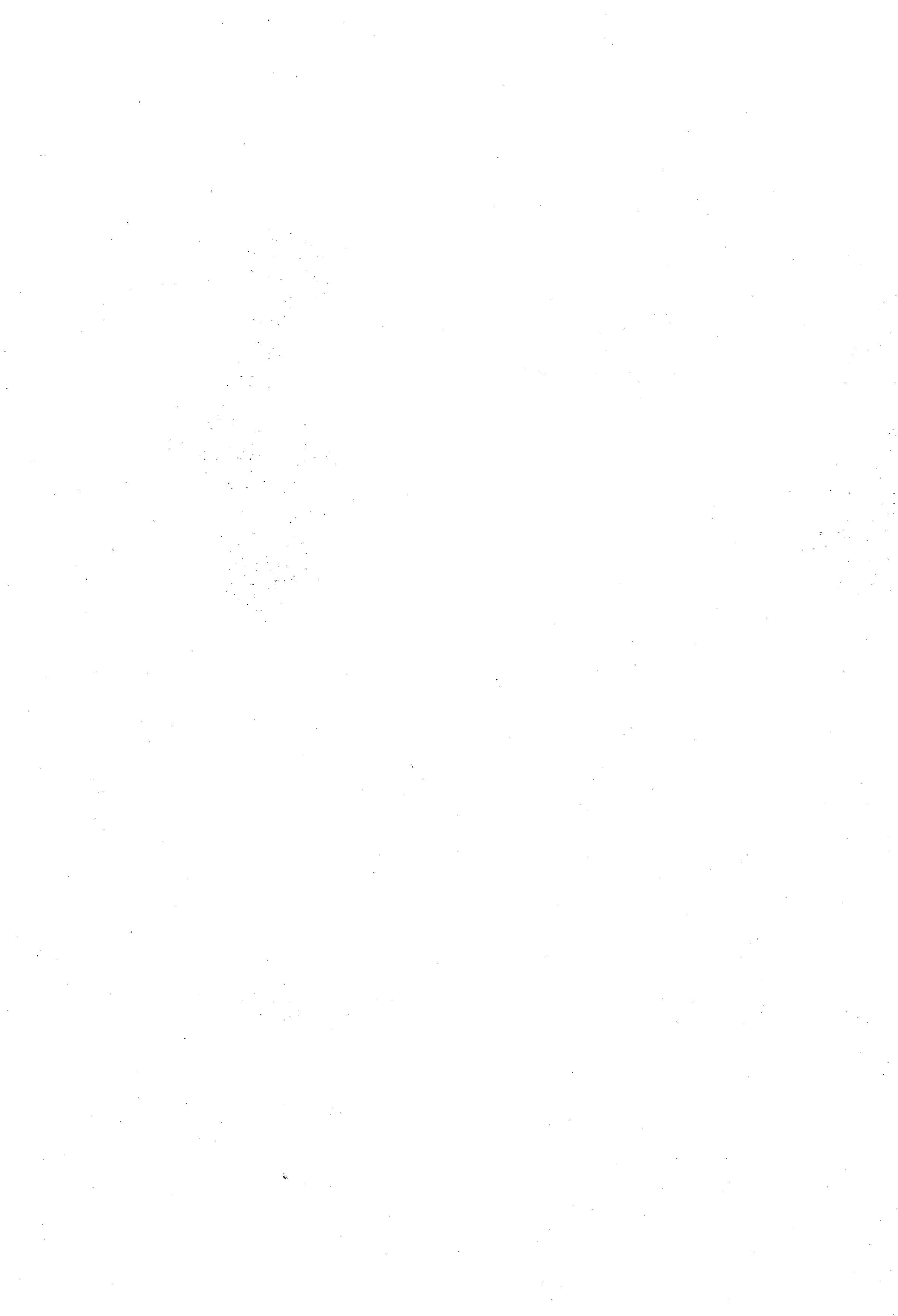
تاب الله عليه ببركة صدقه [1] .

فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز ، بل إن أذنب سراً بينه وبين الله اعترف لربه بذنبه ، وخضع له بقلبه ، وسأله مغفرته وتاب إليه فإنه غفور رحيم تواب ، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً ، وإن أظهر جميلاً وأبطن قبيحاً تاب في الباطن من القبيح . فمن أساء سراً ، أحسن سراً ، ومن أساء علانية أحسن علانية فـ ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ [2] .

---

(1) راجع ما كتبه ابن هشام في تاريخه (سيرة ابن هشام) بشأن غزوة تبوك ودور المنافقين في هذه الغزوة ٤ : ٩٤٣ - ٩٦٤ هـ ودور كعب بن مالك وما فعله مع نفسه وحديث المقاطعة مع أقرب المقربين إليه في المرجع السابق ٩٥٨ - ٩٦٠ .

(2) سورة هود آية رقم ١١٤ .



فهرست الجزء الثالث
من
كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة

الموضوع ——— الصفحة

الموضوع	الصفحة